
مكاوى سعيد
أحوال العباد
كتابة خارج التصنيف

أحوال العباد

الكتاب : أحوال العباد

المؤلف : مكاوى سعيد

الناشر : ن للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372   011-27772007

رقم الإيداع : 2013/10923

الترقيم الدولي : 4-24 -6436-977-978

الطبعة الأولى : 2013

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

تصميم الغلاف : سارة عابدين



أحوال العباد

كتابة خارج التصنيف

مكاوى سعيد



الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى الزمن الذي يتسرب من بين أصابع الكف.

والذي كنت شاهدًا عليه أحيانًا.

وفي بعضها الآخر كنت في موضع مشاهدة.

غير أني لا أخفيكم الحقيقة.

كنت مستمتعًا في كلتا المرتين.

مكاوي

مقدمة

أغلب القصص والحكايات والمقالات الموجودة في متن هذا الكتاب، كتبت بعد ثورة ٢٥ يناير ونشرت بجريدة الأهرام، بطلب من الجريدة حينما رغبت في الظهور بوجه ثوري حتى ينسى الناس انحيازها السافر للرئيس المخلوع ورجال نظامه وبطانته، ومن هنا فقد استكتبت الجريدة عددًا من الكتّاب والمفكرين الذين رأت أنهم قادرين على القيام بهذا الدور بحكم طهارتهم الثورية، أو – لو صح التعبير – سذاجتهم الثورية التى كانت دافعًا قوياً فى قبولهم فكرة الكتابة فى تلك الجريدة دون أن يأخذوا حذرهم من تغير ميولها المتعدد، أذكر من هؤلاء الكتاب والمفكرين، الشاعران حسن طلب وعبد المنعم رمضان والروائي فتحي امبابى والناقد الكبير ابراهيم فتحي ود شاكر عبد الحميد قبل توليه وزارة الثقافة، والعبد لله الذى اسعدنى ماذكروه عن ابداعى الأدبى ومقالاتى التى اعتبروها ارهصات استشرفت التغيير الثورى وبشرت ببعض مما حدث.

وكنت قد ابتعدت عن القالب الصحفى فيما أكتبه، واخترت قالبًا أقرب إلى نفسي ووجداني، وهو قالب يقترب كثيرًا من روح القص والحكي بقدر ابتعاده عن الجمود ونضوب الخيال الذى كان يصرفنى كثيرًا عن اتمام قراءة بعض المقالات والأعمدة الصحفية، وقدمت من خلال هذا القالب صورًا من مشاهداتى ورؤايا وبعضًا من تجاربي وخبراتى، وشذرات من سيرتى وقراءتى، أترك الحكم على محتواها للقراء الذين آذرونى كثيرًا، ويتضمن هذا الكتاب أيضاً بعض الكتابات المختلفة التى نشرتها مجلة "السياسي" التى كانت تصدر عن مؤسسة "المصري اليوم" وتوقفت لظروف تمويلية، ثم جريدة "الصباح" وبعض صحف ومجلات عربية، مثل جريدة الحياة اللندنية ومجلة الدوحة.

ولأزيد القراء معرفة بما يدور فى أروقة بعض المؤسسات الصحفية ومن بينها مؤسسة الأهرام العريقة، سأسرد لكم بإيجاز ماحدث لى فى نهاية تعاملى معها، بعد أن أتممنا

مهمتنا على خير وجه، وطلينا وجهها بطبقة اللون الثورى المطلوب، غير مسئولين عن النتائج بالطبع، فعلى رأي المثل " ايش تعمل الماشطة.. " .

دون شكر أو حمد، عادت ربما لعادتها القديمة، واستأذنوا منا بلطف ورقة أن نوافق على أن يتم نقلنا إلى ملحق داخلي -تم عمله بلهوجة شديدة- اسمه الملحق الأدبى، بدعوى أن كتابتنا أدبية وليست سياسية ؟؟؟ وهذا الملحق سيستوعب مقالاتنا الإبداعية، ثم استبدلونا بفلاسفة رأي كبار من أمثال الأساتذة ياسر على ونادر بكار ومن على شاكلتهم، صارحت المسئول الذى كان يطلب منى بدماسة ورجاء الانتقال إلى الملحق الأدبى بأننى أشم ثمة مؤامرة فى الأمر الغرض منها الاستغناء عن خدماتنا، وقلت له أنى أرى من الأفضل لكلينا أن نكتفي بما قدمناه ونتوقف عن التعامل وكفى الله المؤمنين شر القتال، لكنه أقسم بالله وقال إن الأمر طبيعي جدًا، وان انتقالنا إلى الملحق الأدبى ضمن خطة تطوير الجريدة ولو حدث -لا قدر الله- وتقرر وقفه سنعود مرة أخرى إلى صفحة الرأي، كما أننا سنحتفظ بامتيازاتنا المالية والمساحية وعدد مرات النشر فى كل شهر، بعضنا رفض لكننى للأسف كنت من الموافقين وظللت أكتب وينشر لى على مدى ثلاثة أشهر متواصلة فى الملحق الأدبي، ثم توقف الملحق الأدبي كما كنا نتوقع، ولم نعد إلى صفحة الرأى كما وعدونا، كل هذا غير مهم، الجريدة حرة فى استكتاب أو منع الكتاب المتعاملين من الخارج عن الكتابة وقتما تشاء، لكنها ليست حرة فى أكل حقوق الكتاب، فقد ظللنا نكتب لمدة ثلاثة شهور بلا عائد، وكلما تكلمنا فى الأمر قالوا بدهشة : انها مجرد ارتبكات مالية تمر بها المؤسسة ..لكن لاتضيع الحقوق بالاهرام، ومرت الأيام تلو الأيام ثم أخبرونا بفجاجة بأن السيد ممدوح الولي رئيس مجلس إدارة المؤسسة العريقة اعتذر عن صرف مستحقاتنا المالية دون ابداء الأسباب، فهل كنا نبيع لكم خضروات وفحصتوها فى المطبخ فوجدتموها تالفة، لقد كتبنا ونشرتم ياآكلى الحقوق، ورغم أن طلاءكم هذه الأيام طلاء دينى مشرب بالتقوى والإيمان، فقد تجاهلتم الحديث النبوي الشريف" اعطوا كل ذى حق حقه، قبل أن يجف عرقه "

لقد تعمدت ذكر هذه الواقعة، كما تعمدت وضعها فى المقدمة التى تتصدر هذا الكتاب، لعلها تصبح وثيقة فى المستقبل تعرف الأجيال الجديدة كيف كان بعضهم يتعامل مع الكتاب بعد انتهاء الغرض من استكتابهم.

وفي نهاية مقدمتى اعترف برغم هذه المنغصات، بأنى استفدت كثيرًا من فترة كتابتى بجريدة الأهرام وتعرفت على كتاب حقيقيين ومحترمين وتواصلت معهم انسانيًا، بالإضافة إلى كتابي هذا الذى بين أياديكم واترك لكم الحكم عليه.

مكاوي سعيد

إفطار رومانسي تحت أنياب الرقابة

تعرفت بالمراسلة على فتاة فرنسية من أصول مغربية وأنا طالب في الجامعة، وسرعان ماتحول التعارف إلى صداقة، ثم إلى ارتباط عاطفي رهيف، كان يزداد اشتعالاً ولهيبًا كل يوم بسبب عدم قدرة أحدنا على لقاء الطرف الآخر، بالإضافة إلى ما كان يمر بالمنطقة العربية من أحداث جسام عقب اتفاقية " كامب ديفيد " وعشنا فترة طويلة بالخطابات المتبادلة على فترات منتظمة، والتي كانت تتضمن كل ألوان الهيام ولوعات الأشواق ولهيب الانتظار مع بعض التوابل المقتبسة من نصوص الأغاني وأبيات الأشعار، ثم تطور الأمر وصار بيننا اتصالات هاتفية، غالبها كان من طرفها لسهولة الاتصال ورخص قيمة المكالمة، بينما كنت أعاني الأمرين عند الاتصال بها، لأن سعر الدقيقة كان مرتفعًا جدًا بالنسبة إلى مصروف طالب جامعي، كما كانت وسائل الاتصال بيننا وبين العالم في غاية الصعوبة، فلابد أولاً أن أذهب إلى أقرب "سنترال" وأدفع مقدمًا قيمة الدقائق الثلاث إلى باريس، وبعد أربعة أيام تأتي المكالمة المحجوزة إلى هاتف المنزل. إن وجد أو أتلقاها في "كابينة السنترال" وسط ضجيج المكان، وكنت كلما هاتفتها أو هاتفتني، أسمع همهمات وتنهدات (خصوصًا إذا ما تطرق حديثنا إلى آفاق عاطفية جياشة) وقبل أن تنتهي مدة المكالمة التي دفعت قيمتها كانت تتدخل عاملة الـ "السنترال" بصوتها الجاف والغليظ وتعلن باستياء انتهاء المدة كأنها تتشفى منا، المهم فاض الكيل بصديقتي ذات يوم، وأخبرتني خلال المكالمة بأنه بعد أسبوعين سيمر عام كامل على ارتباطنا العاطفي، ونظرًا لعدم قدرتها على المجيء إلى القاهرة، وانعدام فرصي في الذهاب إلى باريس، فيجب الاحتفال بذلك اليوم معًا رغم بعد المسافة، وأضافت بأنها في تمام الساعة العاشرة من ذلك اليوم ستستمع إلى أغنية وردة الجزائرية التي أججت حبنا "لولا الملامة" وخصوصًا الكوبليه الذي نفضله وهو (بنحب ياناس نكدب لو قلنا مبنحبش... بنحب ياناس والدنيا من غير الحب ماتنحبش... بنحب ياناس وماحدش في الدنيا محبش) وطلبت مني أن أستمع للأغنية في التوقيت ذاته وأن أشرب مثلها نخب هذا الاحتفال "شاي بالياسمين

بقطعتي سكر" وبعد انتهاء الأغنية أجلس متأملاً العام السعيد الراحل ومتفكرًا في العام الجديد، وأنا ألوك في فمي حبة من اللبان الفرنسي، ثم أضافت تحسبًا لعدم وجود الشاي بالياسمين واللبان الفرنسي بالأسواق المصرية، بأنها سترسل لي في الخطاب القادم "باكت" شاي بالياسمين وحبة من اللبان الفرنسي الذي تعشقه.

وقبل اليوم المرتقب بثلاثة أيام، وصلني مظروفها الأزرق المميز غير أنه كان في هذه المرة مختلفًا، فقد كان ملصقًا عليه من أعلاه ورقة حكومية تحوي عبارات متكررة "فتح بمعرفة الرقيب" وعندما أزلت هذه الورقة وفتحت الظرف، وجدت الخطاب كما هو محتشدًا بعبارات الهيام والمحبة، ووجدت عبوة الشاي بالياسمين التي تكفي مرة واحدة، وفي ركن المظروف وجدت نصف حبة اللبان وعليها آثار أنياب حادة، ولم يكن الأمر في حاجة إلى تفسير، الرقيب ظنها نوعًا من مخدر غير معروف فقضمها ليتذوقها ثم أعاد بقيتها إلى الرسالة، وفي اليوم المحدد عملت كل الطقوس المطلوبة عدا موضوع اللبان وظننت أن الأمر سيمر بسلامة، لكنني كنت واهمًا فعندما علمت بالأمر بعد ذلك غضبت وبكت، وقالت إن هذا نذير شؤم، وبعد أشهر معدودات اتسعت المسافة بيننا ثم انتهى ما جمعنا.

وأنا أستعيد هذه الحكاية تذكرت ما حدث للرسام المصري الأرمني الأصل "صاروخان" وكان قد استقر بمصر بعد أن فر من أرمينيا هربًا من مذابح الأتراك ضد الأرمن، وعقب نجاح الثورة البلشفية في روسيا، انطلقت الأخبار السعيدة بأن الأمور استقرت بأرمينيا بعد أن أصبحت ضمن الاتحاد السوفيتي، وطلب ستالين عودة اللاجئين إلى بلادهم، وصاحبت هذه الدعوة إشاعات براقة بأن كل شيء صار جميلاً بأرمينيا، الوظائف كثيرة والرواتب والدخول عالية جدًا والأسعار رخيصة وفرص الاستثمار لامتناهية، وانخدع كثير من الأرمن بهذه الإشاعات ورجعوا إلى بلادهم واختفت أخبارهم، وطلب قريب من صاروخان أن يسافرا سويًا وإذا لم تعجبهما الأوضاع أن يعودا، لكن صاروخان كان متشككًا من فكرة الاستقرار الزائف، فرفض وطلب من قريبه، المصر على العودة، بأن يرسل إليه خطابًا بعد استقراره بأرمينيا يشرح له الحالة، وتخوفًا من الإشاعات المضادة

عن الحكم الحديدي بروسيا الذي لا يفلت خطابًا يمس نظامه، اتفقا على الآتي: أن يكتب القريب في جميع الأحوال خطابًا عاديًا لا يحمل إلا السلامات والتحيات، وإن كانت الحياة سعيدة ومستقرة في أرمينيا يكتب الخطاب بالحبر الأزرق، أما إن كانت الأحوال سيئة وليست على مايرام يكتب الخطاب باللون الأسود.

سافر قريب صاروخان وانقطعت أخباره فترة، ثم وصل إلى صاروخان خطاب من قريبه، مكتوب باللون الأزرق يصف له الجنة التي يعيشها الأرمن داخل بلدهم ويطلب منه العودة بسرعة إلى أرمينيا، وكان في نهاية الخطاب ملحوظة صغيرة تقول: "لا يوجد في أرمينيا كلها حبر أسود لكي أكتب لك به"!

المظروف الأزرق

أيام صعبة كانت تمر على "جون سميث" فقد طرد من عمله وهجرته زوجته، وفضل أولاده صحبة أمهم على البقاء معه بعد أن صار كئيبًا ومقترًا وغبيًا في ردود أفعاله، وكان كل شيء يتباعد عنه.. الأصدقاء انفضوا عنه هربًا من الإلحاح عليهم بطلبات الاقتراض.. والزملاء ضجروا من سماع شكواه المستمرة من صعوبة إيجاد عمل بديل.. والجيران نبذوه تعاطفًا مع زوجته التي هجرته.. وجدران بيته تكاد أن تطبق على أنفاسه، وكلها أشهر قليلة ويطرد منه ويصبح زميلاً لمتشردي أنفاق المترو، باختصار كان مصير"جون سميث" قد بدأت تتضح معالمه، والمسألة كلها شهور معدودات ويفر بحياته خارج الولاية أو تفر منه حياته داخل الولاية.

وها هو يصحو من نومه المتقلقل ليفطر مما تبقى من عشائه، ثم يسير بضع خطوات حتى صندوق بريده، يفتحه ويخرج ما به، وكـ"تنبل" متمرس يفترش أرضية غرفته، ويلقي بمطبوعات الإعلانات بعيدًا، ويكوم الفواتير المستحقة جانبًا، ويفض الخطابات المرسلة إليه من الشركات التي خاطبها طالبًا وظيفة، كلها تتضمن اعتذارًا مهذبًا وتعده بإخطاره في حال خلو وظيفة ما، ولم يبق سوى خطاب أزرق يشبه خطابات العشاق أو تهاني "الفالنتين" همّ بتكويره ورميه بعيدًا، لولا الفضول الذي دفعه لفتحه وقراءته، كانت بداخله ورقة بيضاء صغيرة مكتوبة عليها بضع كلمات حيرته وجعلته يعيد القراءة أكثر من مرة، "اقتل السيد بيل جونسون تحصل على ثلاثة آلاف دولار". سخط "جون سميث" من هذه المزحة السخيفة، ولأربعة أيام تالية ظل يخمن من كتبها، هل هو واحد من أصدقائه أو جيرانه أو لعلها زوجته المنشغلة بإجراءات الطلاق تسري عن نفسها بالسخرية منه ومن فقره!ا وفي اليوم الخامس وجد مظروفًا أزرق آخر داخل صندوق بريده، ولأول وهلة هم بتمزيقه لكنه تماسك وفتحه، ووجد بداخله "شيكًا سياحيًا" بقيمة الثلاثة آلاف دولار، هرول إلى المصرف وهو غير مصدق، وعندما تسلم النقود ووضعها بجيبه كان طوال طريق

العودة يتحسس جيبه ليتأكد من وجودها بالداخل، وهو يعيد عدها في البيت قال لنفسه "لتكن هزارًا أو مكيدة.. لتكن ما تكون! النقود بحوزتي ولن يأخذها مني أحد مطلقًا". ثم تشاغل بقراءة الجريدة حتى وصل إلى صفحة الوفيات، وذهل وهو يقرأ نعي السيد بيل جونسون الذي تُوفي بالأمس!

قبل أن ينفد مبلغ الثلاثة آلاف دولار الذي سدد بجزء منه بعض ديونه، وببعضه اشترى القليل من احتياجاته، جاءه خطاب أزرق جديد به رسالة قصيرة تطلب منه أن يقتل السيدة "ماري كلارك" في مقابل خمسة آلاف دولار.. الرسالة الجديدة أربكته جدًا فهو في حاجة ماسة إلى مبلغ الخمسة آلاف دولار، والأمر لم يعد هزارًا سخيفًا بعد أن حصل على المبلغ السابق ولم يطالبه به أحد، أصبح يهرع يوميًا إلى صندوق بريده لعله يجد الخطاب الأزرق المحتوي على الشيك، وكل يوم يعود بخيبة الأمل ذاتها، وعندما أوشك على اليأس جاءه الخطاب الأزرق وبه الشيك المصرفي الذي قيمته خمسة آلاف دولار، وفي ذات اللحظة التي كانت بها عيناه مثبتتين على قيمة المبلغ بالشيك، كانت يداه تقلب صفحات الجريدة وتستقر عند نعي السيدة ماري كلارك بصفحة الوفيات.

رغم تحسن ظروف "جون سميث" بعض الشيء بعد الشيك الثاني إلا أنه ظل منتظرًا ورود خطاب أزرق جديد، ولم يخب ظنه فبعد عشرة أيام وصله الخطاب يطلب منه قتل السيد "بول جورج" نظير مبلغ وقدره سبعة آلاف دولار، وفي هذه المرة لم يمكث جون سميث بيته منتظرًا بل خرج من منزله في رحلة بحث وتقصي عن السيد بول جورج، وبعد جهد عرف أنه يعالج بمستشفى الولاية وحالته حرجة جدًا، زار جون سميث المستشفى أكثر من مرة مدعيًا أنه من أصدقاء المريض مستغلاً غيبوبته، وكلما تحسنت حالة المريض كان يضع يده على قلبه، فلن يحصل على النقود ولا على ثمن الورود التي يحملها معه كل يوم أثناء الزيارة، لكن القدر كان رحيمًا بهما فقد مات "بول جورج" وتخلص من آلامه ووصل الشيك إلى جون سميث وتخلص من متاعبه.

أصبح شغل"جون سميث" الشاغل كل صباح أن يفتح بريده ويقلب فيه كأبي قردان وهو يقلب الطينة بحثًا عن الديدان، وطالت المدة هذه المرة بعض الشيء لكن أخيرًا وصله الخطاب الأزرق بنفس السطور القليلة التي تطلب منه قتل "آرنست جولدمان" في مقابل عشرة آلاف دولار، وبسرعة كبيرة تقصى جون سميث عن آرنست جولدمان، ودهش عندما وجده شابًا رياضيًا لم يبلغ الثلاثين من العمر.. ليس له ملف طبي مذكور فيه أنه مصاب بعلة ما.. بل إنه لاعب شهير في سباقات الدراجات.. صحيح أنه لم يفز بسباقات مهمة لكنه ينافس دائمًا بقوة.. لأيام كثيرة كان جون سميث يراقبه بدقة ويتابعه في كل مكان ويكاد يحصي عليه أنفاسه، وعرف عن الكثير.. صداقاته وعلاقاته.. عاداته في الأكل والشرب والتريض.. كل المؤشرات تدل على سلامته وطول حياته، لكن جون سميث كان يعتقد في قرارة نفسه أن ثمة حادث ما سينهي حياة آرنست جولدمان.. قد تدهسه مقطورة كبيرة.. قد تقع عليه شجرة.. قد تصيبه صاعقة من السماء.. لكن هيهات، المدعو آرنست يبدو محصنًا لا يصاب بشيء، والنقود بدأت تنفد من جون سميث وآرنست جولدمان يزداد صحة وتألقًا، حسم جون سميث أمره وفي صباح يوم ثلجي مضبب عندما كان آرنست جولدمان يسحب دراجته متهيئًا لركوبها، طعنه جون سميث طعنة واحدة في قلبه، خر بعدها آرنست جولدمان صريعًا على الأرض.

في اليوم التالي وجد جون سميث المظروف الأزرق، بداخله الشيك المصرفي ذو العشرة آلاف دولار، ورسالة قصيرة مكتوب فيها "ما رأيك في مهنتك الجديدة؟"

هذه القصة قرأتها منذ أعوام بعيدة في إحدى المجموعات القصصية العالمية التي تهتم بقصص الغموض والجريمة والتي قام بجمعها المخرج العالمي "ألفريد هيتشكوك"، وقد كتبتها بتصرف لأني نسيت بعض أحداثها، وحرصت على نشرها لطرافتها وليست لها أي علاقة بما يحدث في ساحتنا السياسية حاليًا.

الغرب المتوحش والشرق المتسامح

طيلة ستة أيام في مدينة لندن، لم يحدث أن سمعت ليلاً أو نهارًا صوت "فوامل" أو "كلاكس" سيارة، إلا عند عودتنا أنا والكاتب الكبير "بهاء طاهر" عقب دعوة للعشاء للوفد المصري في منزل السفير، احتفالاً بمناسبة أن العرب في تلك السنة كانوا ضيف شرف "معرض لندن الدولي للكتاب"، وبعد الحفل أمر السفير سائقه بإيصالنا إلى الفندق، الوقت كان ليلاً، والطريق يكاد يخلو من السيارات، سائق سيارة السفير مصري ويده كل فترة تلعب في "الكلاكس" دون داعٍ، وبمجرد أن أنزلنا في المنحدر الذي يوصلنا إلى باب الفندق، أخبرته بتلك الملحوظة، فابتسم وقال إن الطبع غلاب، عذرته وكنت أظنه سائقًا عاديًا بمؤهل متوسط، ثم اكتشفت أنه من خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وتقديره العام جيدا

الفندق في قلب لندن وموقعه بالقرب من حديقة "الهايد بارك" أشهر ساحة للحرية في العالم، والمميزة بخطبائها المجهولين وبأعلى سقف حريات في الدنيا، وكانت مساحة الفندق صغيرة وطوابقه لا تتعدى التسعة، وأغلب ضيوف المهرجان من الكتاب والنقاد العرب كانوا يقيمون به آنذاك، وكأغلب الأمكنة العامة في إنجلترا وسائر دول أوروبا غير مسموح بالتدخين داخلها، لذلك في الصباح الباكر، قبل أن تصل السيارات التي ستقلنا إلى مكان معرض الكتاب، كان المدخنون يخرجون من صالة الفندق، ليقفوا في البرد القارس بالقرب من الباب حتى يدخنوا سجائرهم بعجالة، ثم يعودوا بسرعة إلى الدفء بالداخل، وأمام الباب كان يقف حارس الأمن بلباسه التقليدي "القلنسوة العالية والسترة والبنطلون" الذي يشبه الجندي الإمبراطوري القديم كما كنا نراه في الأفلام.. كان يتحرك للأمام ثم يعود إلى الخلف في توقيت محسوب، وكان على يمين المدخنين حاجز من الطوب فارغ من أعلاه ومزروع فيه نباتات جميلة.. وأمامهم على بعد متر واحد "طفاية" سجائر عمودية، ولأننا كلنا في الهم شرق، المدخنون المصريون والعرب كانوا يتصرفون

كالآتي.. بعد انتهاء سجائرهم يدفسونها في حوض النباتات الذي بجوارهم، ثم يبدأون في إشعال سيجارة أخرى "لأنهم محرومون من التدخين طيلة الليل"، وكان الحارس بمجرد أن يلقي أحدهم بالسيجارة، يتحرك بنفس إيقاعه البطيء، ثم يمسك عقب السيجارة بأطراف أصابعه التي بداخل القفاز بقرف، وكأنه يمسك بقذارة، ويضعه بحرص في الطفاية، دون أن يبدي تذمرًا أو تعليقًا أو استهجانًا، حتى لو تكرر ذلك عشرات المرات، وكان المدخنون يتسمون وهم يومئون تجاهه – من خلف ظهره – بخبث، ثم يتعمدون إشعال سجائر أخرى وإطفاءها بنفس الطريقة، دونما إحساس بفداحة ما يفعلون!

ترى ماذا يقول هذا الحارس اللطيف عنّا لزوجته وهو يسامرها في المساء؟

في نفس هذه السفرة وقبل المغادرة بيوم، ذهبت مع بعض زملائي للتسوق، وأعجبني قميص، فوضعته في خطة الشراء وأنا أنتقل إلى جناح تالٍ، ثم انتقيت بعض الأغراض الأخرى، من الطابق نفسه التابع لمركز التسوق، وهناك رأيت نفس القميص بسعر أقل من سعر القميص الأول، سحبت القميصين إلى مدير هذا القسم متسائلاً عن سبب هذا الفرق، وهل هو ناتج عن عيب ما في القميص، أم لاختلاف في نوعية الخامة، لكنه أكد لي أن القميصين متطابقان، ثم أخبرني بأن سبب اختلاف السعر، يرجع إلى أن قميصًا منهما كان من معروضات مركز التسوق قبل أن يرتفع السعر، لذا بقيَ بنفس سعره القديم، أخذت طبعًا القميص ذا السعر المنخفض، وأنا أفكر في حال أصحاب المحلات بشرقنا الأوسط، الذين بمجرد سماعهم إشاعات عن ارتفاع سلعة ما، يخفونها فورًا، حتى يُعتمد السعر الجديد، كي يربحوا من بيعها ربحًا غير حلال.

اكتشفت أيضًا وأنا في سبيلي لمغادرة هذا الفندق، أنه أحد الملكيات المتعددة للسيد "رفعت الأسد" شقيق الرئيس السابق "حافظ الأسد" في لندن، وللعلم رفعت الأسد هذا، غادر سوريا عام ١٩٨٤ بعد أن حصل من أخيه حافظ الأسد على ١٤ مليون دولار (من دم الشعب السوري) لكي يخلو له الجو ولا ينازعه في الحكم، وقد دفع منها السيد

رفعت الأسد خمسة ملايين من الدولارات، كي يشارك في بناء نفق أسفل بحر المانش بين فرنسا وإنجلترا، وبذلك حصل على الجنسية الفرنسية.

يقولون إن الشرق يتميز بالكرم الحاتمي وحسن الضيافة ومقولات كثيرة من هذا القبيل، لكن تأمل ماذا يفعلون في الغرب لاستضافة عابري السبيل.. في أغلب المقاهي والمشارب ستجد خلف الساقي، رفًا خشبيًا أو معدنيًا، عليه علبة مميزة أو "مج" أو "كوب" وعندما تشرب مشروبك وتدفع، لو كان معك فائض مالي، ستعطيه للساقي كي يضعه في العلبة، وهذا معناه أنك تدعو شخصًا لا تعرفه على مشروب قهوة أو بيرة أو خلافه.. فمن المتعارف عليه أن أي عابر سبيل ليس معه نقود كي يدفع ثمن مشروبه، كل ما عليه أن يدخل إلى أحد هذه الأمكنة، ويجلس أمام الساقي ثم يشير تجاه العلبة بدون كلام، وما على الساقي إلا أن يمد يده داخل العلبة، ويأخذ ثمن المشروب أو الكوبون الذي تركه الزبون الكريم، ثم يقدم المشروب إلى عابر السبيل وعلى وجهه ابتسامة ترحيب.

تأمل هذه اللفتة الحكيمة.. دعاك شخص لا تعرفه – وقد لا يكون من نفس جنسيتك أو دينك أو عرقك – إلى مشروب، دون أن يَمنّ عليك، لأنه لن يراك وأنت تحتسيه، وأنت لن تعرفه، ولن تجد نفسك مضطرًا لشكره...

وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل، وسؤال يحيرني كثيرًا، لماذا اختص الله سبحانه وتعالى.. منطقة الشرق الأوسط بالأنبياء والرسل دون سائر بقاع الدنيا ؟

الرائحة الغامضة

في مثل هذا التوقيت بالذات من شهر مايو، كنت كلما عبرت على كوبري الجامعة، تصاعدت إلى أنفي رائحة نفاذة وغير مميزة، هي ليست بالرائحة الكريهة أو الزكية، هي فقط رائحة تحمل على ظهرها إشارات وعلامات بعواقب سيئة، وتزاملها حركة الهواء الرتيبة التي تضرب في الصدر والوجه بدرجات متفاوتة فتخفف حدة الحر قليلاً لكنها في الوقت نفسه تضخم الإحساس بخطر قريب.

فى أول الأمر كانت تلك الرائحة بأحاسيسها الغامضة تربكني وتوترني وتجعلني متحيرًا لا أعرف الوجهة التي ستأتي منها طعنة الغدر، وبمجرد أن أخلف ورائي الكوبري كانت الرائحة تكاد أن تتوارى خلف الأبنية، تظهر فقط في الميادين والساحات الخالية، تتكثف في الميدان الواسع الذي تطل عليه الجامعة، وتتخلى عني بمجرد دخولي الحرم الجامعي كأنها أم توصل طفلها إلى المدرسة.

عندما أدخل الجامعة كنت أنساها كلية، وأنشغل بزملائي الذين يقابلونني من اتجاهات مختلفة، منهم من يشير إليك بالتحية من بعيد أو يومئ لك برأسه، ومنهم من يصافحك بحميمية، وآخر ينشغل بصاحبته عنك ويعبرك كأنك عمود إنارة، ومنهم من يكمل الطريق معك، لكن ستجدهم كلهم يحملون نفس الكتب الدراسية ذات الأغلفة المهترئة إما أسفل إبطهم أو في حقائب جلدية صارت قديمة، لو كنت دقيق الملاحظة سيلفت نظرك خلو مجموعات كتبهم من ديوان شعر أو رواية أو مجلة أدبية يستعرضون بها أمام فتيات الجامعة كما يحدث في بداية العام الدراسي، وستدرك السبب وأنت وسط فناء الكلية التي تدرس بها، ستجد هناك علامات إقامة سرادق ضخم يليق بعزاء رجل عظيم، الأوتاد الخشبية الكبيرة دقت في الأرض بعزم شديد، وقماش الخيام الملون مكدس بجوارها حتى يحين وقت كسوة هذه الأوتاد، هذا السرادق سيعلن وفاة العام الدراسي الذي أوشك على الانتهاء، وبداخله ستنعقد الامتحانات التي يكرم عندها المرء أو يهان، هذه هي الأوقات

العصيبة التي تتبدل فيها الحياة الجامعية تمامًا، من تلك اللحظة ستفتقد بسمات الطلاب وبشاشة الطالبات، لن تسمع الضحكات الصافية العالية التي تعطر الأجواء، سيقل لهو الطلبة ومزاحهم وعدوهم في كل مكان، لن تتعرف على هوايات الطلبة التي تتفتح كالبراعم على خشبة المسرح سواءً في الأداء التمثيلي أو الغناء، لن تقابلك إعلانات على الحائط لنشاط فرق الجوالة أو لرحلات طلابية إلى الأقصر وأسوان، ستقابلك فقط وجوه يعلوها الكدر والجهامة، ورؤوس محنية على الكتب والمذكرات ومتواصة في الكافتريا، وردود على أسئلتك باقتضاب وبحدة كأن من شروط النجاح الحزم والجدية.

كانت تلك الفترة تقلب مزاجي العام، بمجرد أن أرى أوتاد الخيام تضرب في الأرض، كنت أغادر الكلية ولا أعود إليها إلا في صبيحة الامتحان، وأظل طيلة تلك الفترة الضئيلة أحاول أن أحصل ما فاتني من محاضرات، أو الأجزاء المهمة من المنهج التي نبه إلى أهميتها المحاضر ولم أكن حاضرًا وقتها بالمدرج، ولهذا الغرض أضطر إلى أن أزور زملاء قابعين في منازلهم حليقي الرؤوس حتى لا يجبروا على النزول لأي سبب من الأسباب ويتعطلون عن التحصيل، يقابلونني بملابس النوم وبعجالة ويصرفونني بسرعة غالبًا دون إعطائي ما جئت لأجله، وأغادرهم حانقًا وأقسم لنفسي بأني سأنتبه في العام القادم وسأعطي المنهج حقه، وأحضر الامتحانات تصاحبني تلك الرائحة الغامضة وأعرف في نهاية العام من ماذا كانت تحذرني!

عشرون عامًا أو يزيد منذ أن تخرجت من كليتي، وغادرتني هذه الرائحة مددًا طويلة لكنها في بضع مرات زارتني في أسوأ كوابيسي، غالبًا كانت تحضرني في فترات مفصلية في حياتي، مثلاً عندما قررت ترك العمل بالمحاسبة والتفرغ للأدب، حط على صدري كابوس فظيع بدأ بتلك الرائحة، انتبهت إلى مخاطر اتخاذ هذه الخطوة لكن رغم ذلك اتخذتها، وهاجمتني تلك الرائحة مرة أخرى عندما انتويت في فترة من حياتي الهجرة إلى كندا، ثم انصعت لمخاوف تلك الرائحة وأغلقت هذا الموضوع برمته، وابتعدت عن تلك الرائحة

وبعدت عني سنوات طوال حتى خبت أو كادت تزول من ذاكرتي تمامًا.. لكن الطبع غلاب كما يقولون في الأمثال الشعبية..

منذ أيام قريبة كانت لافتات الموشحين تعلوا الأبنية والجدران وواجهات المطاعم والمحال.. والجدل والناقش يدور في قاعات الأندية وبهو الفنادق.. والجميع يتناقشون في أمور السياسة بلا خوف ولا رهبة ويتحمسون لمرشحهم المفضل دون نزاع أو تعدي.. في المقاهي الحديثة والعادية.. في المدن والحضر.. في أقصى أقاصي الصعيد والريف.. يتابعون المناظرات ويتجادلون حول التحليلات السياسية المختلفة.. والعالم كله يتابعنا بأنظار مشدودة.. وكنت مهتمًا وحريصًا أيضًا على المشاركة في "عرس الديمقراطية" تلك العبارة التي كرهتها من كثرة ما ابتذلها الإعلام ونتف ريشها وجعلها تشبه كلمة "الطبيخ البايت".

في صباح يوم الانتخاب الأول استيقظت ولبست وتعطرت، وفي نصف المسافة من منزلي إلى اللجنة الانتخابية، شممت تلك الرائحة الغامضة مرة أخرى، فتأبطت شرًا وتجاهلتها كعادتي وأكملت طريقي، وقفت في طابور طويل أتفحص الوجوه القلقة والمبتسمة والمتحمسة والضجرة، شاهدت فرحة الإدلاء الحر بالصوت، وفرحة غمر السبابة في علبة الحبر، والحرص على التلويح بها عند الخروج من اللجنة وأثناء السير ومن داخل السيارات.. وبالرغم من كل هذه البهجة لازمتني تلك الرائحة الغامضة حتى ظهور النتيجة، ثم عرفت السبب.. لقد رسبت أيضًا في عامي هذا.. لكن سأستعد جيدًا من بداية العام القادم، ولن أدع الفرصة تفلت من بين أصابعي.. وأنا على يقين بأني سأنجح في المرة القادمة.

أوائل زيارات الغش والاحتيال

ليس المقصود بالعنوان بدايات التعرف على الكذب، وممارسته بناء على رغبة الأهل كحالنا ونحن أطفال نخبر القادم إلى زيارة الوالد بأنه غير موجود كما طُلب منا ذلك، أو نؤمن على كلام الأم وهي تحادث جارتها وتتحجج بمرضنا، أو ارتفاع درجة الحرارة التي شغلتها عن زيارة الجارة، وتجد نفسك متورطًا في الموافقة على ما ادّعته الأم وأنت ترقب اتساع عينيها وجذبة يديها وهي توجه لك كلامها: "مش كده يا واد".. ولا المقصود أيضًا ممارستنا التدميرية والتخريبية كالذي كنا نفعله في سبيل الحصول على "الإسفنج" من أجل صنع الكرة "الشراب" التي كنا نلعب بها في الشوارع.. كنا نختار "الأتوبيسات" الجديدة ونقطع تذاكر حتى آخر الخط، ونراقب الركاب وهم ينزلون تباعًا في محطات وصولهم، وقبيل نهاية الطريق يكون "الأتوبيس" قد خلا معظمه من الركاب.. نتكدس نحن في الكنبة الخلفية.. بعضنا يراقب "الكمساري" أو الركاب الذين قد يلتفتون لما نفعله، وأحدنا منهمك بـ"الموسى" يقطع وسادة الكنبة التي نجلس عليها ويسحب "الإسفنج" منها، ثم يبدأ في توزيعه علينا لنخبئه أسفل قمصاننا ملاصقًا للبطن، وفي محطة الوصول الأخيرة ينتابنا فرح غامر بما فعلناه، وإذا كانت حصيلتنا قليلة نكرر ما فعلناه في أتوبيس العودة، كنا نخرب الممتلكات العامة دون تأنيب ضمير وببلادة عجيبة، كلما فكرت فيها أتعجب من حالنا آنذاك..

ما أقصده التعرف على الكذب والاحتيال من أشخاص يبدو على سيماهم الورع والتقوى، كالذي حدث لي أثناء المرحلة الإعدادية عندما أخبرني زميل الدراسة بأن والده قد قدم أوراقه للدخول في القرعة التي قد تسمح له بأن يحج في هذا العام، وبعدها بأيام طلب مني مرافقته لحضور القرعة وسط أهله وبعض الجيران، وفي اليوم المحدد لإجراء القرعة ذهبنا سويًا إلى وزارة الشئون الاجتماعية لأنها المقر الذي تُجرى فيه هذه القرعة، كان أبوه مسئولاً كبيرًا حينها لذا جلسنا في الصفوف الأولى مع باقي العائلة، بدأت المراسم

وصديقي يحدثني وكله يقين بأن والده سيكون من أوائل المختارين، وحانت لحظة الاختيار وتقدم شخص كله مهابة ووقار ناحية صندوق القرعة، ثم دس يده في الصندوق وأخرجها بأول ورقة وعليها اسم والد صديقي، انطلقت الزغاريد والتصفيق وتتابع الاحتفال بنفس الوتيرة.

غادرت المكان وأنا على يقين بأن في الأمر ما يريب، ولم أهدأ وظللت أضغط على صديقي حتى اعترف لي بأن الورقة التي أخرجها المسئول من الصندوق كانت ملفوفة وموضوعة سلفًا في خاتم المسئول، وأنه عندما دس يده في الصندوق "سلتها" بإبهامه وأخرجها إلى الحاضرين.. أرقتني هذه المسألة جدًا وأنا في بدايات تكويني.. كيف نستخدم الغش والاحتيال وسيلة للحصول على شيء مقدس؟.. وكيف تتمم الدين بالزور والبهتان؟

في المرحلة الثانوية حدث شيء مغاير.. كان لي زميل قد ورث عمارة كبيرة في أحد الأحياء الراقية، وكان أحد السكان يؤجر في تلك العمارة شقة بإيجار "مفروش" لأجل غير محدد، ويبدو أن هذا الساكن كان مصدر عكننة لأهل صديقي، ويريدون إخراجه بشتى الطرق، وفي سبيل ذلك رفعوا عليه قضية طرد بدعوى أنه يضايق السكان ويجلب إلى شقته أشخاصًا سيئين ويصطحب فتيات.. إلخ، وفي أواخر الجلسات طلب منهم القاضي إحضار شهودٍ يؤكدون سوء سلوك الساكن، ألحّ الزميل علي وصديق آخر بأن نحضر للشهادة، وظل يعدد لنا مساوئ الساكن، وكلما تراجعنا اتهمنا بـ"النذالة" وقلة الشهامة، فكيف لا نساعد صديقًا لنا في حاجة إلى المساعدة ونتركه يخسر الشقة أمام هذا الساكن المستهتر، نجح الصديق في النهاية في الحصول على موافقتنا، وظل لأيام يحفظنا الشهادة، وكنت أعرف العمارة جيدًا فأنا أذاكر أحيانًا مع هذا الصديق الذي يسكن في الطابق الرابع بينما الساكن المراد تطفيشه يسكن في الطابق الثاني، حفظنا الشهادة ورددناها أكثر من مرة وكنا نسير بخيلاء أنا والصديق الآخر ونبتسم كلما قابلنا أحدًا من

أهل الصديق صاحب المشكلة، كأننا نقول لهم "اطمئنوا.. نحن رجالة لن تخسروا هذه القضية".

الموقف كان عصيًا فهذه أول مرة أتواجد فيها في قاعة محكمة وأواجه هذا الجمع الغفير، حاولت الهروب أكثر من مرة لولا محاصرة الصديق، بدأت وقائع الجلسة بالخلاف وأسبابه ومرافعات المحامين، ثم حان وقت استدعاء الشهود ونودي على الأسماء وكنت أولهم، سألني القاضي عما رأيته فوصفت وأسهبت فيما لاحظته من سلوكيات سيئة للساكن المذكور، قلت إنني كنت أسمع ضحكات ماجنة صادرة من شقته أثناء صعودي للاستذكار عند صديقي، ورأيته أكثر من مرة وبصحبته فتيات يرتدين ملابس مكشوفة، واصطدمت به مرة وأنا أصعد الدرج فسقط كيس كان بيده ووقعت منه زجاجات بيرة، كان القاضي يسمعني بإنصات ووجهه يفيض بالاهتمام، ثم سألني: هل انتهيت؟.. أومأت برأسي.. قال : يعني إنت كده تعرفه كويس؟.. هززت رأسي.. قال بهدوء: شاور عليه كده في المحكمة، وكأنك رميت بنفسك في حوض سباحة وإذ بك تفاجأ بأنه فارغ من المياه، صدمت وكلما أعاد القاضي السؤال.. كنت أدير رأسي يمينا وشمالاً كأني أبحث عن الشخص المقصود، ففي الحقيقة غاب عن صديقي أن يعرفنا على هذا الساكن أو يدلنا عليه حتى من بعيد لكي نحفظ ملامحه، ازداد توتري ثم حدث لي أمر عجيب.. ظللت أضحك بهستيريا وبلا توقف.. أدرك القاضي الورطة التي أنا فيها فهدأني وسألني عن دراستي، وعندما تأكد من أنني مازلت طالبًا في الثانوي صرفني وهو يقول بأن في مقدوره أن يحبسني، لكن حفاظًا على مستقبلي سيتركني هذه المرة.. صديقي خسر الشقة طبعًا وأنا ما عدت لأذاكر معه، وما عدت أتورط في الكذب والغش.

* العنوان مستلهم من عنوان السيرة الذاتية الرائعة للشاعر الكبير عفيفي مطر (أوائل زيارات الدهشة)

الخيول تحمل روح أبي

كان الوضع مرتبكًا جدًا والأمور على وشك أن تفلت زمامها، السجناء في الفناء والممرات مندهشون جدًا من تأخر إغلاق الزنازين، والحراس بالغلظة ذاتها لا يجيبون أحدًا ولا يشفون غليلاً، وبعض الأقاويل قد تسربت عن تأخر متعهد اللحوم في إرسال اللحوم إلى السجن، طبقًا للعقود الإلزامية الموقعة بينه وبين إدارات السجون، وهذا بمثابة كارثة فاللحوم توزع على المساجين يومين فقط في الأسبوع، يوم الأحد ويوم الخميس، واليوم يوم الأحد، والمساجين يحفظون هذين اليومين غيبًا، فهذين يومي "الزفر" اللذين يساعدانهم في الصمود، وقع مأمور السجن في حيص بيص، فالموجود بالسجن مجرد عجل صغير لا يكفي لإطعام كل المساجين، وإذا نتج عن هذه المشكلة تمردًا سيقال فورًا من منصبه دون أن يستمع أحد إلى دفاعه وتبريراته، ودون مستحقات أو أوسمة، توتر المأمور جدًا وقام بالاتصال بجهات مختلفة، وتلقى اعتذارات شتى ولم يسعفه إلا صديقه مأمور مزرعة طرة، الذي قال إن لديه فقط ثورًا عجوزًا ليس بحاجة إليه، طلب منه مأمور السجن إرسال هذا الثور على الفور، وصل الثور واستقبل بزفة من المساجين، كان ضخمًا مهيبًا ذو صدر عظيم وظهر قوي، ولم تبد عليه آثار الكبر جلية، بعد أن دار المأمور ولف حول الثور وأعجب بضخامته، أشار إلى جزار السجن "وهو أيضًا من النزلاء"، قام الجزار بذبح العجل أولاً، و"طرطشت" الدماء أرضية العنبر، وعنما حان أوان ذبح الثور، سحبوه من الحبل المشدودة به رقبته، وبمجرد اقتراب الثور من الدماء، أدرك سوء المصير، وأهاجته الدماء فانتفض وحل رباطه، وأخذ يجري في فناء السجن محطمًا أي شيء يقابله، والمسجونون بأعلى بنايات السجن يشاهدون باستمتاع هذا المنظر الفريد، وكان أكثرهم سعادة، القبطان الإسباني السجين "أنطونيو"، المسجون بتهمة جلب مخدرات، والمحكوم عليه في أول درجة تقاضي بخمسة وعشرين عامًا، فرغم أن زوجته لم تأتِ لزيارته منذ سنة بالضبط ولم تصله أية رسائل منها في الأشهر الستة المنصرمة، والقنصل الإسباني لم يبلغه بأية كارثة حلت بها أو بطفل من أطفالهما، ورغم أن هذا الغياب أقلقه جدًا، لكنه خرج

من زنزانته اليوم وكله يقين بأنه سيراها قبل إغلاق الزنزانة، هو يحبها جدًا وهي تعشقه، وهي الوحيدة التي صدقته وأقسمت للقنصل بأن أنطونيو قد ظُلم، ومحال أن يجلب مخدرات في سفينته يعرض بها أسرته للخطر، وأنه تعرض لمكيدة، لا يهمه إن الكل كذّبه طالما هي صدقته، وهذا اليوم يصادف الذكرى العاشرة لزواجهما، وهو قد قبل صورتها قبل الخروج من زنزانته، وخرج وكله إيمان بأنه سيقابلها اليوم أو على أقل تقدير ستصله منها بشارة.

كان الثور مازال يجري، والمساجين بعضهم يطارده مع الحراس والبعض الآخر يتابع مايجري بانفعال شديد، والقبطان الإسباني يرقص فرحًا وهو يصيح "أوليه" "أوليه"، نفس الهتاف الذي يهتف به المتفرجون على مباريات مصارعة الثيران في بلده إسبانيا، ثم تمكن أحد المطاردين من طعن الثور في رقبته وخر صريعًا على الأرض ومضرجًا في دمائه، وتم طهيه وتقطيعه إلى قطع صغيرة وزعت على المسجونين وغلقت الزنازين.

في اليوم التالى عند قيام مأمور السجن بزيارة الزنازين، للتفتيش والبحث عن الممنوعات والأشياء المخالفة لقانون السجن، بمجرد دخوله إلى زنزانة القبطان الإسباني، شاهد شيئًا ملفتًا معلقًا على جدار زنزانته، فسأله عنه، أجابه القبطان وهو ينحني احترامًا للمأمور: إنها أذن الثور يا سيدى.

استاء المأمور واستدار يوبخ مساعديه، فهذا معناه أن نصيب أنطونيو كان هذه الأذن فقط، وهذا قد يسيء للعلاقات بين البلدين مصر وإسبانيا، فقال له معتذرًا: أنا آسف يا سيدي، أنت تعلم الظرف الذي ألم بنا أمس، وجعلنا في عجلة من أمرنا، وقد وزعت عليك بالخطأ هذه الأذن بدلاً من قطعة اللحم المخصصة لك، أناشدك بألا تشكو هذا الأمر للسفير الإسباني، وسأعوضك بكمية أكبر من اللحوم في المرة القادمة.

فوجئ المأمور برد أنطونيو: لا يا سيدي، لا أريد لحومًا إضافية في المرة القادمة، إن أذن الثور هذه أتت إليّ من إسبانيا، أرسلتها زوجتي بمناسبة الذكرى العاشرة لزواجنا.. اسمح لي بتعليقها، فإنها جائزة المصارع الإسباني بعد قتله للثور.

هذا مضمون قصة قصيرة لخصتها بعنوان "من بعيد.. فوق الجدران" للكاتب المترجم صبحي مشرقي، وهي منشورة ضمن مجموعته القصصية التي صدرت منذ أكثر من خمس سنوات بعنوان "الخيول تحمل روح أبي" وهو كاتب متميز ومقل، قضى فترة كبيرة من شبابه معتقلاً، والمجموعة كلها تنويعات على فكرة القيود والحرية، تتخللها بعض القصص التي تتناول حياة الأقباط بالصعيد والقاهرة ويقدم فيها الكاتب مشاهد فاتنة، كما في قصص "عصا سمعان" و"هيلانة" و"عمتي والقنديل".

وقد تعرض صبحي مشرقي لأزمة صحية عنيفة وقد تجاوزها بحمد الله حاليًا، وصدرت له مجموعة قصصية جديدة هذا العام، وأتمنى بشكل شخصي أن يكتب صبحي مشرقي عبر رواية طويلة تجربته الطويلة والقاسية في السجن.

مخرج شاطر و آخر بليد

في باكورة شبابه تفجرت مواهبه كلها، فصار ممثلاً مسرحيًا متميزًا، وشاعرًا له مريدون ومعجبون، وأستاذًا أكاديميًا مرموقًا، ومصداقًا لما يرد على لسان العامة بأن الـ "فن جنون" فإن جمع كل هذه المواهب في قبضة يد واحدة هو عين الجنون، صار يخلط الواقع بالتمثيل والحقيقي بالمتخيل، وفاضت مسرحياته وأشعاره ومقالاته النقدية بروح ثورية متمردة وشطحات اعتبرها زملاؤه القابعون في منطقة "البين بين" حالة من حالات الجنون، واستعدوا عليه رجال النظام فصار مطاردًا ومطرودًا من كافة جهات الاسترزاق داخل مصر، وتغير حظ هذا الموهوب الجميل الذي كانت كل كافتريات ومطاعم وسط البلد ترحب بنجوميته وبتابعيه من نجوم المسرح والسينما وبجزالة عطائه، هذه الأماكن التي كانت تخصص له "جرسونًا مهذبًا" يقف زنهارًا بجوار مائدته في انتظار أوامره، أصبحت لا تعبأ بدخوله وأحيانًا تخصص له "جرسونًا غتًا" لمضايقته واستفزازه، وقد تمادى في الغلاسة وتطلب الحساب مقدمًا على غير عادتها، كما انفض من حوله بعض الأصدقاء والتابعين، ولأنه مفطور على الكرم لم تردعه هذه الأزمة وتجعله أكثر حرصًا في الإنفاق، بل جعلته أشد تهورًا وسخاءً، إذا جاءته حوالة مصرفية بالعملة الأجنبية من إحدى المجلات العربية التي ينشر فيها شعره ومقالاته، أنفق المبلغ كله في ليلة أو ليلتين، ولأنه حرم من الظهور على المسرح بأوامر عليا، في كثير من الأوقات كان يؤدي أدوارًا في الشارع تفوق أداءه على المسرح، يرتدي جلبابًا رثًا ويقف على بعض النواصي يتسول بصوت رخيم وبعظمة العظيم الذي ذل، ثم يعود في اليوم التالي أنيقًا نظيفًا مهذبًا يناقش الناس في الأمور العامة، يقف أحيانًا أمام المحلات التي ترفض دخوله يسب أصحابها ويلعنهم ويهدد بإلقاء الطوب عليهم، وينصاع مرات كثيرة لشروطهم ويدفع حسابه مقدمًا أو لا يتحدث إلى أحد الرواد وهو يشرب، وألا يتكلم بصوت عالٍ، وإلا طُرد من فوره (هذه الأماكن تضع صورة الآن في مقدمة المحل – بعد وفاته – جذبًا للمثقفين والفنانين ومحبي الفنون) ثم ابتعد عنه الأصدقاء والندماء وصاروا يتجنبون مجالسته، فسيوهمهم بأن حوالة مالية بمبلغ

ضخم وصلته اليوم، ثم سيكتشفون أنه مفلس ولا يمتلك حتى أجرة التاكسي الذي سيعيده إلى بيته في نهاية السهرة، وواحد منهم سيشيل الشيلة ولن يعود مرة أخرى، لكنه كان لا يعدم الحيل، إذا ما ضنت عليه الأيام بصديق أو محب يدفع عنه الحساب، تدبر أموره بسهولة، فهو صاحب أيادٍ بيضاء على كثير من الخلق وصاحب موهبة فذة تغفر له الكثير.

دخل في إحدى المرات إلى محل "إكسلسيور" الملاصق لسينما مترو بشارع طلعت حرب، كان يحمل ابنه الذي لم يتعد الشهور الثمانية بعد، لم يجلس بالمحل بل ظل يدور في أرجاء المكان وهو يهدهد الطفل ويلاعبه، وفي توقيت معين اقترب من الركن المخصص لتجهيز الأطعمة أمام الزبائن، كان الطاهي منشغلاً بتتبيل الكفتة ومساعده يزيل الشحوم والدهون على الأسياخ الحديدية، ويراقب في الوقت ذاته الدجاج الذي يسلق في إناء ضخم، كان صاحبنا يقرب الطفل من الصينيات المجهزة ويخاطبه بلغة عربية وبأداء تمثيلي: هذه هي البطاطس باللحم المفروم.. وتلك سلاطة الخضراوات التي تطفو على سطحها الطماطم والكرفس.. وهذا ما يسمى بالسمك، كان الطهاة ومن يجاورهم من المساعدين والجرسونات يضحكون جدًا من هذا المشهد المسرحي، وكان الطفل يبتسم لمنظرهم، والزبائن في غاية الدهشة، وصاحبنا يدبر أمرًا عجيبًا، دخل بالطفل إلى الحيز الممنوع دخوله على غير العاملين، واقترب من إناء الشوربة الضخم الذي يغلي ويتصاعد منه بخار كثيف، قرب الطفل من الإناء وظل يهذي بكلمات غير مفهومة وكلما اقترب منه أحد هوشه بإلقاء الطفل داخل الإناء، صرخ الزبائن ونهضوا عن أماكنهم، وحاوطه العاملون بالمكان من كل الجهات، وخرجت الصرخات وأصوات العويل إلى نهر الشارع ووصلت إلى الجهة المقابلة من الشارع، وفي تلك الجهة مسرح يسمى "مسرح ميامي" وتلك الليلة هي ليلة العرض الأولى لمسرحية من بطولة نجمة مسرحية كبيرة، كان صديقنا هو أستاذ هذه النجمة التي وصلتها الضجة وهي تعدل من "مكياجها" فخرجت تستطلع الأمر، وعند باب المسرح أخبروها بأن الأستاذ أصيب بلوثة مؤقتة ويهم بإلقاء طفله في

إناء الشوربة، جرت إليه النجمة ونادته، ولما رآها بكى فاحتضنته وحملت طفله وأدخلته المسرح، ومنحته ما يجعله سعيدًا لأشهر تالية.

ما يحدث الآن في بقع كثيرة من أرجاء الوطن، مثل التجمعات التي تقف أمام مدينة الإنتاج الإعلامي لا للتظاهر السلمي بل لإرهاب العابرين بالسيارات والمارين من المشاة، والذين قاتلوا الشباب العزل أمام قصر الاتحادية، والذين يطلون علينا من فضائيات عجيبة بوجوه خرجت لتوها من عصر الجاهلية، أحس بأنهم يمثلون دورًا كتبه وأخرجه مخرج محدود الموهبة، وكلما أراد بث الرعب فينا مات هو رعبًا من مغبة ما يفعله فيعود معتذرًا خائبًا، الكاتب والمخرج الشاطر يا جماعة هو من يعرف تأثير ما يفعله على الناس قبل أن يؤدي دوره التمثيلي.

الواقع الافتراضي

تعتبر المرحلة الجامعية هي الفترة الذهبية لتكوين "الشلل والجروبات" لكن على الأغلب بمجرد انتهاء العام الدراسي الأول، تتفكك هذه "الجروبات" وتتكون عند بداية العام الثاني "شلل" أكثر تماسكًا، وأذكر – أثناء عامنا الجامعي الثاني – أن انضمت فتاة لطيفة إلى "شلتنا" وهي تحمل إرثًا من مشكلات كبيرة مع زعيم شلتها، فقد كانا بداخل علاقة حب انتهت بالفشل، وآثرت الفتاة السلامة فانضمت إلى شلتنا، غير أنه كانت هناك مراسلات وخطابات متبادلة بينهما، خطابات ليس بها مايشين، لكن الحب نفسه في تلك الفترة كان من الآثام الكبرى، ولما تركت الفتاة جماعتها اغتاظ الزعيم وبدأ في مضايقتها والتلويح باستخدام هذه الرسائل في إيذائها، أخبرت الفتاة زميلة لنا بالمشكلة فقررنا التدخل، ثم عقدنا "جلسة عرب" بين حكماء الجماعتين، تم فيها تبادل الرسائل وحرقها وانطلق كل طرف في سبيله، وفي تلك الفترة لم تكن ماكينات التصوير لها وجود بمصر، لذا فإن حرق الأصول كان يعني انعدام الدليل، وكان ذلك في عام ١٩٧٥ الذي في صيفه قدمت جواز سفري إلى السفارة البريطانية بالقاهرة –كحال أغلب طلاب الجامعة – كي أعمل خلال الفترة الصيفية في لندن، المسئول الإداري بالسفارة صوّر جواز سفري بآلة تصوير عتيقة كالتي تراها في أفلام الأبيض والأسود، ثم أخرج النيجاتيف من الآلة وتركه يجف بعد نشره على حبل رفيع، وطلب مني الحضور في اليوم التالي حتى تجف الصورة!

تصوّر السفارة البريطانية في ذلك الوقت لم تكن بها ماكينة تصوير، لكن تحركت التكنولوجيا بسرعة شديدة بعدها، حتى إن الرئيس النابه أنور السادات أدرك ذلك، وأعلن في إحدى خطبه بأنه بحلول عام ٢٠٠٠ سيعطي كل مواطن مصري "إليكترونًا" في يده (على اعتبار أن الإليكترون كيلو جوافة).

وفي أوائل الثمانينيات أصبح متاحًا للناس امتلاك وسائل تكنولوجية دقيقة كأجهزة الكومبيوتر واللاسلكي والفاكس وماكينات التصوير، ثم حضر المحمول بذات نفسه وفرض وجوده على الجميع، وأجادت شركات الدعاية الترويج له والترغيب فيه، وأصبح حلم كل فرد امتلاكه.. من علية القوم حتى أسافلها، وأضحى من المعتاد أن يزعل منك، أو يشخط فيك صديق يحبك لأنه تذكرك وأراد تحيتك برنة لكنك تراذلت وفتحت عليه الخط وغرمته جنيهين، أو قد يرن عليك أحدهم لكي تكلمه، معتقدًا أنه في مأزق، وتكتشف أنه يريد خدمة منك دون أن يدفع حتى ثمن المكالمة، وفي تلك الفترة كان سعر دقيقة المحمول فاحشًا، كذلك أسعار كروت الشحن، وتم خلق طبقة جديدة من المستهلكين تشتري الهواء على حساب قوت يومها، وأذكر أن سكرتيرة كانت تزاملني بإحدى الشركات، كانت تطلب من صاحب العمل أن يقدم لها نصف الراتب "كروت شحن" لتتمكن من الاتصال بخطيبها، وكانت تدفع إسبوعيًا مبلغًا غير هين لمكتب خدمات المحمول نظير تغيير رنات محمولها بأغنيات حديثة، ثم انتشر المحمول حتى تدهورت أحواله، وبلغ من التردي أن الجالسين على المقاهي صاروا يستخدمونه في طلب المشروبات وساندوتشات الفول وعلب الكشري، وحل الـ "لآب توب" محله، وهنا تجسد أمامنا العالم الافتراضي، تهم بالسلام على صديق حميم فيسلم عليك بأطراف أصابعه وبتجهم، وعند الإلحاح عليه لكي تعرف أسباب زعله، ينبئك بالعجب العجاب وهو يتكلم بجدية، بأنه طلب منك إضافة على حساب "الفيس بوك" لكنك تجاهلته، أو كتب خاطرة أو بث صورة وعمل لك "تاج" ولم تعمل له "لايك" ومهما شرحت وفسرت وادّعيت بأنك لم تدخل إلى حسابك منذ فترة كبيرة، سيواجهك مستنديًا بأنك في اليوم الفلاني واليوم العلاني دخلت وعملت "لايكات" لأشخاص أقل قدرًا منه، وقد تسمع أصوات مشاجرة كبيرة على المقهى بين أطراف كنت تظنهم على وفاق أبدي، فتندفع لفض الاشتباك وحل الخلافات، وستندهش عند معرفتك بأن هذه المشكلة التي كادت تنتهي نهاية دموية، نشأت لأن أحدهم عمل "ديليت" أو "بلوك" للطرف الآخر!

الفضاء الافتراضي في بعض الأحيان يتسبب في واقع دموي، ويصيب البعض بالهوس وجنون الارتياب، الذي جعل البعض يدخل إلى الفيس بوك ومعه قفة مليئة بال "لايكات" وكلما قابلته عبارة أو صورة لصديق افتراضي، وضع لايك، دون قراءة المحتوى، ولنا صديقة مرضت بالجدري وكتبت ذلك على حسابها بالفيس بوك ولكن باللغة الإنجليزية، قبل أن ينتهي اليوم بلغ عدد اللايكات لمرضها ٧٥ لايكًا!

تويتر والفيس بوك كان لهما دورهما الفعال في الثورة المصرية، من خلال التحريض على الصمود ومتابعة الأحداث أولاً بأول، وإعلام العالم كله بما يحدث في غيبة وغيبوبة الإعلام الرسمي، باختصار هذه التقنية قلصت المكان واختزلت الزمان، وهذه الوسيلة هشمت تابوهات كثيرة، وأكسبت الناس جرأة، وحطمت سكون اللغة، وانتجت لغة وسيطة عبارة عن مزيج من مفردات أجنبية وعربية ساعدت في التواصل والسرعة والإيجاز، من أجل سرعة الوصول إلى الهدف مباشرة، غير أني بت أخشى من استخدام هذه اللغة في الأعمال الأدبية، وأن يجور السائد منها على جمال لغتنا، كما أصبحت أخشى أيضًا من استخدام هذه التقنيات الجديدة (كاميرات الويب – الفوتوشوب – رسائل الشات المسجلة..إلخ) فيما يسيء إلى العلاقات الإنسانية، أو علاقات الأطراف المتحابة، وأن تستخدم إحدى وسائل هذه التكنولوجيا في إحداث الضرر، أو تصبح سيفًا مسلطًا على رقاب المحبين، فقد كنا نحرق الأصول قديمًا لكن الفضاء الافتراضي الآن يحتفظ بكل حدث – ولو كان تافهًا – يخرج من العالم ويخزنه، ويمكّن الناس من استعادته في أي وقت وبلا مقابل يذكر، فحذار مما يخبئه لنا الفضاء الافتراضي.

أول متلصص

في إحدى صباحات شهر بؤونة تمكن التاجر "إيمبو" من بيع معظم بضاعته من جلود وكتان وبخور، ثم أغلق مخزنه وذهب إلى سوق الغلال.. حيث تغدى وتسامر مع بعض زملائه التجار، ثم تركهم وقرر السير بمفرده لمسافات أطول، تنفيذًا لأوامر كاهنه الطبيب الذي حذره من السمنة والانفعال.. كان إيمبو يعرف طرق وأزقة شوارع مدينة ممفيس كلها ويكاد يحفظها غيبًا، وكان دائمًا يختار طرقًا قريبة ومتجاورة للسوق المركزي لا تبعد كثيرًا عن بيته، لكن قيظ هذا اليوم الحار أغراه بالتوغل أكثر، حتى ينضح جسده بالعرق فيتخلص من بعض دهونه، كان يمشي وأشعة الشمس تلهب أجزاء جسده العارية، وكان لا يتوقف إلا قليلاً ليستظل بالنصب والجدران والأشجار.. ولسوء حظه اخترق هذه المرة ثكنات خدم الملك وأعوانهم الذين لم ينتبهوا له، وأقعسهم الحر ولهيبه عن الالتفات إليه.. توغل إيمبو في حرم الجبانات الملكية، حتى وصل إلى حدائق الملك، ولم يتراجع، وأغواه أنه كان في فترة حكم "تيتي الأول" – الذي اتسم عهده بالسلام — فظل مستمرًا في سيره لا يخشى مغبة جرأة الاقتحام.. وفجأة وجد الملك "تيتي" مع قائد جيوشه في وضع مريب، لم يجبن إيمبو ويخاف.. لم يقرر الفرار السريع والنفاذ بجلده.. إنما كمن خلف الشجرة الملكية العريقة، يراقب تطور المداعبات بشغف، وقاده فضوله إلى تهور أكبر، و قاده جنونه إلى تصرف خطير.. تتبعهما حتى بوابة القصر حتى أغلقا بوابة القصر خلفهما، دون أن يتصورا ولو للحظة واحدة أن هناك معتوهًا يراقبهما..

فتك الفضول بإيمبو تمامًا، ولم يهمد أو يتراجع؟ وعند تلفته للمرة الرابعة يمينًا ويسارًا، وجد سلمًا خشبيًا مرتكزًا على شجرة.. حمله وأسنده على سور القصر، ثم صعد عليه ليرى بأم عينيه الفعل الفاضح التام.

انسحب إيمبو بعدما اكتفى بما رآه.. لكن هل يسكت هذا المأفون ويضع حجارة هرم كامل بفمه؟.. قطعًا لا.. ظل يلسن ويشرد للملك وقائد جيوشه في كل المدينة، والناس

تنظر إليه باعتباره مجنونًا خطرًا.. أما زوجته فقد غلب حمارها معه.. أتت بأهله وأهلها وكلمتهما في أمره.. وساقت عليه أولاد الحرام والحلال، لكن إيمبو دماغه وألف نعل فرعوني أن يواصل تجريسهما.. ثم تطور هجومه أكثر.. اشترى أقلامًا من البوص ومحبرة كبيرة تحتوي على فتحتين، إحداهما للحبر الأسود المصنوع من السناج، والأخرى للحبر الأسود المصنوع من أكسيد الحديد.. كما اشترى أيضًا فرشاة للتلوين وغمر قطع الكتان في النشاء.. جن جنون زوجته عندما رأت عدته هذه واستشرفت ما سيفعله.. أرسلت طفلها ليأتي بأهلها في الحال.. لم يأبه إيمبو لهم.. مما دفعهم لتهديده هذه المرة بإبلاغ الملك الذي سيتولى مصادرة متجره والتفريق بينه وبين زوجته وأولاده، لكن إيمبو ضحك كثيرًا في وجههم — وكانت هذه أول مرة يضحك فيها منذ رؤيته للفعل الشائن — وقال لهم إنه يهمه أن يسمع الناس لما يقوله، ولا يهتم بكل تهديداتهم، لكنه سيتنازل طوعًا وبمحض إرادته عن متجره وصومعته، وعن كافة جلود الثيران والماعز والصنادل والزيوت والبخور والمراهم وأنوال النسيج، التي يمتلكها وموجودة بحوزة التجار الآخرين.. كما تكفل بدفع أجر سنة للسيدة التي تعاون زوجته في البيت، وبنفس الأجر أيضًا لمصففة شعرها. وتنازل أيضًا عن حقه في حضانة الأولاد.. باختصار أحرق إيمبو سفنه كلها واستعد لمعركته.. على رقع الكتان كتب الواقعة باللون الأسود، وكتب اسم الملك وقائده والفعل الفاضح باللون الأحمر الذي يبرز الموضوع ويميزه، ثم وزع هذه الرقع على زملائه التجار والمزارعين والعامة وحراس المعابد.. لكن للأسف هذه الرقع كصوته الذي نبح لم تجد صدى.. وأخذوها منه باستهانة كأنهم يتوقعونها، وأهملوها كأنها وثيقة تؤكد جنونه.. ففي عرفهم أن الحماقة هي اتهام الملك بفعل سلوك شائن.

تضايق إيمبو جدًا عندما وجد بعض رقعه يستخدمها الأهالي كحامل لعلف الماشية، أو يلقون بها داخل الأفران لزيادة لهيبها..

هنا كف إيمبو عن الاعتراض السلبي من وجهة نظره، وقرر مواجهة الملك وقائده مواجهة مباشرة في قاعة البلاط الملكي.. وبصعوبة بالغة تم تحديد جلسة للبحث في شكوى

المواطن إيمبو ضد الملك وقائد جيوشه في ساحة البلاط الملكي.. وكانت جلسة مشهودة حضرها الملك وقائده ووكيل المجلس وياور المجلس والناسخ الملكي ومساعده والمشرف على الحقول وأعضاء مجلس ممفيس من الوجهاء والنبلاء..

كان من عادة تلك المجالس أن تبدأ بالموسيقى والغناء.. ثم يتلو الملك كلمته وبعدها يتم النظر في الشكاوي المعروضة على المجلس.. استمع كل الحاضرين إلى الشكاوي التي سبقت شكوى إيمبو، وأمروا برد الحقوق لأصحابها، وأرجأوا بعض الشكاوي لجلسة أخرى قريبة.. وحانت ساعة إيمبو الذي عندما بدأ في سرد شكوته.. حدثت بعض الحركات المريبة التالية.. غمز الناسخ الملكي لمساعده فتوقف عن الكتابة.. وأشار وكيل المجلس بإشارة مستترة إلى أعضاء الجوقة الموسيقية فبدأوا في العزف، وصفر بعض أعضاء المجلس استهجانًا وصفر البعض الآخر استهانة بالشكوى والشاكي ولم يمكنوه من آذانهم وكلما رفع إيمبو صوته ليسمعهم ازدادوا صخبًا وضجة (ألا يذكرك هذا ببرلمانات الشرق!).. نظر إيمبو إلى أعضاء المجلس بعين أضفت إليها الدموع الحبيسة بريقًا ثم انصرف.

في الخارج بكى إيمبو بكاءً مرًا ورمى عباءته وظل ينزع شعر رأسه ولحيته بيده مخلفًا أثرًا داميًا على وجهه... ثم هام في البوادي والوديان ولم يعد إلى بيته أبدًا حتى كاد التاريخ يفقد أثره.. أضاعته هوايته العجيبة في التلصص والفضول.. ارتاح الجميع لاختفائه، إلا أمه التي وهبت بعض إرثها إلى ناسخ متمكن، لكي يكتب قصة ابنها إيمبو على ورقة بردي، حرصت على إخفائها عن عيون الجميع حتى يظهرها الزمن.. ويبدو أن لإيمبو حظين وليس حظًا واحدًا فقد كان النبيل "جيتي بن هنت" من ضمن حاضري هذه الجلسة التاريخية، واستاء جدًا من أفعال أفراد الحاشية وجوقة الملك ضد التاجر المسكين. ورغب في التأكد من صدق رواية التاجر، فكمن للملك وقائده وخرج خلفهما أكثر من مرة نهارًا وعصرًا وليلاً.. حتى رأى الملك يطرق باب القائد "سانت".. وتلصص عليهما النبيل "جيتي". ورأى خلال ساعتين ما يؤكد صحة ادعاءات التاجر.. وبحكم أنه نبيل

وسليل كهنة عظام، لم يجرؤ أحد أن يكذبه، ولم يتعاطف أحد مع سلوك الملك وأدانوه وألزموه بإنهاء العلاقة مع قائده واتباع سلوك أكثر حشمة.

(حدثت هذه الحكاية الطريفة في مصر إبان عهد الأسرة الـ ١٨ من حوالي ٤٠٠٠ سنة تقريبًا).

حريــة بلا حدود

له أكثر من وجه وأكثر من تحول جسدي.. حين تراه سائرًا بقامة ممشوقة ووجه متورد مرتديًا ملابس نظيفة وطاليًا شعره بالجيل فهو عائد للتوه من عند أهله بعد أن غاب قليلاً عن منطقة وسط البلد.. وعندما تصادفه بملابس رثة وظهره منحنٍ وذراعه اليمنى مقوسٌ في اتجاه صدره ويسراه ملتصقة بجانبه الأيسر لا تتحرك.. فهو في فترات عمله القليلة حيث يمشي بين الترابيزات ثم يقف بين المجموعات الجالسة يتسول جنيهًا بحروف مبهمة.. هو لا يلح في سؤاله لكن يملك القدرة على جعل كل جسده يرتعش وعضلات وجهه تتمسكن حتى تود جيوبك أن تقذف بكل ما فيها إليه..

في المساء تجده خلف السيارات المركونة يتسامر مع أصدقائه أو يلعبون الورق أو يأكلون بشهية أو ويقتسمون الكلة.. وهذه حالة أخرى حيث يعود جسده إلى طبيعته كالرجل المطاط وتعود يسراه للعمل حيث يشغلها بزجاجة كلّة يضعها بداخل كم القميص أو التي شيرت المهترئ.. يخرج الزجاجة بحرص البخيلة التي تتأمل مصاغها كل ليلة وبعصا صغيرة لا تتعدى الخمسة سنتيمتر يقلب الزجاجة ثم يصب منها في كيس بلاستيك بضع جرعات ثم يبدأ في التشمم بعمق وهو يمضي متجولاً في شوارع وسط البلد وتتوالى الشمات حتى يرتكن على جدار ثم ينزل إلى أسفل وظهره يتحسس الجدار خشية من السقوط ليغيب فترة ليست قصيرة عن الوعي...

منذ سنوات ليست بعيدة عرفته وأنا أعد فيلمًا عن أطفال الشوارع وكان عمره آنذاك الثامنة عشرة، هو ذكي ولماح وأمين ولا يتردد زبائن المقهى حين يرسلونه لشراء سجائرهم وأطعمتهم فيلبي بسرعة ويعود بالباقي كاملاً وهو يناولهم ما طلبوه دون انتظار للإكرامية.. هو بخلاف شلته من أولاد الشوارع له أهل وأخوة كثيرون رأينا بعضهم كثيرًا يبحثون عنه ويأخذونه قسرًا إلى بيتهم لكنه سرعان ما يعود، رافضًا الإقامة بينهم بدعوى أنه يحب الحرية ولا يحتمل قسوة والديه وأخوته عليه... في رأيي أنهم يفهمون الحرية بمعنى أرحب

مما نفهمه عنها ودليلي على ذلك أن زوجته الثانية (وهي طفلة شارع أيضًا) والتي تزوجها بالشارع وبدون وثائق رسمية بل بمجرد ورقة كتبوها وشهدوا عليها —كما قال لي وأشك كثيرًا في هذه المعلومة — هو وزوجته كانا يفترشان الرصيف بمجرد ملاءة خفيفة في الصيف وينامان حتى الصباح دونما خوف أو قلق.. حتى وهي حامل في شهرها الثامن وبطنها ممتدة أمامها كرقبة الإبريق كانت تجاوره في النوم غير آبهة بالتغيرات المناخية أو مطاردات الشرطة أو حتى من المياه القذرة التي قد يلقيها السكان عليهما لأن وجودهما أسفل العمارة يشوه المنظر الحضاري لوسط البلد في رأيهم... ورغم أن إحدى الجمعيات الأهلية عطفت عليها واستضافتها في مقرها وأطعمتها ومنحتها ملابس جديدة وأجبروها على الاستحمام وتركوها في غرفة بها سرير تتقاسمه مع فتاة أخرى... كانت زوجته تستحم وتغير ملابسها وتأكل الوجبات الثلاث وتستقطع منها أجزاءً لزوجها ثم تغافل مسئولي الدار وتقفز من فوق السور ليلاً وهي بحالتها هذه لتنام على الرصيف.. وعندما سألتها مندهشًا عن السبب، قالت لي بأسى أن الجدران تخنقها وتجعلها لا تستطيع النوم فبمجرد قفل الأبواب عليها تحس أن الحوائط ستطبق على صدرها وإنها لن تخرج حية من هذا المكان.

لم يقدر للفيلم الذي أعده الاكتمال عقب القبض على التوربيني والمطاردة الشرسة لأولاد الشوارع في كل مكان والذين كان من بينهم بعض الأولاد الذين حددت لهم أدوارًا في السيناريو.. وقررت الاستفادة بالمادة ووضعتها بالفعل داخل روايتي "تغريدة البجعة" بعد إعادة بناء الأحداث.

بعد صدور الرواية التي لاقت قبولاً حسنًا ولفتت الأنظار إليها وإليه.. تم عمل عدة تحقيقات عنه وظهر في أكثر من برنامج تليفزيوني لعل أهمها برنامج البيت بيتك وبرنامج الساعة العاشرة.. وأذكر أنه قبل أن يلتقي به طاقم برنامج العاشرة مساءً سألني: أقول لهم إيه؟.. أجبته: قول حكايتك بالتفصيل. لكنه أكمل أسئلته وهو شارد: تفتكر أطلب منهم إيه؟.. قلت له: قل لهم يطلبولك شقة من المحافظ بدل النوم على الرصيف. فزع جدًا

وبان على وجهه الضيق وقال بسرعة: لا.. لحسن فعلاً يجيبوهالي!. قالها وكأنني اقترحت عليه أن يطلب منهم سجنًا...

لي طرفات كثيرة معه.. منها أنه اشترى جهاز موبايل بعد أن ادخر ثمنه لأشهر طويلة مع أحد أصحاب ورش إصلاح السيارات بالشارع.. أراه لي وهو سعيد ثم أعطاني رقمه وحلفني بألا أعطي رقمه لأحد (تمامًا ككبار الفنانين الذين يتفضلون علينا بأرقامهم).. وهو يطلعني على إمكانياته لمح بعين الصقر شلة من الأجانب تجلس على المقهى، خطف الموبيل من يدي ودسه في جيبه وأدار لي ظهره ثم قوسه وتحرك ببطء تجاههم.. وعرج بقدمه متخذًا سمات المتسول... وصل إليهم ووقف قبالتهم وظل يشير إليهم بيده السليمة تجاه فمه المفتوح بما معناه أنه يريد أن يأكل.. قررت مداعبته فأخرجت محمولي واتصلت به.. رنتي وصلت إليه في توقيت مذهل ويد السيدة الأجنبية ممتدة تجاهه بورقة من فئة الدولار.. توالت الرنات فانزعج جدًا وأراد إسكات المحمول فمد يده المفترض أنها معاقة لجذب الجهاز من بنطلونه وهنا انكشفت حيلته فسحبت السيدة نقودها وأعادتها إلى محفظتها.. تركهم غاضبًا واعتدل جسده وأسرع تجاهي وقال لي بحدة: هو أنا مش قلتلك ما تكلمنيش وأنا في الشغل!..

هو ليس هادئًا على الدوام فعندما تفعل الكلة فعلتها معه.. يشاكس زملاؤه ويناوشهم وهم أيضًا يكونون في نفس حالته فيشتبكون في عركة كبيرة.. يخرج منها ووجهه به أكثر من جرح أو ملتهب جدًا لأن أحدهم رشه بالشاي المغلي أو ألقى عليه بزجاجة الكلة.. وأحيانًا يأتينا بآثار عضات على رقبته أو أذنه.. وهو لا يؤمن بالأطباء والعيادات الطبية، يذهب من فوره إلى أقرب صيدلية.. يمد يده ببعض النقود القليلة التي بحوزته وهو يشير إلى جروحه.. غالبًا ما يعطيه الصيدلي مرهمًا أو كريمًا لا يستخدمه إلا مرة أو مرتين ثم يلقيه والغريب أن جروحه كانت تشفى بلا أثر يذكر رغم القذارة التي يعيش وسطها.. أنجبت زوجته طفلة وتغيرت أهداف تسوله إلى طلب نقود لكي يشتري لبن أطفال أو حفاضات سمع عنها وأنا متأكد أنه لن يستعملها ولن يشتريها.. طبعًا لم يستخرج

للمولودة شهادة ميلاد وإن ظل يقسم لي بأنه سيستخرجها وسيعلم الطفلة ولن يدعها تشم الكلة بتاتًا.. وكعادة زوجاته أو رفيقاته في الاختفاء بلا أثر.. اختفت زوجته بطفلتها وهو لا يكف من سرد قصص كثيرة لاختفائها.. "خطفوها عيال من منطقة أخرى وباعوا البنت لإحدى المستشفيات أو الحكومة حبستها ودخلوا الطفلة الملجأ أو العصابات ضربوها بالرصاص وهي بتهرب منهم في هضبة الهرم".. كأنه يخشى أن يقول أنها ملته وملت عيشته المهببة...

بعد فرار الزوجة التقط كلبًا هزيلاً في شهوره الأولى.. وصار الكلب رفيقه الدائم الذي يتبعه في كل الأمكنة.. يسير خلفه أينما صار.. ويرقد بين قدميه عند جلوسه وإن استيقظ الكلب ولم يجده.. هام على وجهه في كل مكان بحثًا عنه.. والغريب أن الكلب تعرف على كل عاداته لدرجة أنه كان يترك صاحبه نائمًا في الصباح وينقب في سلة مهملات المقهى بحثًا عن الأكياس النايلون البيضاء التي اعتاد صاحبه وضع الكلة بها.. عندما يجدها الكلب يسحبها بفمه بسرعة ويعود إلى صديقه ليضع الكيس بجواره.. يستيقظ صديقه ويجد الكيس جاهزًا فيقلب علبة الكلة بعصاه ويضع قطرات في الكيس ثم يبدأ يومه..

من طرائفه الأخيرة معي أنه وجدني يومًا جالسًا حزينًا على المقهى بعد أن سمعت خبر وفاة المفكر الجميل د/محمد السيد سعيد.. دار حولي وتجنب أن يكلمني.. ثم عاد بعد قليل وسألني باهتمام: أنا عارف إنت زعلان ليه.

قلت له بلامبالاة: ليه يا فالح...

قال بسرعة: عشان مبتكتبش الأيام دي؟

نظرت إليه ولم أرد رغم إعجابي بتصوره أن حزني واكتئابي راجع إلى توقفي عن الكتابة، اقترب أكثر وقال لي ببرود: مدام إنت زعلان كده ما تيجي نعمل بجعة جديدة..

ضحكت بشدة مما أدهشه جدًا وأعجبتني فكرة أنه يظن أنه شاركني في كتابة الرواية السابقة ويريد مشاركتي في الرواية الجديدة.

حكاية غير ذات مغزى

في عام ١٨٨٢ عندما قامت سلطات الاحتلال الإنجليزي، بعمل أول إحصاء للسكان في الإسكندرية، كان عدد الإيطاليين المقيمين بها حوالى ١٨ ألفًا، وبلغ عددهم ستين ألفًا في بداية الحرب العالمية الثانية، وكانوا يعملون بمهن مختلفة منها الطب والهندسة المعمارية والمحاماة، وبرعوا بالذات في الطباعة وصناعة الموبيليا وتشكيل الرخام، وأنشأوا مدرسة "الدون بوسكو" الشهيرة التي ساهمت في الإعداد المهني للصناع المحليين، وكان منهم مبدعون وفنانون، ويكفي أن نذكر "جوزيبي أونجاريتي" أحد أهم شعراء القرن العشرين، وهو إيطالي من مواليد الإسكندرية، وقد توفي عام ١٩٧٠، كما أصدروا بعض الصحف باللغة الإيطالية، التي تبنت المطالب الوطنية المصرية بضرورة حصول مصر على استقلالها.

وعندما استتب أمر الفاشية في إيطاليا تبدل حال الإيطالين في مصر ودارت الأيام عليهم، خصوصًا بعد مجيء بعض المسئولين الإيطاليين من وطنهم إلى الإسكندرية، في محاولة لتجنيد شباب إيطاليا من المغتربين، وفي ذات التوقيت الذي أصدر فيه "الدوتشي موسوليني" عدة قوانين عنصرية معادية للسامية، وأراد تطبيقها على أفراد الجالية الإيطالية في مصر، والتي كان بعضها من اليهود، وقد حركت هذه القوانين الكراهية وجعلتها حجر عثرة أمام وحدة الجالية الإيطالية في الغربة.

وتخلصًا من هذا الموقف العصيب اضطر القنصل الإيطالي بالإسكندرية إلى إرسال كشوفٍ إلى إيطاليا، تتضمن أعدادًا كبيرة من المتطوعين، وذكر أنه يجرى تدريبهم بالإسكندرية، لكن أتت المصيبة بسرعة فائقة، فقد زار المارشال "بادوليو" – وكان قائدًا كبيرًا من قواد الجيش الإيطالي – الإسكندرية، لتفقد القوات المتطوعة في الجيش الإيطالي، وأسقط في يد القنصل الإيطالى بالإسكندرية، الذي يعلم أن هذه القوات مجرد أرقام على الورق وليس لها وجود حقيقي على أرض الواقع، واضطر إلى معالجة الموقف

بسرعة، ولأنه إيطالي أصوله تعود إلى الجنوب بالإضافة إلى أنه من مواليد "كوم الدكة" بالإسكندرية، فهو بحق وحقيق "ابن حنت" كما كان أولاد البلد السكندريون يطلقون عليه، المهم استعان القنصل الإيطالي بمجموعة من "الكومبارس" الأجانب الذين كانوا يعملون في السينما المصرية آنذاك، وغالبيتهم من الإيطاليين وبعضهم كان من الشباب اليهودي الذي يعاني من البطالة.

تم تدريب هؤلاء "الكومبارس" على أداء بعض الحركات العسكرية كالإمساك بالبنادق والتحرك بها مشيًا وقفزًا، وعلى الهتاف التقليدي "فيفا إيطاليا" وألبسوهم القمصان السوداء الخاصة بالفرق الفاشية، وإمعانًا في إحكام الصنعة أصدر القنصل الإيطالي جوازات سفر إيطالية لبعض الأجانب الذين كانوا ضمن هؤلاء الكومبارس، وتم تأجير ملعب رياضي كبير من أجل إقامة استعراض قتالي للقوات المتطوعة، وحضر هذا الاستعراض المارشال "بادوليو" والقنصل الإيطالي بالإسكندرية وكبار الجالية الإيطالية بمصر، وأدى الكومبارس التدريبات التي تعلموها بعجالة، وأجادوا أداءها بقدر الأجور المجزية التي حصلوا عليها، وانبهر المارشال "بادوليو" بقوة أدائهم وشدة عزيمتهم وصرامتهم العسكرية، فأثنى على حسن تدريبهم، ومكافأة لهم قرر ترحيلهم إلى الحبشة للعمل ضمن جيوش الفاشية هناك، وبعد عودة المارشال إلى إيطاليا، أدرك هؤلاء الكومبارس حجم المصيبة التي داهمتهم، لقد رغبوا في التخلص من البطالة فوقعوا بين براثن الحرب العالمية التي كانوا يظنون انها بعيدة عنهم، لذا رفضوا السفر إلى الحبشة وسلموا القنصل الإيطالي جوزات سفرهم، وهنا قامت قيامة المارشال "بادوليو" فور علمه برفضهم السفر وتخليهم عن القتال من أجل مصلحة إيطاليا، وأصدر قرارًا بسرعة القبض عليهم وترحيلهم قسرًا إلى الحبشة، ومن يصر على الرفض منهم يعدم رميًا بالرصاص.

اختفى هؤلاء الكومبارس بمجرد علمهم بالقرار، ذاب بعضهم في المجتمع السكندري بعد أن بدل هيئته وغير هويته، ومنهم من تسلل إلى بعض بلدان أفريقيا البعيدة عن الاحتلال الإيطالي خوفًا على حياته، وقضى القنصل الإيطالي بالإسكندرية عدة أشهر سوداء يبحث

عن بدلاء آخرين على استعداد للسفر إلى الحبشة، ثم حدثت لكل واحد منهم معجزته الشخصية، عندما انتصرت قوات الحلفاء بقيادة أمريكا وروسيا وإنجلترا على قوات المحور المكونة من قوات ألمانية وإيطالية ويابانية، وتم القبض على موسوليني قائد الفاشية وسحله وإعدامه، وكان أول قرارات الحكومة التي تولت إدارة إيطاليا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية هي تكريم القوات المتطوعة بالإسكندرية لموقفهم البطولي في أثناء الحرب عندما رفضوا الانصياع إلى أوامر "الدوتشي موسوليني" بدخول الحرب ضد الحلفاء، وتم تكريم هؤلاء الكومبارس ومنحهم أوسمة وقلادات.

(المصدر: كتاب قاموس عاشق لمصر، تأليف: روبير سوليه، ترجمة: عادل أسعد ميري).

أمان أمان عبد الحميد أفندي

"الأفكار مثل الطيور إذا حلقت في السماء من المستحيل الإمساك بها" هذه مقولة عظيمة لفيلسوف العرب الكبير "ابن رشد" الذي حرقت كتبه ومنع تداول مؤلفاته وواجه هو وتلاميذه اتهامات كثيرة منها الإلحاد والزندقة، وتعرضوا للسحل والتعذيب والقتل، ورغم ذلك ظلت أفكاره وتجلياته الفلسفية مؤثرة حتى الآن في العالمين.. المتمدين والنامي.

ولو عدنا إلى الوراء مائة سنة أو تكاد، في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي اعتلى عرش الإمبراطورية العثمانية في ٣١ أغسطس ١٨٦٧ حتى ٢٧ إبريل ١٩٠٩، كانت الدولة آنذاك في منتهى السوء والاضطراب، سواء في الأوضاع الداخلية أو الخارجية. وفي نفس سنة توليه دخلت الدولة العثمانية في أزمة مالية خانقة نتاج فترة سلفه السلطان عبد العزيز المبذر، مما دفعه للتورط في مذابح جماعية للأرمن وعلاقات مشبوهة مع اليهود، تحت دعاوى الاصلاح والحرية، ولخوفه من تمرد شعبه أصدر أغرب لائحة للمطبوعات في العالم، وهي لائحة المطبوعات الحكومية، وكانت اللائحة مكونة من تسعة بنود، نذكر منها الآتي : يحسن نشر كل ما يتعلق بتمام صحة مولانا السلطان، ويحسن نشر كل ما يؤكد تقدم حالة الصناعة والزراعة والتجارة، لا يجوز نشر المقالات الطويلة التي تنتهي بكلمة "البقية تأتي" أو "البقية غدًا" لاحتمال غلق الجريدة، لا يجوز التكلم على كبار الموظفين فإذا بلغ الجريدة أن أحدهم سرق أو اختلس فعليها أن تجتهد بستره، لا يجوز الكلام على المظاهرات والثورات، التي تحدث في الخارج، لأنه ليس من حسن السياسة أن يعلم رعايانا المخلصون بوقوع مثل هذه الحوادث.

ورغم ذلك لم تنقذه هذه اللائحة الجهنمية، فقد ثار عليه الشباب التركي ثورة كبرى، ونجحت جمعية "الاتحاد والترقي" ذات التوجه الإسلامي في عام ١٩٠٨ في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن عرشه تحت شعار (حرية . عدالة . مساواة)، وبعد خلع

عبد الحميد الثاني ووضعه تحت الإقامة الجبرية تولى بعده الأخ الأصغر له واسمه محمد رشاد الخامس، وقد بدأ عهده بمجموعة من الإصلاحات وبهامش من الحريات، وطور في عتاده الحربي وأنشأ القوات الجوية التركية، كما تعاون مع الألمان عسكريًا واشترى منهم قطعًا بحرية عديدة، ونظم جيشه على نسق يشبه النسق الألماني، غير أن . لسوء حظه . نشبت حرب البلقان التي هزمت فيها الدولة العثمانية على جبهتين، ثم ورطه الألمان في دخول الحرب العالمية الأولى للقتال بجوارهم، وحقق نجاحات محدودة في البداية، لكن الجيش العثماني نال هزيمة مروعة مع حليفه الألماني، في نهاية الحرب التي قلصت حدود الإمبراطورية العثمانية، وقد تُوفي السلطان محمد رشاد الخامس قبل استسلام دولته بقليل في ٣ يوليو ١٩١٨.

رأينا أن كل الإجراءات التي اتخذها السلطان عبد الحميد الثاني لحماية عرشه، هي التي أسرعت بتثوير الشعب ضده ولفظه من حياة تركيا السياسية، ولم ينتبه من تلاه إلى هذا المصير التعس، وبقيت لائحة المطبوعات الحكومية كما هي تحجب عن الشعب الحقائق وتغير وعيه بالأكاذيب، ثم حدثت الثورة الروسية التي انتهت باستيلاء الشيوعيين على الحكم بقيادة "لينين" عام ١٩١٧، في عهد السلطان محمد الخامس، هذه الثورة التي تعد من أهم ثورتين حدثتا في العصر الحديث (هي والثورة الفرنسية) وكانت مثار اهتمام العالم كله، لمعاركها الدامية وضحاياها الكثيرين، ولحجم روسيا المميز في العالم، وللأفكار المثيرة والخطيرة التي حملتها تلك الثورة وجعلت العالم ينقسم بسببها إلى قسمين أحدهما مع والآخر ضد، حدث كل ذلك والسلطنة العثمانية التي كانت في حرب مع جارتها روسيا في تلك الفترة، غائبة عن الوعي بفعل ذلك القمع، ولما كتب صحافي تركي تقريرًا مطولاً عن الثورة الروسية من صفحات خمس، وقدمه إلى رقيب الصحف المسمى بـ "المكوبجي" كما يقتضي القانون، أمسك الرقيب بالتقرير وكلما مر على كلمة ثورة شطبها، ثم انتقل إلى جملة "حقوق الأمة" وشطبها، بعدها عاد إلى كلمتي "دستور

وظلم" وشطبهما، ثم مر على تفاصيل الهجوم على القيصر والاستيلاء على قصره وشطبهم، ومحا في طريقه كل عبارات التمرد والقمع وكل الشعارات التي كانت مرفوعة في ظل الثورة، ثم أنهى مهمته وتنفس الصعداء وأمر بنشر التقرير الذي لم يتبق منه إلا سطر واحد نشرته الصحيفة التركية في اليوم التالي، وكان نص الخبر هو: "حدثت أمس خناقة في روسيا"!

حكاية للفقير حتى ينام

للشاعر والفيلسوف الألماني الشهير "فريدرك نيتشه" الذي يعد من أبرز من مهد لعلم النفس الحديث، حكايات ملهمة بداخل كتبه العديدة التي من أهمها "هكذا تكلم زرادشت" و"ما وراء الخير والشر" و"هو ذا الإنسان"، وبمناسبة ما تمر به بلادنا في الآونة الأخيرة، ومواكبة لأحدث القرارات الرئاسية الخاصة بتعيين عددًا كبيرًا من المستشارين لمعاونة الرئيس، سأذكر لكم حكاية قصيرة لنيتشه ورد ذكرها في أحد كتبه، وقد أعدت كتابتها دون إخلال بمضمونها.

في بلد ما وزمن ما.. كانت أحوال هذا البلد تتردى وتتداعى، وبلغ غالبية شعبها حد الكفاف، والملك معزول عن رعيته، وجحافل الأمن متأهبة لقمع كل انتفاضة، جلس أهم شاعرين في البلاد يتسامران ويتناقشان في أمور العباد، ويحاولان إيجاد حلول لبعض مشاكل الشعب، وطالت الجلسة دون الوصول إلى حل يعطي الرعية بعض حقوقها دون انتقاص من مقدرات الملك، وبعد جدال كبير قال أولهما ولنفترض أن اسمه "مختار": إن الحل هو التقرب إلى الملك والوصول إلى مكانة مميزة في بلاطه، ثم تعريفه بمشاكل وهموم الشعب، وعندها من المؤكد أن الملك الذي لا يظلم عنده أحد، سيرفع المعاناة عن كاهل الشعب، ويُحاسب ويُبعد المسئولين عن هذا الظلم، الذين عزلوه عن رعيته، ويعين بدلاً منهم مسئولين صالحين يرعون حق العباد ويُذكروه أولاً بأول بمشاكل الشعب، وبذلك تتحقق الرفاهية للجميع ويرفع الظلم عن كاهل هذا الشعب النبيل، اعترض الشاعر الآخر ولنفترض أن اسمه "مظلوم" على هذا الحل الرومانسي وقال إن العدل ليس هبة ولا منحة ننتظرها من الملك، يمنحها إذا راق مزاجه، ويحجبها إذا اعتلّ هذا المزاج، الحل في الالتحام مع الشعب وتبني قضاياه والوقوف معها، ومساعدته على الجهر بمشاكله والزئير بمطالبه حتى تصل إلى سمع الملك فيحقق المطالب ويرفع المظالم، وإلا فإنه لا

يستحق عرشه وفي هذه الحالة تلزم تنحيته وتعيين ملك صالح يخلفه، أصر كل منهما على رأيه وانصرفا في اتجاهين متدابرين.

تقرب الشاعر "مختار" من بطانة القصر ببعض قصائد المديح لأقربهم من الملك، ووصل إلى أسماع الملك بعض أبياتها فاعجب بها ودعاه إلى القصر، بذل مختار جهدًا كبيرًا في صياغة قصيدة مدح للملك، تفتنه وتأخذ بلبه، وتحقق له ما أراد، وكافأه الملك بضمه إلى حاشيته..

نزل الشاعر "مظلوم" إلى أسواق المدينة، ثم في محراب المساجد يقف بها ويخاطب الناس ويدعوهم إلى البحث في أسباب مشاكلهم لا في سبل الحل فقط، فالمتسبب فيها واحد، وكان الناس في أول الامر ينصتون إليه باهتمام، وتدب فيهم الحماسة، ثم ما تلبث أن تشغلهم متاعب الحياة عنه، فينفضّون من حوله.

أصبح للشاعر "مختار" منزلة كبيرة عند الملك، وقرر أن يصارحه بمشكلات الشعب، تململ الجالسون و"همهم" أكابر البلاط، نظر الملك تجاههم، ثم ابتسم وهو يطلب من مختار تأجيل حديثه عن المشكلات إلى ليلة أخرى، فالليلة ليلة طرب وغناء، وأمر بتجهيز وليمة حافلة بأطايب الطعام.

قرر الشاعر المظلوم التخلي عن ملابسه الفاخرة التي اعتقد أنها السبب في انفصاله عن الناس، وارتدى مثلهم بعض الأسمال، ثم عمل معهم في حمل الأخشاب، وفي أفران الخبز، واشترك معهم في الحصاد، وتقلصت وجباته الغذائية إلى وجبة واحدة قوامها الخبز وبعض الخضروات مثله مثل باقي الشعب، ووهن صوته وضعفت عضلاته فأصبح غير قادر على تثوير شعبه، ولا قادرًا على إقناعهم بقدرتهم على الوقوف ضد الظلم.

توالت الليالي الملكية وتوالت التأجيلات لسماع مشكلات الشعب، بعد أن توغل مختار في حياة أهل البلاط وصار منهم وصاروا منه، وسمن مختار واكتنز لحمه حتى كاد يعجز عن السير، ونحف الشاعر المظلوم وضمر جسده وخفت صوته حتى أصبح غير قادر على مجرد الحديث، وفي نهاية الأمر مات مختار من التخمة ومات مظلوم من الجوع وبقي الملك...

***العنوان مأخوذ بتصرف من المجموعة القصصية الرائعة للقاص الفذ الراحل "يحيى الطاهر عبدالله" (حكايات للأمير حتى ينام)

الســـر

لم أعش مراهقتي بداخل قصة حب كما كان يتفاخر رفاقي، فلم يكن أمامي غير الجارات المسنات وأخوات أصدقائي المحرمات علي "كما ينص العرف غير المكتوب".. وكانت المجلات المصورة الجريئة التي اعتدت مطالعتها في تلك الفترة، والروايات الرومانسية المترجمة تشعل خيالي وتلهب مخيلتي.. وأكاد أبيت كل ليلة مناشدًا "كيوبيد"إله الحب الذي تصوره تلك المجلات طفلاً صغيرًا مبتسمًا وتكاد تفيض منه الصحة والحيوية، مشرعًا نبلته بسهمها الرقيق تجاه العاشقين فتنزع القلوب في أجسادهم وتعلن كل اثنين منها حبيبين.. ناشدته كثيرًا أن يجيء وتعجلت سهامه في كثيرات كنت التقيهن في الطريق.. طالبات مدارس.. عاملات مصانع.. موظفات حديثات التخرج لكنهن يكبرنني بسنوات.. ونلت منهن كل ما يخطر أو لا يخطر على البال من سخريات وتقريع عدا الإيجاب والقبول.. فيبدو أن حداثة خبرتي بالمعاكسات وتعجلي الارتباط دفعني للإقدام بجرأة ودفعهن للفرار بعيدًا.. وعندما نضج سني أكثر واقترب من دخول الجامعة.. تورطت مرة تحت تأثير إلحاح أصدقائي بالذهاب معهم إلى الجانب الآخر من النهر، قبالة المبنى الضخم الذي يعج بطالبات تدريب معهد التمريض حيث أماكن بياتهن.. أشرت لهن كما فعل الأصدقاء بالضبط.. أياد كثيرة.. نحيلة وبدينة.. طويلة وقصيرة.. أشارت لنا من طوابق المبنى كله – أعلاه وأوسطه ومنتصفه – كان عدد أصدقائي أربعة وكنت خامسهم غير المعتاد على هذه الطقوس الحائرة بين الفعالات اللحظة والتوجس من نهايتها.. وكانت هناك مجموعات أخرى من الشباب تشير إليهن أيضًا ويتلقون مثلنا نفس الإشارات.. لكن مجموعتنا كانت هى الأجرأ.. وتقدمنا الصديق الخبير المحنك مقتربًا أكثر من المبنى.. متجهًا بنا نحو زاوية المبنى ومبتعدًا عن بوابة الأمن التي تتصدر الواجهة.. بانت ملامح الفتيات الواقفات في شرفة غرفة من غرف الطابق الأول.. وبعد الابتسمات والضحكات المكتومة القت علينا زعيمتهن بورقة مطوية بين فكي مشبك

غسيل خشبي.. بعد أن طالع أصدقائي الورقة باستهتار وحفظوا الموعد المدون بها غيبًا، ناولوها لي وتبسموا حينما وجدوني مهتمًا بتفاصيلها وحريصًا على الاحتفاظ بها..

كنا ونحن صغار، نضع في ليلة العيد ملابسنا الجديدة التي لا تتجاوز البنطلون والقميص أسفل الوسادة، حتى ننطلق بها عقب تكبيرات العيد.. وإن رضخ آباؤنا واشتروا لنا أحذية.. كنا نضعها بجوارنا في حال لم يكن لنا أشقاء يشاركوننا الفراش، أونضعها أسفل السرير في حالة ازدحام الفراش.. لأكثر من ثلاثة أيام كنت أقرأ الرسالة يوميًا في الصباح والمساء وقبيل النوم، ثم أضعها بعناية تامة أسفل الوسادة، تلك الرسالة الصغيرة المكتوبة بخط رديء والمحتوية على عدد لابأس به من التعليمات، منها طريقة التعرف عليهن باستخدام كلمة السر، والتأكيد على ألا يزيد عددنا عن خمسة لأنهن صديقات بنفس العدد..

في اليوم المتفق عليه كنت أسبقهم في الخروج من المدرسة، وفي انتظار بقية الصحبة، وكان قلبي يرجف رعبًا من ألاعيب أصدقائي ودلعهم المائع، فغالبًا سيدعي أحدهم انشغاله عن الموعد وسيتكاسل بعضهم، وفي نصف الطريق قد يتراجعون، وكنت حريصًا على إتمام الموعد والاستمتاع بأول صحبة للبنات على مستوى الواقع، وكنت متشككًا في حظي الذي خذلني كثيرًا حتى وجدت شلة الأصدقاء بكاملها بجواري، لعبنا مباراة الكرة التي اعتدنا على أدائها عقب الخروج من المدرسة، والتزمت حد الأدب خلال المباراة ولم ألعب بخشونة، أو أذود عن فريقي ببسالة تلقي بالمنافسين أرضًا كالمعتاد، لعبت بأداء باهت وخسرنا المباراة ولم أزعل أو أنفعل أو أتشاجر، واستقبلت دهشتهم من تصرفاتي بلامبالاة، فليس هذا لعبي ولا هذا أدائي، لكني كنت في تلك اللحظة أحرص على ألا يصيبهم ضرر حتى لا يفشل الموعد..

عبرنا الكوبري الذي يصل بين الشاطئين بصخب وهرولة، وعندما اقتربنا من المبنى المنشود أبطأنا سيرنا ورتبنا ملابسنا واتخذنا سمات العشاق الجادين، ووقفنا بجوار مولد

الكهرباء الضخم كما هو مذكور في التعليمات، وكلما اقتربت مجموعة من بنات المعهد كنا نهمس لهن: الحب جميل، فيشيعوننا بالسخريات اللاذعة والضحكات المبتذلة، حتى أتت الفتيات الخمس غندورات متأنقات، وما أن سمعن كلمة السر حتى ابتسمن ورددن بود: الحب جميل للي عايش فيه، تصافحنا وتكلمنا ورضا كل منا بقسمته سواء كانت سمراء أو شقراء، طويلة أو قصيرة، نحيلة أم بدينة، ولكي لا يضيق بعضنا على بعض، اصطحب كل واحد منا صاحبته التي تعرف عليها لتوه بعيدًا عن الآخرين، وافترقنا في شوارع متوازية، كان اسم صاحبتي سناء أو هكذا ادعت، وكانت وحيدة والديها، وجمالها لا بأس به وإن كان جسدها يميل قليلاً تجاه البدانة، وكنا بمنتصف الشارع الشاعري الذي يصطف على جوانبه الشجرتقريبًا والذي اخترناه سويًا، ولم نكن قد أكملنا خمسة جمل مفيدة، ولم تكن أصابعنا قد تلامست، حتى باغتنا من الخلف صوت مزعج لدراجة بخارية، تحركنا تجاه اليمين قليلاً مقتربين من الرصيف بسرعة، وتركنا له نهر الشارع كاملاً ولكنه كان يبدو مصرًا على إزعاجنا، كان صوت المحرك المزعج يكاد يلاصقنا، وعندما قفزنا فوق الرصيف كانت الدراجة قد سبقتنا ورأيتها بوضوح، كان قائدها شخصًا ضخم الجثة وكان صندوقها الجانبي يعتليه شخص آخر، كنت على وشك أن أسبهما بعدما رأيتهما مبتعدين، غير أن استدارة غبية للدراجة وصندوقها وضعتنا وجهًا لوجه أسكتتني، كانت البنت تمسك بذراعي وتضغط عليه بقوة، وكانت الدراجة تقترب أكثر، وكنت أفاضل بين مواجهتهما والشجار لأكسب البنت إلى صفي أو المهادنة، لكنهما لم يتركا لي فرصة، توقفا في مواجهتنا بالضبط وأظافر البنت تكاد تخترق لحم ذراعي، الشاب الذي كان جالسًا في صندوق الدراجة قفز منه شاهرًا سكينًا، وقائد الدراجة ظل ينظر تجاهنا باستخفاف، بدأ صوت البنت ينهنه بالبكاء وهي محتمية خلف ظهري، كان أصدقائي على مسافات بعيدة في شوارع أخرى، وهذا الشارع يبدو مهجورًا، استعرض الشاب سكينته على مقربة من صدري وأنا أتراجع ببطء، حسم قائد الدراجة الأمر بهدوء وهو يوجه كلامه لها: بطلي عياط واستعباط واركبي معانا، دموعها اخترقت ظهري ودفعتني للاعتراض بكلمات خائبة، ابتسم قائد الدراجة وأكمل: إنت تلميذ ماتضيعش مستقبلك،

والبنت دي إحنا نعرفها كويس وتلزمنا، اخلع. قبل أن أناقشه، التف الشاب الآخر بسرعة وجذبها من خلفي، لم تبد مقاومة كبيرة ربما خوفًا من سكينه، ولبدت في صندوق دراجتهما كخروف يساق إلى المذبح، نظرت تجاهي مرة واحدة بعيون دامعة أثناء انطلاق الدراجة.

لم أنم ليلتها إلا حينما ارتكنت إلى فكرة أنهما يعرفانها من قبل، وفي الصباح كنت أستمع بقلق إلى قصص أصدقائي مع الأخريات.. التي أصرت على الذهاب إلى السينما والتي صممت على تناول العشاء في مطعم فاخر والتي تمنت أن تلهو بمدينة الملاهي، ولم أقص ما حدث معي ولم يطالبني الأصدقاء بذلك.. والغريب أن بعض أصدقائي ظلوا على علاقة بهؤلاء الفتيات لفترة ولم يسألني أحد عن مصير فتاتي.. كأنها كانت شبحًا جسده خيالي، وإلى الآن في أحيان كثيرة أتصور أن هذا لم يحدث مطلقًا.

اللمبة الحمراء

قابلني رئيس مجلس الإدارة الملقب فيما بيننا بـ"الوحش الخرافي" بترحاب كبير، ثم طلب مني الجلوس وتبسم في وجهي، ضغط على زر الـ"ديكتافون" آمرًا مدير مكتبه بأن يحضر لي زجاجة بيبسي، لم يأخذ رأيي في المشروب الذي أفضله، ولم يهتم أصلاً بالنظر تجاه وجهي وهو يطلبه، كانت صفحات الجريدة مفتوحة أمامه، وكان يتأمل صورتي بين الفائزين، جاءت الزجاجة بسرعة فأشار بشربها، خمنت أن لا وقت لديه فتجرعتها على ثلاث جرعات، شكرته وهممت بالوقوف، إشارة ثانية من راحة يده كلها أجلستني مرة أخرى، أعاد مباركتي بفوزي بالجائزة، وقرأ اسم المسابقة التي فزت بها بصوت مسموع أربع مرات، كانت المسابقة باسم أميرة عربية شهيرة ويبدو أن هذا السبب هو الذي دعاه لطلب مقابلتي، إنت قابلت الأميرة شخصيًا؟ سألني، أجبته بنعم وأنا أكذب، فظروفها هذه المرة جعلتها لا تحضر حفل الجوائز، وأنابت مندوبًا من مؤسستها، والحفل كان يحضره وزير الثقافة المصري، وعدد كبير من المثقفين البارزين وصورهم وأسماؤهم تزين الخبر، لكن عينيه مرت عليهم كأنهم بقع حبر تلطخ وجه الصحيفة، يعني انت سلمت عليها بإيدك؟ سألني هذه المرة باهتمام شديد، أجبته – طبعًا واتكلمت معايا عن الرواية وكانت فاكرة أحداثها بالتفصيل، هذه الكذبة لم تلفت نظره لكنه اهتم جدًا بموضوع أني صافحتها يدًا بيد، ترك مقعده الوثير وجلس في المقعد المقابل لي وربت على فخذي وهو يقول بسعادة كبيرة: إنت شرفت شركتنا ورفعت راسنا.. دلوقتي الناس تقول إن احنا مش شركة مقاولات فيها مهندسين وعمال بس، عندنا كمان أدباء، ثم اتجه نحو خزانته الشخصية ووضع مبلغًا من المال في مظروف أبيض وأمرني بأخذه.

كان المبلغ الذي بالمظروف كبيرًا جدًا ويساوي راتبي بالشركة مدة نصف عام، وكان من المعروف عنه بخله الشديد لدرجة أننا عندما نفوز بمشروع كبير في مناقصة ما تكون مكافأته للعاملين لا تتجاوز نصف شهر، وكنت سعيدًا جدًا بأن رؤسائي و زملائي في

العمل عرفوا بأني أديب واعد، لكن للأسف هذه الفرحة لم تدم طويلاً، كلما تأخر مستخلص مقاول وشكاني للإدارة يرجعون السبب لأني أكتب قصصًا في المكتب ولا أهتم بشغلي، وإذا تعبت لأي سبب يتصورون أنني فضلت حضور ندوة أدبية أو متابعة نشاط ثقافي على الحضور إلى مقر الشركة ومتابعة أعمال المحاسبة، وفي نهاية الأمر عندما "غلب حماري" معهم وقدمت استقالتي وافقوا عليها بسهولة شديدة، ولم يسألوني عن السبب، ولم يمنحوني مكافاة نهاية الخدمة كسائر الزملاء الذين استقالوا من قبل، وعندما "توسط" بعض زملائي لدى رئيس مجلس الإدارة الذي كان يشد بحميمية على يدي التي سلمت على الأميرة، قال لهم إني قضيت سنوات العمل بالشركة أكتب قصصًا وحكايات، وإني يجب أن أحمد الله لأنهم لم يطالبوني بأجرة الغرفة التي كنت أعمل فيها، وبثمن كهرباء الإضاءة والمكيف التي كنت أستخدمها أثناء الكتابة، ثم أردف ساخرًا قولوله يروح لسمو الأميرة وهي تديله مكافأة نهاية الخدمة!

كانت هذه هي أول إشكالياتي مع شغل – لا أحبه وهو المحاسبة – يأكلني العيش، وشغل أحبه وهو الأدب، وأصرف عليه من كدي وعرقي ولا أحصل من نتاجه على شيء، والإشكالية الثانية كانت مع أهل من ارتبطت بها، عندما أبلغتهم –كما طلبت منها – بأني سأترك العمل بالمحاسبة، وسأعتمد على عائد كتبي وكتاباتي في الصحف، والدها الحاصل على الثانوية الأزهرية عكف على قراءة كل أعمالي في شهر كامل لكي يتأكد من أنني سأستطيع الصرف على ابنته من عائد إنتاجي الأدبي، ثم طلب مقابلتي، كان وجهه مكفهرًا ومعاملته جافة وخشنة على غير العادة، تصورت لوهلة أنه حكم على عملي الأدبي بأنه ضعيف، ولا يرقى إلى الكتب المنافسة، وبالتالي فإني سأصبح غير قادر على جمع المال منه ولا على الصرف على ابنته، فاجاني بأنه استشف من كتاباتي بأني رجل متهتك وقليل الأدب وجريء وغير أمين على ابنته، كما تبين له بأني على علاقات متعددة كما هو ظاهر ببجاحة في كتاباتي، ثم أصم أذنيه عن سماع كل تبريراتي، وناولني بقرف علبة القطيفة الحمراء التي بداخلها السلسلة الذهبية والسوار والخاتم وأنهى مشروع الزواج بحزم.

صرت في الشارع الآن، أجلس في ظل شجرة عتيقة بمقهى في وسط البلد، وبجواري صديقي المخرج المعين بالتليفزيون المصري، والذي امتنع بإرادته عن العمل به لكثرة الفاسدين والجهلاء الذين يملأون المبنى، كان يجلس في ظل الشجرة منتظرًا مراكب الخير التي في ظنه ستعبر الطريق الإسفلتي أمامه وتقذف عليه من خيراتها، وكلما جاءه زميل يناشده الرجوع إلى الشغل، كانَ يقول له بسمة صافية "الشغل بيجيب الفقر" وأعجبتني هذه العبارة جدًا ومن يومها صرت لا أعمل، صرت مثله "حر نفسي" أكتب فقط وأرسل ما أكتبه إلى جهات مختلفة ثم أجلس بجواره منتظرًا مراكب الخير..

Face Control

عقب انهيار الاتحاد السوفيتي في أغسطس عام ١٩٩١، ظهرت طبقة جديدة من المنتفعين اسمها "الروس الجدد" وكانت غالبية هذه الطبقة من الرأسماليين الجدد الرابحين من تطبيق آليات السوق الحر الخالي تقريبًا من القيود.. ومن المؤسف أن أغلب أفراد هذه الطبقة كانوا ذوي خلفيات إجرامية ومثيري مشاكل ومتعصبين... وتزامن ظهور هذه الطبقة مع تأسيس وإنشاء وافتتاح عدد كبير من الملاهي والمطاعم والأندية الخاصة شديدة الفخامة والرفاهية على النسق والطرز الغربية... ثم حدثت عدة مشكلات كبيرة في هذه الأماكن نظرًا لدخول أشخاص غير مرغوب فيهم مما أدى إلى تحطم بعض هذه الأماكن وإصابة زبائنها بأضرار بالغة.. لذلك تم استحداث تقليد جديد عرف بال Face Control بغرض عمل فلترة للتحكم في نوعية الزبائن المرغوب فيهم لدخول هذه الأماكن.. ويقضي هذا النظام بعدم السماح بدخول هذه الأماكن لبعض الزبائن لمجرد الاشتباه في أنهم غير قادرين على الدفع أو من مثيري المشاكل أو أن نوعية ملابسهم لا تناسب المكان أو لأنهم في حالة من السكر البين أو أن وجودهم سيتسبب في إزعاج أو توتر بعض رواد المكان، ثم توسع هذا النظام ليقضي بعدم دخول الأعراق الأخرى المعتقد أنها مثيرة للشغب وداعمة للإرهاب (مثل مواطني الشيشان وتتارستان وأرمينيا أو الأوكرانيين ومواطني بعض دول البلطيق مثل لاتفيا ولتوانيا وأستونيا أو العرب واليهود أو أي عرق آخر ليس على هوى أصحاب المكان)....

والمنوط به تنفيذ هذا التقليد وفرز الزبائن هو في العادة شخص ضخم، مفتول العضلات، ملامح وجهه قاسية وعيونه ميتة كعيني سمك القرش "أقرب ما يكون إلى هيئة البودي جارد التقليدية كما نراها في السينما الأمريكية".. من حق هذا الشخص رفض دخول الزبون دون إبداء الأسباب ويحق له أيضًا استخدام القوة في إبعاد الزبائن.. وقد ألزم القانون الروسي هذه المحلات والأماكن بوضع لافتة على باب المحل في مكان ظاهر تشير إلى

أنه من مستخدمي نظام الـ Face Control وفرض عليهم أيضًا ذكر ذلك في وسائلهم الإعلانية كافة سواء في الصحف والمجلات أو في الراديو وشاشات التليفزيون.. حتى تأخذها "من قصيرها" ولا تذهب إلى هذه الأماكن إن لم تشأ التعرض لهذه الاختبارات.

ونحن في منطقة الشرق الأوسط العربي، وفي مصر بالتحديد لا نتبع هذا النظام بشكل علني – حتى الآن على الأقل – لكن هناك بعض الأماكن –التى بدأت في التزايد بعد الثورة – يبدو أنها قررت تنفيذه بشكل مستتر.. فمنها من يمنع الدخول لمن هم دون الثامنة عشر أو تظهر عليهم حالة من السكر البين أو لمن يشتبه أنهم لن يدفعوا وسيلطجون، وبعضها يمنع دخولك بمفردك ويشترط أن تكون بصحبتك رفيقة إذا كان المكان به صالة للديسكو.. كل هذا في رأيي معقول ومقبول، لأن معظم هذه الأماكن فئوية وروادها ممن يطلق عليهم "النخبة".

غير أن هناك مقاهٍ وكافتريات ومطاعم شهيرة بوسط البلد.. بدأت في تنفيذ هذا النظام بدون علم به ولا بأصوله وبوقاحة واستفزاز، تدخل إلى أمثال هذه الكافتريات أو المطاعم مجهدًا ومتعبًا، تلتمس مقعدًا مريحًا، وما أن تجده وتهم بالقعود عليه، يهبط عليك الجرسون بابتسامته المصطنعة وبكفه المدود بتحدٍ يطلب منك القيام، معتذرًا بأن هذا وقت الغداء، ولا يحفل بك وأنت تنظر إلى ساعتك وتكتشف أن الساعة لم تبلغ الثانية عشر ظهرًا بعد، قطعًا أنت لن تدخل معه في مهاترات أو تهدده بشرطة السياحة فملاك هذه الكافتريات والمطاعم غالبًا من أصحاب النفوذ، وإذا استفزك أنه من أول لحظة اكتشف أنك من زبائن شرب القهوة والشاي ولست من زبائن الغداء والعشاء، فقد تخطو خطوة جرئية وتطلب الطعام، لكنه أيضًا لن يسمح لك بتناوله فقد انتهى الأمر واستغلسك، سيقول لك ببرود : إحنا آسفين يا أستاذ مطعم الكافتريا كله محجوز لفوج سياحي، وإنت مايرضيكش نخل باتفاقياتنا ونبوظ السياحة.

إذا كنت غير مهتم بالسياحة والاتفاقيات الثنائية بين هذه الكافتريا ودول العالم، وحاولت الاستنجاد بأصحاب المكان الذين يجلسون في مقدمة الكافتريا وتفرز عيونهم الزبائن في الدخول والخروج، ستجدهم منشغلين عنك بالأحاديث الجانبية أو بمشهدة التلفزيون ومتابعة المباريات، أو وجوههم مختفية داخل طيات ورق الصحف التي يطالعونها، ستغادر المكان وفي قلبك غصة وقد لا تعود إليه مرة أخرى، لكن هذه أفضل كثيرًا من أن يقابلك كبير السقاة بمجرد دخولك إلى مكان آخر، وبنفس الابتسامة اللزجة يسألك عن عدد مرافقيك، ولا يتغير وجهه عندما تجيبه بأنك بمفردك، ولا يتكدر عندما تخبره بأنك ستشرب فنجال القهوة وتغادر، سيعطيك ظهره ويقودك إلى منضدة خشبية في ركن قصي من المحل، منضدة عارية بلا مفارش ولا فوط، وعندما تطلب منه مشروبك ومنفضة للسجائر، سيأتيك من الداخل بمنفضة معدنية رخيصة وعندما يضعها على منضدتك، رنينها المعدنى سيجعل كل من بالمكان يلتفت ناحيتك، ستتجرع قهوتك التي ستزداد مرارتها كلما اخترق شعاع الشمس الستائر وهبط على منافض الكريستال وانعكس باتجاه وجهك، ومهما بخست أو أجزلت في الإكرامية ستصحبك ابتسامة الساقي عند القيام وحتى الباب وأنت تكاد تحس بيديه تدفعانك دفعًا نحو الخارج.

نفس هذا التمييز المقيت ستجده يمارس في الأحياء الفقيرة والغنية على حد سواء، سائق المكروباص يتجاهل اليد الممدودة المجهدة التي تناشده الوقوف، لأن التي تشير له سافرة، وسائق التوك توك اليافع الذي ينشد المؤانسة يتجاهل المحجبات، فهل نحن فعلا في حاجة إلى نظام Face Control يعلن بصراحة أننا من دعاة التمييز؟ واللي عاجبه نظامنا يا أهلاً به، أم أن الحرية الشخصية وصلت مداها وأصبح من حق أي شخص فعل أي شيء دون الاهتمام بالآخرين.

اتجهت الدولة بداية من عام ٢٠٠٥ في اتجاه تكنولوجيا المعلومات، وتبنت مشروعات مثل كمبيوتر لكل بيت، وسهلت الاقتناء عبر دفع الأقساط من خلال فاتورة التليفون، أو من خلال تسهيلات قدمتها وزارة التربية والتعليم، وذلك عقب الصراع الذي نشأ بين العسكر المتحفظ وبين مجموعة رجال الأعمال الذين وقفوا بقوة وراء هذا الاتجاه لرغبتهم في تمثيل المصالح الأجنبية، وامتلاك توكيلات الشركات متعددة الجنسيات، واللعب في سوق عالمية كبيرة جدًا لبيع خدمات الاتصال والأجهزة المتعلقة بها، وقد حسم الصراع في النهاية رجال الأعمال. ورغم أن مصالح هذه النخبة الاقتصادية سارت في تناقض تام مع رغبة قطاع من العسكرتاريا الحاكمة، مهووس تقليديًا بالأمن ويميل لممارسة المنع والقمع، فقد كان رأي الفريق الأول الذي تصاعد نجمه ووجوده مع مشروع التوريث هو الراجح. واقتنص الشباب بإبداعه في استخدام التكنولوجيات الجديدة مساحة حرية كبيرة لم تنتبه لها منظومة القمع الحكومية في البداية. فالإنترنت المتحرر نسبيًا منح الشباب مساحة حرية افتراضية عبر الشبكة لا توازيها المساحة الواقعية المتاحة للتعبير، ومن خلاله انطلقت المدونات ترافق مدًا سياسيًا كبيرًا شكّل فجر الديمقراطية الكاذب في ٢٠٠٥. وفي هذا الوقت كانت الحركات المطالبة بالتغيير تتنامى، مع ظهور حركة كفاية التي رفعت شعار" لا للتمديد لا للتوريث" كرد فعل نخبوي على خطة مبارك وعائلته وبطانته لتوريث الحكم لنجله جمال.

وقد برزت قوة هذه التكنولوجيات مع تطور الأحداث وتلاحقها عام ٢٠٠٨، فتصاعد الاحتجاجات العمالية خصوصًا في المحلة، ولّد فكرة الدعوة لإضراب عام في يوم ٦ إبريل، بثته مجموعة منهم على الفيس بوك، الذي بدأ المصريون في التعرف عليه قبل هذا بعام واحد فقط. ووجدت السلطة التي تعودت على مواجهة تظاهرات لا تتجاوز بضع مئات بحصارها بجنود أضعاف أعدادها، أن ما يقارب المائة ألف شاب يتواصلون بأسمائهم علانية من أجل عمل احتجاجي واسع يعم الدولة. كان خروج حركة شبابية باسم

هذا اليوم إعلانًا عن تجاوز أزمة كفاية وحركات التغيير النخبوية. ثم لقيت تحركات المجموعات الشبابية التي بدأت في التضاعف على ال"فيس بوك" هجومًا إعلاميًا منظمًا من الإعلام التقليدي، لكن هيهات، فقد كان انتشار الفيس بوك بين الشباب واعتبرت منصاته بمثابة بدايات لانطلاق الحركات الاحتجاجية، أضخم من قدرة السلطة على مواجهته.

ويعتبر فيديو هتك عرض السائق الشاب عماد الكبير، الذي انتشر على موقع اليوتيوب لتداول لقطات الفيديو، هو من دشن حركة المدونين لرفض التعذيب، ولم تنافسه في امتلاك وعي المصريين الرافض لمبارك ونظامه، سوى صورة الشاب السكندري خالد سعيد المتسربة من مشرحة الطب الشرعي بعد مقتله، والتي احتلت واجهة مجموعة الفيس بوك التي تسمت بـ "كلنا خالد سعيد". وكانت الشرطة هي الشيطان الواضح الذي قام في الحالتين بإهانة كرامة المصريين وتهديد وجودهم، وكان الضحية شابًا عاديًا غير مسيس في المرتين. وكانت هذه الصور ومثيلاتها التي نقلتها كاميرات المحمول وجرى بثها عبر الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي سببًا مباشرًا في تثوير العاديين، العاديين الذين رأوا أن الخلاص من نظام مبارك قد حان، وكان في طليعتهم شباب طالما وصفتهم أجهزة الدعاية والثقافة المدجنة لنظام مبارك بأنهم مغتربون، وتافهون. امتلكوا ناصية التكنولوجيا وجسارة الأمل وجرأة التفكير والقدرة علي الإنجاز، فعقدوا عزمهم على القيام بثورة، وسموها هكذا ودعوا لها في يوم محدد، في تحدٍ سافر ورفعوا شعار الشعب يريد إسقاط النظام، وباستخدام النضال السلمي، والحشد الجماهيري الواسع، نجحت حركة الشباب في تغيير مصر باستخدام المعلوماتية، وفشل النظام وزبانيته برغم امتلاكهم لنفس منتجات التكنولوجيا، وتخصيصهم لكوادر فنية قادرة على استخدام التكنولوجيا بجدارة في مجابهة الشباب، لكن يبدو أنهم استخفوا بهؤلاء الشباب وفضلوا أن يلعبوا الألعاب الإليكترونية عن مجابهتهم، وفشلت فكرة التحديث أو القرية الذكية التي سوقها رجال الأعمال للشعب بينما هم بعيدون تمامًا عن جوهر الفكرة ومتيقظون تمامًا لحلب الأموال من الشعب.

رأينا أن الشباب استخدم أحدث التقنيات في العالم لكي يبدأ في الدعوة للثورة، بينما رجال الحزب الوطني "القابعون في كهوف الماضي" تصدوا للثورة بالجمال والحمير والخيول!

في الموقعة التي سميت بمعركة الجمل حاول شباب الأخوان صدها بالمنجنيق، وقد رأيت أولى محاولاتهم لنصب المنجنيق في شارع قصر النيل بالقرب من سينما قصر النيل وخلال تجريبهم لأحد القذائف، انفلتت القذيفة النارية، لكنها لم ترتفع كثيرًا في الفضاء، وكادت تدخل إحدى الشقق وتحرقها، بينما كان قاطنوها يتابعون تركيب المنجنيق ومحاولات تشغيله بحماسة، مما دفعهم لجر المنجنيق إلى الأمام في مواجهة قريبة مع البلطجية القادمين من ميدان عبد المنعم رياض، وبعد عدة محاولات فاشلة تخلوا عن هذه الفكرة. وكان البلطجية في بعض الأماكن التي يسيطرون عليها أثناء الثورة، عندما يشتبهون في شخص على أنه من الثوار، كانوا يضربونه ويسرقونه ثم يجبرونه على الهتاف "يحيا حسني مبارك" بصوت عالٍ وفي مشهد يشابه مشاهد الكفار في الأفلام القديمة، وهم يعذبون المسلمين حتى يسبوا الرسول "صلعم" أو ينكروا نبوته.

وهذا يذكرنا بخطبة الرئيس السادات الشهيرة بعد حرب أكتوبر التي قال فيها أنه أعطى الإليكترون لشباب القوات المسلحة فدخلوا به أول حرب إليكترونية وحققوا به النصر، وفي العام الذي أطلق عليه "عام الرخاء" وعد الشعب المصري بأنه سيعطي كل واحد منهم في يده عام ٢٠٠٠ إليكترونًا يفعل به مايشاء، ويحيلنا إلى رئيس حالي كان يقلب شاشة الـ"آي باد" بعد أن يبل إصبعه مثل تاجر "المانيفاتورة" وهو يراجع حساباته.
في رأيكم من الذي سيربح المستقبل، شبابنا الجميل الذي يمتلك العلم

والتكنولوجيا أم الذين يعيشون بداخل عالم سريالي ويستلقون خارج الزمن؟



حينما أسمع كلمة ثقافة

تحرك الجالسون بصالة المغادرة بمجرد سماع رقم الرحلة، وتوقيت الإقلاع يبث من السماعات التي فوق رؤوسهم، انهمك بعضهم في إخراج جواز سفره والتذكرة من حقائب الظهر، والبعض الآخر بدأ يتخلص من قنينات المياه البلاستيك وبقايا المأكولات، وعند النداء الأخير قام غالبهم بهمة واصطفوا في صفين أمام بوابة الدخول التي يقف أمامها أمينا شرطة ينظران إلى المتجهين نحوهم بصرامة، الأكبر سنًا والأكثر بدانة والذين يعانون من متاعب مَرضية نهضوا بمساعدة آخرين، وفي غضون ثوانٍ صارت الصالة التي كانت تشغى بالناس خالية تقريبًا إلا من عاشقين أو زوجين حديثين كانا يتناجيان بمعزل عن الجميع، كان الطابوران المصطفان يتآكلان بمجرد أن يفحص أحد الأمناء الأوراق ويتأكد من تطابق صورة الجواز مع الشخص الواقف أمامه، انتبهت الفتاة لفراغ الصالة فخبطت على كتف رفيقها وقاما بتزامن منضبط، لكنها أوقفته لتناوله جواز سفره وتذكرته بعد أن أخرجتها من حقيبتها، وهو يهم بالاتجاه إلى مؤخرة الطابور، لمح شنطة بلاستيك داكنة سوداء ملقاة على أحد الكراسي، أعلن بصوت قوي أن هناك شنطة منسية، التفتت رؤوس من الطابور تجاه ما يشير إليه لكن دون اهتمام، تحركت فتاته نحو الشنطة وفتحتها ونظرت بداخلها، ثم أعادتها إلى مكانها وقالت له بصوت محايد عبر مسافة: كُتب... ثم لحقت به إلى الطابور، دخلت في اللحظة ذاتها سيدة تدفع طفلها على عجلته بسرعة تلحق الدخول وبجوارها زوجها وبيده وثائق السفر، اطمأنت عندما لمحت المسافرين مازالوا يدخلون، وهي تمر بجوار الكرسي الذي عليه الشنطة توقفت بعربة الطفل، وناولت مقودها لزوجها، واتجهت ناحية الكرسي، بينما دفع الرجل عربة الطفل إلى الأمام اعتراضًا على ما تفعله، فحصت السيدة الشنطة باهتمام، ثم نظرت تجاه زوجها الذي يرقبها وضمت شفتيها وهمست: كُتب، دون أن يبين صوتها، لم يفهم الزوج في أول الأمر، وضعت الحقيبة مكانها وظهرت حركة شفتيها أوضح هذه المرة: كُتب. ثم هرولت تجاه زوجها، وبدلت من وضعها هذه المرة وأخذت الوثائق وتركت زوجها يقود العربة تجاه باب

الخروج، خلت الصالة تمامًا ودخلت عاملة النظافة وهي تدفع مكنستها الكهربائية تلتقط الأوراق وأكياس"الشيبسى" و"المولتو" وتشفط الأتربة، مرت بجوار الكرسي ووجدت الشنطة، استدارت برأسها في كل الأرجاء، اطمأنت أن لا أحد يتابعها لكنها رغم ذلك حاذرت، وهيمنت بجسدها على الكرسي واحتضنت الشنطة بلهفة وبدأت في تفتيشها، استدارت بخيبة أمل والشنطة ماتزال بيدها وكادت تصطدم بالمكنسة، لعنت المسافرين بصوت منخفض وهي في طريقها إلى سلة المهملات في ركنها القصي، رمت بالشنطة داخل السلة ثم عادت إلى ما كانت تفعله...

هذا المشهد حقيقي رأيته – رؤية العين – في أثناء إحدى سفرياتي، وغضبت من هذا التعامل المذري مع الكتب.. من الذي اشتراها ولم يأبه لفقدها أو لعله تركها عامدًا.. ومن الذين تصوروا أن الشنطة بها ملابس أو برفانات وتسللوا للاستيلاء عليها ورجعوا خالي الوفاض.. ومن عاملة النظافة التي عاملتها كأنها نفايات... ثم هدأت واعتبرت أن هذه عينة عشوائية لسوء الحظ جاءت متوافقة في سلوكها ضد الكتب.. إلى أن أعادت إلى نفسي هذا الإحساس المقيت.. حادثة اقتحام رجال البلدية لأكشاك بيع الكتب التي كانت تزين شارع النبي دانيال وتعطيه واجهة حضارية.. ذلك الشارع الذي كان مقصدًا لمثقفي مصر عند زيارة الإسكندرية.. رمي الكتب ودهسها على الأرض بالرغم من تأكيد أصحاب الأكشاك بأنها أكشاك مرخصة.. بينما التعديات والإشغالات من بائعي الملابس والأكل ولعب الأطفال على بعد أمتار من شارع النبي دنيال نفسه ولم يتحرك أحد لإزالتها، والحيوانات النافقة تلقى في ميدان "محطة مصر" على مسافة قريبة من الشارع المعتدى عليه وتترك حتى تتحلل ولا يتحرك أحد، لكن لأن الثقافة ليست لها ظهر، يعتليها الجميع، بينما بعض المثقفين مشغولين بلقاء ولي الأمر، وبعضهم يسعى وراء مصالح شخصية، ومجموعة منهم قابعة في بروج عالية، والقليل منهم متمسك بثقافته كالقابض على الجمر.

حاذروا فسيأتينا أمثال جوبلز "وزير الدعاية النازي" بمقولته الشهيرة "عندما أسمع كلمة ثقافة أتحسس مسدسي"، وأمثال يوليوس قيصر عندما أحرق مكتبة الإسكندرية، وبمثل جحافل المغول عندما أحرقت مكتبات بغداد وألقت بالرماد في نهر دجلة، وقيل إنه بقي سبعة أيام أسود اللون، وبمن أشبه بالذين أحرقوا كتب ابن رشد وابن حزم وكفروهما.. أيها الكتّاب والمفكرون المتكالبون على لقاء الرؤساء والملوك بحجة إيصال صوتنا إليهم، نفاجأ عقب هذه اللقاءات بمطالبكم الشخصية وبكلامكم المرسل وببعض النفاق والمداهنة.. اعملوا خيرًا في هذه الأمة وتكاتفوا ودافعوا عن الثقافة التي جعلتكم تتبوأون مكانتكم هذه.. الثقافة التي يتجاهلونها ويعادونها ويهملونها.. ألم تلاحظوا أنه في كل لقاءات الرؤساء الذين تلتقونهم.. في كل الصحف السيارة ووكالات الإعلام التي تقتات من نتاج عقولكم.. لا يذكرون أحدًا منكم إلا قليلا، بينما الفنانون الذين برفقتكم – مع شديد الاحترام لهم – مهما كانوا كبارًا أو صغارًا في فنهم حتى لو كان من بينهم من مر أمام الكاميرا بالصدفة، تهلل له الصحافة وتستضيفه الفضائيات، إن ضعفكم وهوانكم على أنفسكم يضعف موقفنا، فاستقووا يرحمكم الله.



حلال عليك

تسير الآن في شوارع لم تعد تعرفها، وبين بنايات يخيم القبح على واجهاتها، وتعبرك وجوه مكفهرة، وتحتل أذنك صيحات وصرخات وكلاكسات تكاد تصل إلى أعلى مؤشر الضجيج والإزعاج، تتعثر في حجارة وكسر رخام وحفر تبتلعك كأفخاخ صيد الأرانب والثعالب، وتفر بوجهك يمينًا ويسارًا حتى لا يصطدم بك "تي شيرت" أو "تريننج" أو "كلسون" من الذي يلقيه عليك الباعة الجائلون حتى يلفتوا نظرك إليهم، كأنهم لم يزعجوك بما يكفي بالميكروفونات المحمولة التي تعلن عن بضائعهم، وبتمركزهم في نهر الطريق، وبنداءاتهم المستفزة من عينة "أنا حرامي شريف.. سرقت البضاعة دي من مول كبير.. وبابيعها بأرخص الأسعار للشعب".

تتفاداهم فتقابلك متاريس حديدية من الغنائم التي استولى عليها الشارع، موضوعة لتقطع الطريق على السيارات، تاركة فتحة صغيرة لعبور المشاة، تضيق وتتسع حسب رغبة المستولي على المكان، وهو في الأغلب "سايس متجول" قرر أن يضع هذا المكان تحت إمرته، ليتمكن من رص السيارات في صفوف أشبه بكرتونة البيض، وفي الجانب المقابل بائع للعصائر والسجائر وكروت الشحن، أعجبه المكان الذي اختاره في مواجهة أحد مداخل المترو، فأحاطه بقوائم حديدية كساها بالصاج، ومد إليه الكهرباء من أقرب عمود إنارة، ثم أقام له حفل افتتاح بمشاركة سماعات ضخمة بدأت بتلاوة القرآن الكريم وانتهت بأغاني شعبان عبد الرحيم.

هذا هو حال ميدان التحرير وبعض شوارع وسط البلد في الأيام التي تخلو من الفاعليات الثورية، يدير شئونها مجموعة من البلطجية والعاطلين، أعتقد أنهم تُركوا عن عمد من الدولة لإفساد وجه الثورة، فهم الذين يتحرشون ويتشابكون بكافة أنواع الأسلحة، ويؤذون الثوار ويترصدونهم، كما يمنعون المرور ويضايقون المارة ويزهقونهم حتى يلعنوا الثورة والثوار، أغلبهم مسجلون ومعروفين جيدًا لدى رجال الأمن لكنهم متروكون كالخلايا

النائمة لغرض في نفس مسئول! ولا أظن أن المشكلة هي مشكلة توفير أسواق بديلة لهؤلاء الباعة، فلن يرضوا بالانتقال أو الرحيل مهما كانت المغريات، فقد حصلوا على سوق رائجة لبيع البضائع المهربة وغير القانونية والخالية من الأمن، ودافع أصحاب المحال عن الأرصفة التي أمامهم بوضع بضائعهم بالخارج جنبًا إلى جنب هؤلاء الباعة، وتقلصت المساحة المخصصة للمشاة، أما منطقة وسط البلد التي كانت مصنفة عالميًا في المركز الأول في بدايات القرن الفائت قبل باريس، أصبحت الآن لا تقارن حتى بحارة "حلال عليك" كما رأيناها في مسرحية "سيدتي الجميلة" لشويكار وفؤاد المهندس.

باب الوداع

مرت بخير كل اللحظات الحرجة المتوقعة هذا الصباح، فقد دخل الحمام بمساعدة الممرضة دون اعتراض أو تذمر، ولم يحرن ولا دبدب بقدميه كالمعتاد، وظل صامتًا وساكنًا وهي تعطيه الحقنة وتلبسه ملابسه، وحين تصدّر المائدة ظل رأسه منكسًا وهي تضع على صدره "البافتة" وتوثقها حول رقبته، ولما تشككت في سلامة صحته، مدت أناملها لترفع ذقنه قليلاً، ثم نظرت مليًا إلى عينيه حتى تأكدت أن "بؤبؤهما" يتحركان فاطمأنت، وبدأت تدس ملعقته في الطعام وتدفسها في فمه.

كانت تعليمات الطبيب أن يسمح له بحرية التجوال داخل مسكنه لمدة ساعة عقب كل وجبة، وأن يترك على حريته في العبث بالأثاث والأجهزة غير الكهربية، وأن تبعد من طريقه الأواني الخزفية والزجاجية، حتى لا تتهشم فتخدش أمانه وتثير أعصابه، وطيلة الساعة التي قررها الطبيب لم تسمع جلبة من الحدود التي يتحرك فيها، وعندما فتحت عليه باب إحدى الغرف وجدته واقفًا يتأمل صورة جماعية للأسرة بدهشة، ربتت ظهره بحنو فالتفت إليها ورماها بنظرات زائغة، سألته: تحب تلبس أنهو بدلة النهارده؟ ازدادت حيرته وبدا غير فاهم، دخل الطبيب في تلك اللحظة جاذبًا ساعدها بعنف وهو يوبخها بصوت هامس أيضًا: عشرين مرة أقولك مش دي نوعية الأسئلة اللي توجه لمريض الزهيمر. ثم استدار مواجهًا مريضه، راسمًا بسمة عريضة على وجهه ومحافظًا على مسافة بينهما، وقال موجهًا كلامه للممرضة بقصد تعليمها: أولاً تحافظي على مسافة بينك وبين المريض، ومتعليش صوتك قدامه، وإوعي تلمسيه خالص، وصيغة السؤال تبقى كده، ثم سأل مريضه بصوت خفيض: تحب سيادتك تلبس البدلة الكحلي، أومأ المريض برأسه، اتسعت ابتسامة الطبيب أمام الممرضة، وخرج منتشيًا، بينما الممرضة تكاد تبتسم ساخرة.

للشركة مدخل للموظفين ورؤساء الأقسام والعمال، ومدخل آخر للعضو المنتدب ورؤساء مجلس الإدارة وعلية القوم، المدخلان مزينان بعناقيد الضوء وبيارق الشركة ولافتات

ترحب بضيوف "اليوبيل" الذهبي للشركة، وحين وقفت السيارة الفخمة أمام المدخل الخاص المسقوف بالرخام والجرانيت،هرع السائق لفتح باب السيارة للعضو المنتدب وطبيبه، ونهر مدير الأمن موظف الأمن الذي كاد ينحني بتزلف للعضو المنتدب الذي كان ينظر إليه بقلق، وأغلق مدير الأمن باب المصعد على العضو وطبيبه، ثم زفر بضيق منتظرًا عودة المصعد.

الحفل بدأ بالتلاوة الكريمة، وبعدها تم بث فيلم تسجيلي عن إنجازات الشركة خلال الـ ٥٠ عامًا الماضية، ثم خطب المدير العام خطبة مؤثرة عن التكافل الاجتماعي بين العاملين، ولما طالت خطبته توتر الطبيب الذي كان يتمنى أن ينتهي الحفل بسرعة، قبل أن ينفد مفعول حقن التهدأة التي حقن بها مريضه، فالعدد الكبير الموجود بالقاعة من المحتمل أن يوتر مريضه فيحدث ما لا يحمد عقباه، الأمور حتى هذه اللحظة تحت السيطرة، والاحتفالية جميلة والقاعة غارقة في الأضواء ومزدانة بالبالونات الضخمة المطبوع عليها إنجازات الشركة، والطبيب عمل حساب كل شيء، فقد كان مريضه أثناء نوبات مرضه العصبية يحن إلى طفولته، ويطارد البالونات حتى تنفجر بين يديه كالأطفال، لذا أمر الطبيب بملء البالونات بغاز كلوريد الهيدروجين المعروف بروائحه التي تشبه رائحة البيض الفاسد، ولما تفجرت البالونة في يد مريضه وهاجمته رائحتها الفظيعة، أصبح بعدها لا يقرب البالونات، أيضًا أوصى مسئول الضيافة بتخفيض الإضاءة عن الطاولة التي يجلس عليها العضو المنتدب، حتى لا يلحظ أحد الموجدين شحوبه ومرضه، الوضع آمن حتى الآن، وها هي كلمة العضو المنتدب التي سجلوها له في مدى أشهر طويلة تبث عبر الشاشات ويصفق لها الجميع، ولم يبق إلا قائمة المنح والامتيازات التي سيعلنها نائب العضو المنتدب وسترضي الجميع ويمر هذا الحفل بخير.

طفلة صغيرة بيدها وردة جميلة تقدمت مع أمها الموظفة البسيطة تجاه الطاولة الرئيسية، نظر مدير الأمن تجاه الطبيب الذي طمأنه بإيماءة، العضو المنتدب انتبه للطفلة التي تقترب، وقف مبتسمًا محاولاً تذكرها، عندما اقتربت أكثر، تذكر أنها الطفلة صديقته التي

سرق من أجلها لأول مرة تفاحة من محل الفاكهة، انحنى ليأخذ الوردة وهو يناديها باسم الطفلة التي في ذاكرته، لم تفهم طفلة الورد لماذا يناديها هذا الرجل باسم غير اسمها، جاملته بابتسامة فنزل بجسمه إليها، ربت خدها وتحسس شعرها، جفلت منه الطفلة وابتعدت قليلاً، أعاد النداء عليها بحنو فتبسمت، قال لها المقولة التي كان يقولها في الماضي لصديقته: ياللا نلعب عريس وعروسة، خافت طفلة الوردة من نظرات عينيه وإشارات يده الضخمة، وارتعبت من تلك العبارة بالذات التي كانت أمها تحذرها دائمًا من قائليها، جرت، نهض العضو المنتدب حانقًا ينادي عليها بصوت جهير ويعيد طلب لعب هذه اللعبة معها، وعندما قام أغلب الحاضرين لاستطلاع الأمر، أهاجه ذلك جدًا وفقد سكونه وجاءته النوبة شديدة، وظل يزعق ويصرخ ويضرب بقوة كل من يقترب منه.

تم السيطرة على ما حدث بصعوبة، ونجح الطبيب في إخراج مريضه من المشهد، وبنبرة هادئة اعتذر نائب المدير العام عما حدث وطالب الجميع بالدعاء والصلاة من أجل صحة العضو المنتدب، واستقرت الطفلة في حضن أمها مذعورة، ثم توالت المكافآت والامتيازات التي يعلن عنها نائب العضو المنتدب، وظل التصفيق يتصاعد والصفير يعلو، بينما الوردة ملقاة أسفل إحدى الطاولات والطفلة ترقبها من بعيد، حتى تراخت يد الأم من التصفيق، ووجدت الطفلة نفسها حرة فنزلت بحذر وتحركت باتجاه وردتها، تشممتها قليلاً وعادت بها تجاه مكان الأم، وعندما وجدتهم مازلوا في مشاغلهم، غيرت خطواتها نحو باب القاعة، أسفل حلق الباب بالضبط وقفت وترددت قليلاً، ثم رمت بنظرة تجاه الرؤوس الصلعاء والشعر الأشيب والعصي الخشبية وتجاعيد النسوة والأيدي ذات العروق البارزة التي تصفق بشدة، حسمت الطفلة أمرها وخرجت من القاعة.

تأملات

– إن كنت تخشى القدر وتهاب مفاجآته الأليمة، إليك هذه الحكاية الواقعية القصيرة، التي حدثت بإحدى الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن الماضي، كان "ألفريد روجر" شابًا متهورًا وأرعن، يعيش حياته بالطول والعرض، وكانت له صديقة وحبيبة تدعى سوزان متيمة به وتدور في فلكه أينما سار أو حلق، ورغم أنها كانت معشوقة شباب الولاية من فرط حسنها وبديع تكوينها غير أن صديقها ألفريد كان متبطرًا على نعمة حبها ويلعب بذيله من خلف ظهرها، وكانت المشاكل بينهما تشتعل وتخبو، وكل من في الولاية يعلم أن ألفريد لسوزان وسوزان لألفريد.. وكان لألفريد صديقًا ثريًا ومتحققًا في عمله بعكس ألفريد الذي طرد من وظائف كثيرة لنزقه ومجونه وإهماله في أداء وجباته، وكما يحدث في أفلام السينما بالضبط، كانت سوزان تشكو رعونة ألفريد وعدم تحمله المسئوليات إلى صديقه هنري، وكان هنري صدرًا حنونًا يستمع بلا تأفف ويلتمس الأعذار لصديقه ألفريد، وتمادى ألفريد في إهماله لسوزان، وفي عدم الوفاء بوعوده، وضاقت المسافات بين سوزان وهنري حتى أحبها جدًا وصارحها بحبه، وكيدًا في ألفريد طلبت سوزان من هنري أن يستأذن أولاً صديقه الحميم ألفريد، وإن وافق ستتزوجه، وعندًا في سوزان رحب ألفريد بزواج صديقه الحميم هنري من صديقته الحميمة سوزان.. انتهز هنري الأكثر ثراءً واستعدادًا الموقف وخطب سوزان بسرعة، وأقام حفلاً عظيمًا بهذه المناسبة حضره ألفريد بصحبة جميلة أخرى ظل يضاحكها ويراقصها حتى انتهى الحفل.. ظن أغلب الحضور أن الأمر تم بسلام، لكن قبيل حفل الزفاف، بينما هنري يقلم أرض حديقة منزله، كما اعتاد كل ربيع، زاره ألفريد وطلب منه بحدة أن يوقف مشروع زفافه بسوزان لأنه أحبها قبله، وعندما رفض هنري، تهور عليه ألفريد واشتبك معه باليد، رفع هنري فأسه مدافعًا عن نفسه، وأخرج ألفريد مسدسه وأطلق منه رصاصة على هنري، تفادى هنري الرصاصة التي اخترقت الشجرة التي خلفه بأعجوبة، ثم تكاتف الخدم والحشم على ألفريد ونجحوا في الإمساك به، وكاد الأمر يصل إلى القضاء لولا توسط أصدقاء مشتركين لدى هنري ليعفو عن ألفرد

في مقابل أن يغادر الولاية ولا يعود إليها مطلقًا وقد كان، غادر الفرد مسقط رأسه متنقلاً بين الولايات المختلفة، وغاب تمامًا عن الأنظار، وتزوج هنري من سوزان وأنجبا "صبيانًا وبنات" ثم أحفاد.. وبعد ثلاثين عامًا من هذه الواقعة، في أول الربيع كان هنري يقلم حديقته ويشذب فروع أشجاره، ثم قرر قطع شجرة كانت أغصانها المتشابكة تتدلى وتعرقل مرور سيارته، أمسك هنري بفأسه وبعزم يده التي ما تزال فتية ضرب جذع الشجرة، ارتطم حد الفأس بجذع الشجرة بقوة، محدثًا صوتًا معدنيًا رهيبًا، ثم وقع هنري أرضًا ينزف من صدره، لسوء حظه ارتطم حد الفأس بالرصاصة الرابضة في جذع الشجرة والتى أُطلقت عليه ولم تصبه من ثلاثين عامًا، انطلقت الرصاصة في قلب هنري فمات من فوره، الرصاصة التي كانت مصوبة إليه من مسافة لا تزيد عن ثلاثة أمتار، وكان مقدرًا لها أن تقتله منذ ثلاثين عامًا ظلت كامنة في موضعها حتى صرعته في الموعد المحدد لموته.

– أما أن كنت تشكو من الجيل الجديد العابث اللاهي، وتبالغ في شدتك مع أولادك اللاهين طيلة اليوم مع شبكات الإنترنت، وبتفكيرك التقليدي تظن أنهم في طريقهم نحو مستقبل مظلم، فخذ هذه المعلومة علها تبدد بعض مخاوفك، الشاب "مارك زوكربيرج" من مواليد ١٩٨٤، أسس موقع "الفيس بوك" الشهير وهو طالب في جامعة هارفارد لم يبلغ عامه العشرين، وكانت فكرته الأساسية هي تطوير منظومة التواصل الإلكتروني في جامعة هارفارد، وكان أول بث لموقع الفيس بوك من حجرته بنزل الطلاب بالجامعة عام ٢٠٠٤.. وللعلم القيمة التسوقية للفيس بوك بلغت هذا العام ١٥ مليار دولار، وحصيلة الضرائب التي دفعها الموقع للخزينة الأمريكية بلغت ٥ مليارات دولار، ويقال إن موقع الفيس بوك خلق مائة من المليونيرات الآخرين بخلاف "مارك زوكربيرج" الذي حوله في خلال ثلاث سنوات من طالب يكاد يكون معدمًا الى مليونيرًا..

– وإن كنت تعيب على سفه بعض الأفراد الذين ينفقون بلا حساب ويشترون مستلزمات وبضائع لا تفيدهم، فالدول الكبرى أيضًا في أحيان كثيرة تفعل مثلهم، وإليك هذه المعلومة.. في أثناء الحرب الباردة وفي ظل السباق الكبير تجاه التسليح على كوكب

الأرض وخارجه بين أمريكا والاتحاد السوفيتي.. أنفقت وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" مبلغ ١٥٠ مليون دولار على دراسات من أجل ابتكار قلم سائل لا يتأثر بالجاذبية في الفضاء، لأن رواد الفضاء لاحظوا أثناء رحلاتهم خارج الكوكب أن الحبر "سواءً كان سائلاً أم جافًا" يرتفع لانعدام الجاذبية ولا يمكّن الرواد من الكتابة، وفعلاً نجح العلماء الأمريكان في ابتكار هذا القلم بهذه التكلفة الرهيبة، بينما حل الروس هذه المعضلة بفكرة بسيطة وهي تزويد رواد الفضاء بأقلام رصاص رخيصة الثمن وبدون أبحاث ولا دراسات!

– وإن كنت حائرًا مثلي في الاختيار بين أمرين كلاهما مر، ردد خلفي هذا الحديث القدسي العظيم "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف".

تعالوا نلعب ثورة

فى أعراف ومفاهيم أولاد البلد سبل طريفة عن كيفية مواجهة ظلم وجبروت أي بلطجي يغالي في إظهار فتوته في الحي، والحل في نظرهم أنْ تسلّط عليه امرأة داعرة "شرموطة من الآخر" وإذا ضايقتهم داعرة بفحشها وسلاطة لسانها يسلّطون عليها الأولاد الصغار "العيال" الذين يطاردونها ويسخرون منها وكلما حاولت الإمساك بواحد منهم تلاشى من بين أصابعها كالهواء حتى يجننونها تمامًا، وأعتقد أن هذا ينطبق في أحوال كثيرة على ما جرى ويجري بمصر في الفترة الأخيرة، ففي ثورة ٢٥ يناير رأيت أولاد شوارع وأولاد من أتباع الأولتراس لا يتجاوز عمرهم الـ ١٨ سنة يهاجمون ويقاتلون بشجاعة وتهور لم أرها حتى في أعنف أفلام الحركة الأمريكية، وقد استشهد منهم عددًا كبيرًا غير معروف رقمه بالتحديد، دون أن ينالوا لقب شهيد أو يحصل أهلهم على تعويضات أو امتيازات . خاصة من أولاد الشوارع . وفي الأحداث التي تلت "تنحي مبارك" مثل أحداث محمد محمود والعباسية ومجلس الوزراء واقتحام السفارة الإسرائيلية بالجيزة، انضم جيل جديد أحدث عمرًا إلى هؤلاء، منهم من كان يسير وسط شلته وبرفقة حبيبته وأعمارهم دون السادسة عشر، يتجهون نحو شارع محمد محمود كأنهم في رحلة إلى الملاهي، وكان شارع محمد محمود في تلك اللحظات كفوهة بركان يقذف بالحمم والجحيم والغازات والدخان وطلقات الرصاص المطاطي والحي، رأيت الغلام يودع حبيبته بمدخل الشارع ويكتب اسمها ورقم تليفونها المحمول على ذراعه، حتى إذا أصيب أو استشهد تكون حبيبته أول من تتلقى الخبر، ثم يدخل الشارع ويخرج منه في الغالب على محفة الإسعاف أو على ظهر "موتوسيكل" ينقل الجرحى والشهداء، ورأيت من بينهم من يلف يده بالشال الذي كان منذ لحظات حول رقبته، ويترقب قنابل الغاز ليلتقطها بيده، ثم يعيد ارسالها إلى من أطلقها، هذه الفدائية والبسالة التي لقطت بعض القنوات الفضائية مشاهد مبهرة لها، شجعت كثيرًا من الأطفال والأحداث الجدد على خوض المعارك التالية، كانوا يلتحفون بالحطة الفلسطينية أو بالعلم المصري ويغطون الوجوه بقطع من الصوف أو الكتان

ويعتلون الأسوار والمتاريس التي أقامتها الشرطة، أو قطع الحجارة الضخمة التي سدت بها الشرطة بعض الشوارع، كانوا يهتفون ويلقون بالحجارة والرصاص المطاطي ينهمر عليهم، وهم غير خائفين ولا منزعجين، وفي حوش المدارس الإعدادية والثانوية كانوا يتجمعون ثم يقررون الذهاب إلى التحرير – فى أتون معاركه – للمشاركة، وكانت كلمة السر التي يتداولونها "تيجي نلعب ثورة".

يا حكماء مصر.. يا من بلغتم من العمر عتيًا.. نأسف لإبلاغكم بأنكم ملكمش لازمة.. مصر التي غالبية سكانها من الأطفال "أكثر من ٦٠٪ من السكان دون السادسة عشر" تبلغكم بأن الثورة مستمرة.

العقاب المعلق

تم استدعائي بعجالة لأصطحب مدير الشئون القانونية للشركة في مهمة عمل رسمية، وفي السيارة لم تسنح لى الفرصة لسؤاله عن طبيعة المهمة، نظرًا لتجهمه وتكدره اللذين أدركت منهما، أن مالك الشركة وجه له توبيخًا شديدًا وأمره بالنزول فورًا لأن الحادث جلل، وبصفتي مسئولاً ماليًا وإداريًا لتلك الشركة، ولي خبرة بتلك المهام التي تجمعني بالمسئول القانوني، فقد خمنت أن ثمة سرقة ما في موقع من مواقع الشركة للحديد والأسمنت، أو لإحدى المعدات المتحركة، والمسئول القانوني سيحدد العقاب أو سيحيل المتهمين إلى النيابة، وأنا سأتولى تقدير القيمة المالية للمسروقات، غير أن السائق هذه المرة سلك دروبًا مختلفة عن الطرق التي بها مواقعنا، وعند حافة العمران توقف أمام عزبة متوسطة الحجم – عرفت فيما بعد أنها ملك لصاحب الشركة – وعندما انتحيت بالمسئول القانوني وهمست له بأن هذه العزبة ليست ضمن أصول الشركة ولا يحق لي تقدير مسروقات ليست لدي فواتير شرائها، عندها ضحك القانوني بسخرية وقال لي: ادخل وستعرف على الأعجب.

كان هناك ثلاثة من رجال أمن الشركة استقبلونا بترحاب وأدخلونا إلى غرفة غفير العزبة، حيث وجدناه مقيدًا من يديه بحبال ليفية تركت أثرًا على ساعديه، ووجهه متورمًا من الضرب ودموعه تختلط بدمائه، أمر المسئول القانوني بحل وثاقه ثم أجلسه وبدأ معه التحقيق.. وكان يحرس العزبة مع الغفير وأسرته كلبان بوليسيان شرسان، والعقد الذي وقعه الغفير عند تعيينه ينص على أنه يعمل بالشركة في صب الخراسانة، لذا هو يتبعنا إداريًا، والمشكلة هي أن المدرب الذي يشرف على الكلبين ويأتي إلى العزبة مرتين في الأسبوع، كان قد أوصى بأن يأكل كل كلب نصف كيلو لحم يوميًا ويشرب نفس الكمية من اللبن، وكان الغفير يأخذ من الشركة ثمن اللبن واللحوم ويتولى بنفسه إطعامهما، وفي الأيام التي يأتي فيها المدرب يطعمهما لحومًا بلدية فاخرة، وفي الأيام الأخرى يشتري لهما لحومًا من

الجمعية ويختلس فارق السعر، ستة شهور يفعل ذلك والأمر مستور، ويبدو أنه ضايق البستاني في أمر ما، فقدم ضده شكوى وتم ترصده وكشفه، كان الغفير يبكي ويقول إنه يأكل من نفس اللحوم المشتراة من الجمعية، بينما أمامنا تقرير من طبيب بيطري يؤكد أن تلك اللحوم سببت ارتباكًا في معدة الكلاب وقللت من قدرتها على المقاومة وأضعفتهما، كان التحقيق طويلاً ومملاً، وقد اعتذرت عن حساب فارق المبلغ الذي اختلسه الغفير بدعوى أنني لا أتعامل إلا في الخامات الخاصة بشركات المقاولات، وكان صوت زوجة الغفير النائحة وطفليه الصغيرين يقتحم جلستنا، وهو ينهنه ويقسم بالله إنه لم يختلس أية مبالغ وإنه فقط كان يأكل اللحوم البلدية الخاصة بالكلبين، ويقدم إلى الكلبين لحوم الجمعية، وبمجرد العودة كتب مدير الشئون القانونية تقريرًا رأف فيه بحال الغفير واقترح بقاءه مع الاستعانة بموظف غير مؤهل يتولى مهمة إطعام الكلاب. صدر من مالك الشركة صوت قبيح وهو يقرأ هذا الاقتراح، ثم أمر المسئول القانوني بطرد الغفير بعد إجباره على التوقيع على إيصال أمانة، حتى لا يعود على الشركة مطالبًا بأي تعويض.

في الحقيقة.. مسألة طرد الغفير أثارت زوبعة من الاستياء بين العاملين في الشركة، لكن لم يجرؤ أحد على معاودة الحديث مع مالك الشركة بشأن هذا الغفير، مما جعلهم يكتفون بالدعاء عليه، ذلك الدعاء الذي بدا وكأنه يتحقق بعد أربعة شهور عندما قاد ابن صاحب الشركة – وكان قد تخرج حديثًا في كلية الهندسة وعين مديرًا عامًا على الفور – سيارته ذات الدفع الرباعي وبصحبته خطيبته وزميل وزميلة له تجاه الصحراء الشرقية في رحلة صيد للطيور والغزلان، ثم حان موعد عودتهم ولم يعودوا، انقلبت الشركة إلى خلية نحل، كل موظف ومهندس بها يدّعي أن له قريبًا في مركز مهم سيرسل بفرقة عسكرية للبحث عنهم في متاهات الصحراء، وتحول لون وجه صاحب الشركة إلى لون الكركم، وبدأ يخرج من فمه الأصوات بصعوبة، كان ضمن تجهيزات السيارة جهاز لاسلكي، لكن يبدو أنه تعطل أو نفدت شحنته، ولم يكن وقتها قد تم اختراع الموبايلات فيتم تحديد مواقعهم بدقة، وفي اليوم التالي زادت الأمور توترًا عندما لم يتم العثور عليهم حتى بعد

تأجير طائرة "هليكوبتر" قامت بالبحث عنهم وفشلت في رصد مواقعهم، غير أن والد خطيبته "الثري" ويبدو أنه كان أكثر أهمية من مالك شركتنا كان قد كلف قولاً كاملاً من السيارات بقلب رمال الصحراء على حصاها حتى وجدوهم في حالة إعياء تام وأقرب إلى الموت من الحياة، وتبين فيما بعد أنهم حاولوا اختصار الطريق فدخلوا إلى طريق جانبي غير معتادين عليه، وكلما حاولوا الرجوع إلى الطريق الذي يعرفونه تاهوا أكثر، ثم ثقب أحد الإطارات وكان الإطار "الإستبن" غير ممتلئ بالهواء، وكذلك شاحن اللاسلكي لم يكن في تمام شحنه.

لأيام أربعة بعدها كانت الشركة كلها سعيدة بالولائم والمنح العينية التي توزَّعُ فرحًا بنجاة ولي العهد ونسى العاملون دعواتهم على المالك، الذي أنهى احتفالاتهم بطريقة دراماتيكية كعادته، فقد أصدر أمرًا بالتحقيق مع رئيس الحركة المختص بوضع ومتابعة خط سير سيارات الشركة والمسئول عن صيانتها ومتانتها، وطالب بمعاقبته بشدة وعدم الاكتفاء بطرده لأنه بإهماله كاد يتسبب في فقدانه ابنه، وظل رئيس الحركة يبكي وهو يقول إن سيارة الدفع الرباعي لم تكن في "جراجات" الشركة بل في "فيلا" مالك الشركة، وإنه غير مسئول عن تأمينها فكيف يؤمن شيئًا ليس في حوزته، وكانت الأوراق تقول إن سيارة الدفع الرباعي ملك للشركة وأن المسئول عنها هو رئيس الحركة.. لذا تم طرده بعد أن وقع على إيصال أمانة غير مذكور فيه قيمة مالية.. واستاء الموظفون والعمال وظلوا لفترة طويلة جدًا ينتظرون أن يعاقب مالك الشركة بعقاب سماوي أو أرضي.

تركت الشركة بعد هذه الحادثة بسبع سنوات، ومالكها يكبر ويتوغل ويجور ويظلم والجميع ينتظرون عقابه ولا يملون.



الخطر القادم

الشاعر الفرنسي الكبير "فرانسوا كوبيه" وصف باعة الورود من الفتيات الصغيرات والصبية الفقراء، الذين يقفون في عز الشتاء والبرد أسفل الثلج المتساقط، وهم يرتدون الأثمال والملابس المرقعة بـ " الأطفال الذين يموتون في الشتاء وهم يبيعون لك الربيع "، ومصر في الحقبة الأخيرة التي بدأت بشائرها قبيل انتهاء مرحلة "مبارك" الرئيس المخلوع، امتلأت شوارعها وفاضت بأمثال هؤلاء الأطفال، الذي أطلق البعض عليهم بالخطأ "أولاد الشوارع" وفي يقيني ليس كلهم من أولاد الشوارع، لأن أولاد الشوارع لا يتسولون ولا يتراذلون على البشر ولا يبيعون المناديل أو البخور أو اللب والسوداني، بعض الموجودين حاليًا وتراهم بكثافة في منطقة وسط البلد والأحياء الراقية، هم التطور الطبيعي لجامعي أعقاب السجائر الذين كان يطلق عليهم في الستينيات والسبعينيات "جامعوا السبارس" وكنت تراهم وبيدهم عصا من جريد النخل في نهايتها مسمار حاد، إذا لمح " السبارسجي" عقب السيجارة دب سن المسمار فيه والتقط العقب بمهارة ثم يلقيه بداخل "مخلة" من القماش، أيامها كانت السجائر عزيزة وغالية ويتم شراؤها بالفرط أو بنصف العلبة وكان أغلبها من النوع المحلي، وجزء كبير من الريفيين وأبناء الوجه القبلي والفقراء كانوا يدخنون السجائر "اللف" لأنها كانت رخيصة الثمن، وكان هؤلاء الصبية من جامعي الأعقاب يعزلون الدخان النظيف المتبقي داخل العقب عن الدخان الذي احترق، ويبيعون هذا الدخان بالكيلوجرام في محطة "باب الحديد" – رمسيس حاليًا – للقادمين من المحافظات المختلفة، وقد انقرضت هذه المهنة تمامًا في عصرنا الحالي، وبالرغم من أن معظم المدرسين في مدارسنا الابتدائية والاعدادية إذا ما أتعبناهم وزهقناهم ولم نجب إجابات صحيحة وفاحت ريحة فشلنا، كانوا يتنبأون لنا بأن نصير من جامعي أعقاب السجائر، وبالرغم من أن كثيرًا منا فشل في التعليم نهائيًا، إلا أن هذه المهنة تلاشت ولم تعد تظهر إلا في بعض أفلام الأبيض والأسود.

باعة المناديل والتسالي الآن معظمهم من المتسولين وبعضهم من اللصوص، وقد تم القبض على بعضهم على المقهى وهم يسرقون، يقترب أحدهم من الطاولة التي يضع أصحابها موبايلاتهم عليها باطمئنان، ويضع منديلاً فوق أحد الموبيلات ثم يدور دورته ويعود ليأخذ المنديل والموبايل، كما أن غالبية هؤلاء الصبية والفتيات صغيرات السن ليسوا بمفردهم في وسط البلد، أمهاتهم قابعات في أماكن مختلفة بالقرب منهم، وهم يسرحون ويعودون إليها بالإيراد، وإذا احتك بهم أي شخص، ظهرت الأم فجأة وهي تطلق على المعتدى سيلاً من البذاءات، يعرفون أكثر من طريقة للاحتيال، في موسم الامتحانات يجلس بعضهم "يشترط أن يكون صغير السن ونظيفًا" بالقرب من أبواب المولات الكبرى أو البنوك، منحنيًا على كراس يكتب فيه وأمامه كتاب مدرسي ينقل منه، لا يرفع رأسه عن الكراس رغم أن بصره يختلس النظر إلى الأحذية المارة عليه، تنهال عليه الهبات المالية وهو في شغله الشاغل، و"تخيل" هذه الحركة على كثيرين بينما لو دققت قليلاً في الكتاب الموضوع أمامه ستجد صفحاته مقلوبة وما يكتبه مجرد حروف مائلة وغير مفسرة.

أولاد الشوارع شيء مختلف تمامًا عن هؤلاء، هم في حالة من الشرود الدائم، يسيرون مترنحين وفي أفواههم أكياس " الكلة" غير عابئين بأحد، لايتسولون وعندما يحتاجون نقودًا لشراء المزاج، يستوقفونك ويطلبون منك المبلغ المحدد الذي قرروه، إذا أهملتهم أو صرفتهم برفق لن يتعرضوا لك، لكن إياك وسبهم أو النظر إليهم بقرف وتعالٍ، لأن ذلك يستفزهم جدًا ويجعل رد فعلهم مخيفًا، هم ينامون على الأرصفة وفي بدرومات المنازل المهدمة، أذكر منهم "وردة" التي لم تكن قد بلغت السادسة عشر من العمر وكانت حاملاً من واحد منهم لم تستطع تمييزه، وكان عدد أولاد الشوارع المهتمين بها أربعة أولاد، يتروح سنهم بين الخامسة عشر والعشرين، عندما كبر الحمل ببطنها نفرت منهم واختارت ركنًا خلف إحدى السيارات المركونة بجانب الرصيف منذ شهور، رأف بحالها بعض الأهالي وأدخلوها إحدى دور التربية المتخصصة في رعاية أولاد الشوارع، أصبحت وردة تقضي اليوم في دار الإصلاح تستحم وتأكل، وعند منتصف الليل تقفز من السور وتعود

إلى فرشتها الفقيرة على الرصيف، كانت حريصة على العودة في اليوم التالي لأنها كانت ترجع يوميًا بوجبات لزملائها، تكرر هروبها فطردوها وعندما سألتها عن سبب هروبها من الغرفة النظيفة والسرير المرتب والدفء والعودة إلى النوم على الأرض دون أغطية، أجابتني بأن الجدران تخنقها والنوم على الأرض يمنع عنها الكوابيس وأنها تحب الحرية ولا تطيق أن ينهرها أي شخص، وضعت وردة طفلها بنفسها وكانت تحرسه بنفس أداء القطة حين تذود عن أطفالها، وعندما كبر الطفل قليلاً كان يحمله بالتوالي أحد الأولاد المهتمين بها، ويأتي إلينا على المقهى يطلب جنيهًا لكي يشتري علبة لبن لابنه، كل يوم كنا نرى الطفل بين ذراعين مختلفين، ونفس العبارة على الفم "علبة لبن لابني" كان كل واحد منهم يؤمن بأن هذا الطفل ابنه، ويلاعبونه كلهم ويتصرفون معه تصرف الآباء، وحين قال لي أحدهم بأنه يدخر لكي يدخله المدرسة، وكان أحدهم قبله قد قال لي نفس الكلام، قلت للصبي ذلك فضحك وقال "ما هو ابننا كلنا".

هذا جانب من حياة أولاد الشوارع الذين مات منهم الكثير في أحداث الثورة المصرية دون أن يذكرهم أحد، فعددهم زي الليمون كما يقول العامة، ولا سقف لهم يمنعهم من فعل أي شيء جنوني، لذا حاذروا فلو ثاروا سيقضون على الأخضر واليابس.

الأمانة

حضوره كان له بهجة تدفعنا للخروج من بيوتنا والسير خلفه، وصوته الغالب عليه لكنته الأجنبية وهو ينادي بالفرنسية "les chancon du ville" أي "أغاني المدينة" كان يدفع النوافذ لأن تنفتح والشبابيك لأن تنفرج والسكان لأن تطل، حينها كان يتوقف ويفك الحزام الذي يربط "البيانولا" بظهره، ويفرد أرجلها وهو يضعها على الأرض بتأنٍ، ثم يعزف بعض الموسيقى العالمية التي لا نستطيع تقييمها أو تمييزها، لكننا كنا نصفق بحماسة بتزامن منضبط مع المشاهدين في الطوابق العليا، لم يكن ينظر إلينا أو يأبه لنا، فقط كان يخلع برنيطته فيظهر وجهه المدور الأحمر بصلعته الخفيفة وينحني لهم في الاتجاهات المختلفة، وكلما ناداه أحدهم كان يتقدم بالبرنيطة المقلوبة يلتقط بها العملات المعدنية ثم عندما تعود الشرفات والنوافذ إلى وضع الإغلاق.. يغادر، كان يحيرني وأنا صغير.. هذا الخواجة البائس الذي يتقدم في السن ويتسول في وطن غريب عنه ولا يعود إلى بلاده.

انتهت هذه المهنة تقريبًا أو هذا النوع من الاسترزاق، ولم نعد نشاهدها إلا في بعض الأفلام التي تتناول الماضي، وانتهت أيضًا وسائل كثيرة للتسلية كالساحر والحاوي ولم يتبق إلا الذين يملئون أفواههم بالجاز وينفثونه نارًا تلوث الجو وتزيد حرارة الصيف لهيبًا، وفي منتصف رمضان الفائت انتهت حياة آخر أراجوز بمصر، كما كان يحب أن يطلق على نفسه، مات عم محمد بعد أن تجاوز عمره الثمانين عامًا بقليل،كنا نراه يسير بتؤدة وظهره محدب من تأثير حمله لعدة شغله طوال تلك الفترة الكبيرة من عمره، عدته كانت عبارة عن قوائم خشبية مثبت عليها قماش سميك يطبقها على شكل مستطيل، ويسرح بها وهي على ظهره تكاد تشكل مع عظامه نسيجًا متكاملاً، هدفه الأول.. المقاهي ذات الكثافة العددية الكبيرة، لا يجلس على كرسي بل يشرب شايه على الوصيف حتى لا يدفع ثمنه مضاعفًا، ثم ينصب عدته على هيئة كشك صغير من القماش، بعد أن يضع صفارته

في سقف حلقه ويدخل في قلب الكشك ويبدأ عرضه، ويتوالى ظهور التماثيل الخشبية الصغيرة – التي أبدع نحتها – والتي تمثل فئات المجتمع الذي سينتصر عليها بطل عرضه الوحيد "الأراجوز" الذكي المحنك،المشهور بصوته المميز التي أجادت الصفارة توليفه، أنظار رواد المقهى ستختلف حوله، كبار السن ومعتادي عروضه لن ينظروا تجاهه، الشباب سيتابعونه باهتمام، الأجانب سيهتمون بتصويره ويتجاذبون الحديث معه بعد انتهاء عرضه، بعض الأطفال سيدفعهم الفضول إلى مشاكسته والدخول إليه من خلال القماش المهلهل ويضايقونه، سيوقف عرضه ويطردهم ثم يعود بعد أن يسترضيه بعض الجمهور.. كانت حكاياته القصيرة التي يقوم ببطولتها الأراجوز مليئة بالسخرية والعنصرية.. فالأراجوز الخبيث الذكي سيسخر من أبناء الريف والصعايدة والنوبيين ويستغل طيبتهم وسذاجتهم ويسرق منهم عصيهم ثم يضربهم بها، أو يشاغل بنت العمدة أوشقيقة الريفي في غفلة من أهلها، أو قد يلقي نكاتًا صعبة عنهم، شاغبته مرة ولمته على هذه العروض العنصرية، فتحجج بأنه تعلم المهنة هكذا، وأن هذه العروض تعجب الناس هكذا!! ثم ليثبت لي وطنيته أخبرني بأنه في فترة الاحتلال الإنجليزي صنع تمثالاً خشبيًا لعسكري إنجليزي وجعل الأراجوز يضربه يوميًا، وإذا ما تصادف ومر من أمام معسكر إنجليزي كان يخدعهم ويجعل الأراجوز يعطي التحية للعسكري الإنجليزي، بعد ثورة ٢٥ يناير اعتمد عم محمد في عروضه على الأغاني الوطنية القديمة لعبد الحليم وأم كلثوم وشادية وصار يؤديها بصوت الأراجوز مشاركة منه في الثورة.. لكنه في الفترة الأخيرة قبل أشهر قليلة من شهر رمضان ظهر عليه العجز فجأة، وصار يكرر مقولة أنه آخر أراجوز في مصر كثيرًا، وكان يطلب من أصدقائنا المخرجين لو تصادف وجودهم على المقهى أن يستضيفوه في البرامج التليفزيونية وأن يعملوا عنه أفلامًا تسجيلية، وأدهشتني جدًا رغبته في التوثيق لمهنته، وحين استفسرت منه عن سبب هذا الإلحاح في الظهور الإعلامي، أجابني بصوت هامس: قول لهم أنا مش عاوز فلوس.. أنا زمان لما كنت باسمع إن أراجوز تاني جه منطقة من المناطق اللي تبعي.. كان بيركبني العصبي و مبستريحش إلا لما أطرده.. لكن دلوقتي

أنا رجل جوه ورجل بره.. وببص حواليا ملاقتش فيه أراجوز تاني.. مش عايز المهنة دي تختفي.. وعايز الناس تفتكرها وتفتكرني..

سألته: هو مافيش يا عم محمد حد من ولادك حب المهنة دي وعايز يكمل زيك؟ شرد قليلاً وقال بأسى: ابني مات من خمس سنين وولاده بيتعلموا في المدارس.

قلت محاولاً التخفيف عنه: مفيش مهنة بتنقرض يا عم محمد.. أكيد حد حيحبها بعد فترة، مد يده إلى جيب الصديري الذي يرتديه فوق القميص وأخرج علبة من القطيفة التي توضع فيها الخواتم ودبل الزفاف، كانت القطيفة ممزقة من جوانب العلبة، والشعار المكتوب عليها باللون الذهبي أزيل معظمه، فتحها وأخرج منها الصفارة التي تساعده في إخراج صوت الأراجوز وقال لي : أنا مش حزين إلا على الأمانة دي.. إحنا بنسميها في صنعتنا الأمانة.. أبويا كان بتاع أراجوز برضه.. وادهالي لما كان عمري ١٨ سنة، تناولتها منه ولمستها كان تأثير الزمن واضحًا عليها بشدة، لكن ملمسها كان ناعمًا ودافئًا، أكمل: أبويا وصاني أسلمها لحد بيحب المهنة.. دلوقتي حاموت ومش لاقي حد أسلمها له.. وخايف أقول للجيران تندفن معايا يضحكوا عليا.. ولا يدوها لعيل يهينها ويرميها ولا يسرقها الحانوتي..

عجزت عن الرد وربت كتفه وانصرفت تشغلني فكرة الأمانة التي يصر عم محمد على تسليمها قبل الرحيل، وإحساسه بأن عمله الطويل هذا بلا جدوى إن لم يسلمها إلى من يخلفه ويحسن العمل بها..

مات آخر مبدع.. أراجوز في مصر في رمضان الفضيل، وسمعت بوفاته مصادفة من عامل المقهى الذي تصور أني أهذي عندما سألته عن مصير الأمانة..

ملعب النخبة

ملعب مدينتنا المغطى بالنجيل الصناعي وتغمره الأضواء الكشافة ليلاً، انصرف عنه الجمهور منذ فترة، رغم المدرجات المبنية على أحدث القياسات العالمية ودورات المياه النظيفة والبراقة، فاللاعبون الذين حظوا على رواتب مجزية وتمتعوا بالشهرة والأضواء وبغرف تبديل الملابس الرحبة اللامعة، ترهلت أجسادهم وفقدوا مهاراتهم، أما الملعب السري المهجور الذي على أطراف المدينة، فقد ارتفعت جدرانه لتحجب لاعبيه عن الأنظار، وعلت أصوات جماهيرهم المشجعة، وارتفع الغبار الذي تثيره أقدام لاعبيهم حينما يلعبون على الأرض الترابية، واختفت الشائعات الساخرة التي كانت تتناول ملابسهم ولعبهم وأحذيتهم، وحلت محلها شائعات تضفي أسطورية على أدائهم (أقل لاعب عندهم يحرز ٥ أهداف في المباراة.. يستطيعون اللعب ست ساعات متواصلة.. لو تعادل فريقهم يطرد المدرب فورًا).. وعندما حدث الزلزال الكبير وفر أغلب لاعبي فريق المدينة، حل محلهم معظم لاعبي الملعب السري، وفي تلك اللحظة انكشفوا على الجمهور العام واضطروا إلى اللعب طبقًا لقواعد اللعب الدولي، وتركوا خلفهم عشوائيتهم وعنتريتهم والتزموا بالقانون العام، فزالت عنهم أسطوريتهم وبدوا كاللاعبين العاديين، مثلهم مثل اللاعبين السابقين، على رأي المثل "الطينة من نفس العجينة".

وما يحدث الآن في الساحة السياسية يكاد يكون طبق الأصل من هذه الحكاية.. بعد ثورة يناير الأخوة السلفيون الذين كانوا يحرمون الانتخابات، ويعتبرون الديموقراطية رجسًا من عمل الشيطان، لم يقاطعوا الانتخابات وانتهزوا الفرصة ودخلوها وربحوا في دوائر كثيرة، وعادوا وأفتوا بأن الديموقراطية المصرية حلال! (كأن الديموقراطية جورب صوفي من السهل جعله حلالاً أو حرامًا تبعًا للظروف).. أما فصيل الأخوان المسلمين فقد لعبوا هذه المرة بمهارة وهم يضعون قدمًا في التحرير وقدمًا في اللجان الانتخابية، نددوا ببعض الممارسات لكن في النهاية أشادوا بالعملية الانتخابية، وحدهم أخواننا الليبراليون

والديمقراطيون والمفكرون والأحرار هم الذين قلبوها مناحة كبرى.. وأسهبوا في إطلاق مخاوف كبرى بأن الإسلاميين سيكون لهم الأغلبية في البرلمان وسيرجعون بنا إلى الخلف مئات السنين، أولاً هم السبب الرئيسي في هذه المصيبة كما يصفونها، فهم الذين تركوا الساحة أمامهم.. فمنهم من قاطع الانتخابات ومنهم من جرى خلف غنائم رخيصة، وبعضهم ارتكن على الأقباط الذين ما تزال غالبيتهم تتعامل بسلبية مع ما يحدث بمصر من حراك سياسي، ومنهم من راهن على الصوفيين الذين خذلوا منظّر الحزب الوطني السابق أحمد عز الذي كان يتباهى بعددهم أثناء الأزمات السياسية مع النخب، حتى الصوفيين خذلوكم أيضًا بعدما ارتضيتم أن تحاربوا التشدد بالخرافة! عيب كبير أن تختلف النخبة مع نفسها وأن لا تتحد في مواجهة القوى الظلامية، وأن تحتكر الديمقراطية لنفسها، كما أن النخب الحقيقية الوحيدة التي خرجنا بها من الميدان هي نخب الشباب الذين قاوموا وصمدوا وضحوا بحياتهم وانتصروا في النهاية، ولابد أن نقف معهم حتى يختاروا مستقبلهم بأيديهم، أيتها النخبة.. محتكرة الأضواء ومتسيدة الفضائيات.. من فضلك اهجري المخاوف واتركيها تنكشف أمام الجمهور العام.. دعيهم يتقدمون بطلبات لفصل النساء عن الرجال فى العمل، وبمنع التدخين فى الأماكن العامة، وبضرورة إنشاء البنوك الإسلامية، اتركيهم يتعاملون مع الملفات الشائكة كالاتفاقيات الدولية التي يجب احترامها، وحقوق المرأة التي نالتها بعد جهد وكفاح ويجب المحافظة عليها، دعينا نرى هل هم قادرون على فرض ما يتشدقون به من أقوال، مثل ضرورة إلزام السائحين بارتداء ما يتناسب مع ذوق المجتمع الشرقي، من فضلكم إن طالبوا ببقاء المرأة فى البيت والاستغناء عن العمل ، اتركوهم يواجهون أكثر من ثلاثة مليون عاملة، نصفهم على الأقل مطلقات وأرامل يعيلون أطفالهن، دعوهم يلقون بتنظيراتهم المرعبة عن السياحة غير المرغوب فيها، ليصبحوا وجهًا لوجه أمام ٥ مليون عامل ومستفيد من هذا القطاع الذي يشكل ربع عائدنا القومي، دعونا نرى كيف سيتعاملون مع ملف الأقباط شركائنا فى الوطن، دعونا نتعرف على أفكارهم وحلولهم لمشاكلنا الكبرى كالبنية التحتية والبطالة والتنمية والاستقرار، لقد أهملتهم النظم السياسية السابقة كثيرًا، وبات من حقهم أن

يشاركونا في بناء الوطن، فهذه هي الطريقة المثلى لنجعلهم يتخلون عن تطرفهم أو أحلامهم المثالية، صدقوني لن يستطيعوا أن يفعلوا بنا ما فعلوه بالسودان، عندما حكمت الجبهة القومية تحت شعار الإسلام هو الحل، وأنشأوا في بداية حكمهم الهيئة العامة للتضرع إلى الله، وهي هيئة لكشف الغمة عن الأمة مهمتها الدعاء والتبتل إلى الله عند الحاجة إلى سقوط المطر أو إنهاء الأوبئة أو طلب الرخاء الاقتصادي مما انتهى بالسودان الواحد إلى سودانين، الشباب الذي ساهم في نجاح الثورة باستخدامه التكنولوجيا والتقنيات الحديثة، قادر على مواجهتم وردعهم وتهذيب أدائهم، والعمل أسفل النور سيختلف تمامًا عن العمل السري، فلا قلق.. وأنتِ أيتها النخبة المقدسة.. دعي كل مخاوفك خلفك واتحدي فهذا ما يجب عليك القيام به الآن.....

لا يكذب الزعيم

تكدست الساحة بالناس، وكان الأمراء في مقدمة الصفوف يحوطهم الحرس والأتباع، وبجوار القدر العملاق كان ساحر المدينة واقفًا يتلو تعاويذه وأوراده على المياه المقدسة التي تغلي في صخب، بينما المحفة الضخمة المزدانة بالخرق الملونة تسير الهوينى وهى تخترق الصفوف التي تركع بمجرد مرورها، فقط يد الملك العجوز كانت ترتفع بوهن لتحية الجماهير، وبين الفينة والفينة كان رأسه يظهر فيعلو الهتاف والتصفيق، الرأس واليد الملكيان كانا يرتفعان بفعل فاعل مجهول، يجلس محجوبًا عن الناس، فالملك في رحلته الأخيرة نحو الأبد، متجهًا إلى حتفه في اليوم ذاته الذي يتمم الثلاثين عامًا من توليه الحكم، أخيرًا وصلت المحفة إلى منتهاها عند حافة القدر، أنزلها الخدم بوقار وتلقى الساحر يد الملك فقبلها، ثم احتضنه ولمس بشفتيه كتفيه، وهو يعطي الإشارة لمعاونيه، الذين هرعوا ولثموا يد الملك بخشوع ثم أحاطوه بغلالة لا تشف جسده، وخلعوا ملابسه وبالوقار ذاته ألقوه بداخل القدر، الذي يتصاعد بخاره وسط تهليل أفراد شعبه كله، ووسط الصوت الخافت للزعيم الذي يسلق دارت الأنخاب والكئوس حتى استوى وطاب لحم الزعيم، وبسكين مقدسة تلا عليها الساحر تعاويذه في المعبد المقدس، سكين لن يستخدم إلا مرة واحدة، تم تشفية جسد الملك وتمزيقه إلى قطع صغيرة، الأجزاء المهمة والملهمة من جسد الزعيم فيما يعلو الوسط حتى الرأس وزعت على الأشراف والنبلاء والأمراء، والباقي ألقي من على مسافة إلى أفراد شعبه، سعيد الحظ هو من هرع والتقط قطعة يتهلل بها وجهه ويسرع بها إلى عائلته ليشاركوه الوجبة المقدسة.

هذا ما كان يدور في الشرق الأوسط وأفريقيا ومصر قبل ظهور الأسرات الفرعونية بزمن كبير، ويرجع أصله إلى عادة مازالت تمارسها بعض الشعوب الأفريقية حتى الآن – كما هو مذكور في كتاب مصر الفرعونية للدكتور أحمد فخري – وكانت تلك العادة هي تحديد مدة ثلاثين سنة لحكم أي زعيم، لأن رخاء الناس يتوقف على قوة هذا الزعيم،

فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه في حفل ديني مماثل للتصور السابق، وعنما تطورت هذه المجتمعات بعض الشيء سمحوا للزعيم أن يتجاوز مدته بشرط أن يثبت قوته باصطياد أسد أو أحد الوحوش الضارية أو قتل عدو لدود فيشتري بذلك سنوات أخرى من الحياة والزعامة، وكان هذا الطقس الاحتفالي يسمى في مصر الفرعونية عيد "السد" أو الاحتفال الثلاثيني، وقد لعب هذا الاحتفال دورًا كبيرًا في حياة الملوك المصريين، ودعم عقيدة الألوهية الملكية، لكن المصريين طوروه أكثر وسمحوا للزعيم بالحصول على سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد، أو تقديم قرابين خاصة في حفل كبير يستعرض فيه الزعيم قوته وقدراته ويثبت استمتاعه بالصحة الوفيرة.

هذا الفكر البدائي الضارب في أعماق جذورنا حتى الآن، والمتخلل جيناتنا هو الذي سمح في رأيي بتكوين الدكتاتوريات في مجتمعاتنا العربية والأفريقية، يبدأ الأمر هكذا، يعتلي سدة الحكم في أي من جمهورياتنا شخص طبيعي، ويستهل حكمه بالحكمة والانضباط معلنًا أنه لن يحكم إلا فترة واحدة أو مدة محددة، ثم لا يترك كرسيه إلا وهو في غيبوبة الموت، بينما الإنسان البدائي بفطرته البسيطة ووعيه المحدود أدرك بحكمة بالغة أن ثلاثين عامًا من الحكم هي مدة كافية جدًا، لا سيما أن الحكام في فترة ما قبل الحضارة كانوا يتولون الحكم وهم لم يبلغوا العشرينات بعد، وطبيعي جدًا أن يتركوا الحكم وهم على أعتاب الشيخوخة، أما نحن الذين نعيش في الألفية الثانية بعد الحضارات يتولى الزعماء الحكم عندنا وهم في آخر مراحل العمر ويصرون على الدفن زعماء، وأسوأ من هؤلاء الزعماء في رأيي بطانة السوء المحيطة بهم والمستفيدة منهم والتي تزين لهم أفعالهم وتساعدهم في الضغط على الشعوب المغلوبة على أمرها، بالرغم من أن هذه الشعوب في أحيان كثيرة تستاهل ما يجرى لها، لأنها ترى الظلم وتحسه وتشعر به، لكنها لا تحرك له ساكنًا، وتتعامل معه بمنطق جحا "مادام بعيد عن بيتي" وعندما يقترب الظلم من البيت لا تجد من ينصرها أو يجيرها منه وتعاني بمفردها من جرائم الزعماء.

الزعيم السادات كان له برنامج شهير مع المذيعة همت مصطفى يفضفض فيه للشعب.. ذكر لها فيه حادثة طريفة حدثت له وهو طفل في حدود الرابعة من العمر، كان يستحم في ترعة في المنوفية فكاد يغرق، وعندما سألته المذيعة النابهة: وكان شعورك إيه يا سيادة الرئيس وانت بتغرق؟ أشعل السادات غليونه ونفث دخانه في الهواء وأجاب بثقة: كنت حاسس إن مصر حتخسر راجل. طفل في الرابعة من عمره لا يعرف حدود قريته "ميت أبو الكوم" يدرك أن مصر بكاملها في انتظار زعامته. أما الزعيم المفدى صدام حسين الذي كان له أيضًا برنامج شهير "يسولف" أي يدردش ويتبحبح مع أفراد شعبه ويقدم لهم ذكرياته لعل الأجيال الجديدة تجد فيها العظة وتتلمس فيه النجابة والزعامة، حكى في البرنامج المذكور أنه وهو شاب، كان يحب التمشية في شارع متفرع من شارع الرشيد بقلب بغداد، وذكر أن اسم الشارع هو شارع المعتز، وفي الحقيقة لم يكن ببغداد آنذاك أي شارع اسمه المعتز، لكن قبل أن ينهي صدام حسين حكايته في التليفزيون في تلك الليلة، تحركت أمانة العاصمة بغداد وغيرت اسم شارع جانبي وأسمته شارع المعتز.. فالزعيم لا يكذب!

نسمات أكتوبرية

كلما هلّ علينا شهر أكتوبر، تذكرت نخلات منطقتنا الباسقات وأشجار"البامبوزيا" الآسيوية التى تضارعها طولاً، حين كنا صغارًا، نقطع لعبنا الطويل ونهرع إليها، وتمضي كفوفنا الصغيرة تلتقط ثمارها الحلوة وتأكلها بشهية، غير أن أكتوبر ذاك العام كان مختلفًا قليلاً فقد جاء في رمضان، وكنا وسط عطشنا الشديد نضع الثمار في قواطيس ورقية صغيرة ونبقيها حتى موعد لعبنا التالي عقب الفطار، ثم جاء الحدث الجلل وعبرت جيوشنا قناة السويس، وأهملنا اللعب والبحث عن الثمار، ومضينا نرقب بدهشة الكبار الذين في شغل شاغل عنا، وهم ملتفون حول أجهزة الراديو والتليفزيون، يهللون ويكبرون مع كل بيان يصدر من القوات المسلحة، وكنا أثناء لعبنا في الأيام الخوالى قد أفسدنا بطبيعة الحال بعض سواتر الطوب التي كانت متراصة أمام مداخل البيوت، وثقبنا أجولة الرمل الموضوعة خلف السواتر للوقاية من القنابل، ولا أتذكر من منا أشار علينا بإصلاح ما أفسدناه، ما أذكره جيدًا تلك الحماسة الكبيرة التي انتابتنا للمساهمة في الإصلاح، قسمنا أنفسنا إلى ثلاث مجموعات، مجموعة لتنظيف المخبأ المهمل في نهاية الحي، ومجموعة لإعادة تكويم جوالات الرمل بانتظام وترتيب، ومجموعة كنت منها لشراء الاحتياجات والعودة بسرعة لمساعدة الباقين، رفض الموان أخذ نقودنا القليلة التى قدمناها ثمنًا للأسمنت والطوب، بل وساهم أيضًا ببعض البوية الزرقاء وبكرات الورق اللاصق، دعمًا لفكرتنا النبيلة كما قال، انهمكنا طيلة يومين في معالجة بعض سواتر الطوب ودهان نوافذ بيوتنا وبيوت الجيران باللون الأزرق الذي يحجب الإضاءة بعد أن وضعنا اللاصق على الزجاج حتى لا يتناثر ويؤذي الناس إذا ما حدث وألقيت قنبلة على الحي، كنا نعمل كخلية نحل صغيرة وسط تشجيع العابرين، ورأينا وجوهًا أخرى للجيران الذين كانوا يطاردوننا من قبل وقد يطلبون لنا الشرطة بحجة إقلاق نومهم وقيلولتهم، كانت وجوههم هذه المرة باشة مبتسمة لامعة غير متكدرة، وراقبنا أحد شباب الحي ثم وقف ليحادثنا ويثني على ما نفعله، وطلب منا أن نلتقيه في المساء في مدرسة الحي، وهناك

رحبوا بنا بشدة وضمونا إلى مجموعات أخرى من نفس الحي، ثم رسم الشاب بالطبشور خريطة بسيطة لحينا على السبورة، وكلف كل مجموعة منا بحماية جزء من الحي قريبًا من بيوتنا، وسلمونا خوذات صغيرة وعصي وكشافات ضوئية، وكانت مهمتنا أن نهرع إلى الجزء الموكول بنا حمايته بمجرد سماعنا لصوت صفارات الإنذار، للتأكد من التزام هذه الناحية تعليمات الدفاع المدني الخاصة بإطفاء الأنوار ونزول سكان الأدوار العليا إلى أسفل، وأن نطالب السيارات العابرة بخفض الإضاءة وبدهان كشافتها باللون الأزرق، أو بإيقاف محركاتها والانتظار بالطريق حتى انتهاء الغارة.

كانت هذه أول لجنة شعبية شاركت فيها، وخرجت منها بصداقات متعددة مع أشخاص لم أكن أعرفهم من قبل بالرغم من أنهم جيران، وأثناء ثورة يناير حينما كنت أمر على اللجان الشعبية أرى الشباب الصغير وهو يتعرف بعضه على بعض لأول مرة، كنت أستعيد نسمات أكتوبر وأتأمل الروح المصرية عندما يوحدها الخطر، أتذكر هذه الحرب العظيمة التي خضناها لاسترداد أرضنا، وأستعيد اللحظة التي ثبت فيها الجندي محمد أفندي العلم فوق ربى سيناء واستشهد مضرجًا بدمائه، ومنظر العبور المهيب لجيشنا وهو يعيد تشكيل مياه القناة، وهتاف الله أكبر المتصاعد من حناجر المقاتلين حتى أبواب السماء، منظر أسرى العدو وهم جالسون القرفصاء ومقيدون يتوسلون النجاة. وبمناسبة ما يحدث الآن من احتقان طائفي غريب عن نسيج مجتمعنا المصري.. دعونا نسترجع لحظة جميلة ودالة حدثت أثناء الاستعدادات لحرب أكتوبر، هي لحظة وقوف الضابط المصري القبطي "باقي زكي يوسف" عام ١٩٦٩ أثناء استعدادنا لعبور قناة السويس، واسترداد أرضنا المحتلة، في غرفة سلاح المهندسين المصري، وهم يتدارسون كيفية تحطيم خط بارليف، وفتح عدة ثغرات كبيرة به والولوج إلى داخل سيناء، كان الخط الذي سمي على اسم مقترح بنائه رئيس الأركان الإسرائيلي "حاييم بارليف" وجندت إسرائيل الإعلام الغربي كله يهلل لهذا الخط العازل المانع للعبور، العصي على الاقتحام، ووحدها القنبلة الذرية فقط تستطيع الإضرار به، وللأسف روج بعض مفكرينا لهذه الفكرة، وبات من المستحيل نظريًا تحرير

أرضنا أمام هذا العائق الجبار، غير أن قادة جيشنا العظيم أوكلوا المهمة إلى سلاح المهندسين الذين عقدوا اجتماعات دورية لدراسة الأفكار المقترحة للعبور، غير أن أغلب الاقتراحات التي تم عرضها، كان فيها زمن فتح الثغرات في هذا الخط كبيرًا (يتراوح بين ١٢ ساعة و٢٠ ساعة) والخسائر البشرية المتوقعة فادحة لا تقل عن ٢٠% من عدد القوات المهاجمة، وكان ذلك رقمًا رهيبًا، فلم يكن في مقدور أي شعب في العالم تحمل خسائر تقترب من ربع قواته المقاتلة في أول ساعات الحرب، كانت المناقشات محتدمة والجندي الشاب "باقي زكي يوسف" تتدافع أمام عينه صور السواتر الترابية وهي تتهاوى أمام مضخات المياه أثناء عمله في بناء السد العالي، طلب باقي الكلمة ولصغر سنه أرجاه القائد، ثم وافق أخيرًا أمام إلحاحه، شرح لهم الضابط الصغير كيف يواجهون الساتر الترابي العملاق المسمى بخط بارليف بمضخات المياه، وأنها في هذه الحالة تصبح أقوى من المفرقعات والألغام كما أنها أوفر وأسرع، صمت تام خيم على الغرفة لدرجة أن الضابط الشاب أحس في لحظة بأن القائد سيتهمه بالخرف والجنون، لحظات قليلة مرت وتصاعد التصفيق لوجاهة الفكرة وتم وضعها في حيز التنفيذ.

هذه اللحظة الملهمة والفكرة الفذة التي خطرت ببال الضابط الشاب مكنتنا من اقتحام خط بارليف وعمل ثغرات فيه وعبورها في أقل من أربع ساعات بدلاً من ١٢ ساعة، وتمكن ٨٠ ألف جندي مصري بكامل عدتهم وعتادهم من العبور إلى الضفة الأخرى للقناة وهم يهتفون الله أكبر، من الساعة الثانية ظهرًا حتى الساعة العاشرة مساءً، لم نفقد منهم غير ٧٨ شهيدًا في موجات العبور الأولى، وكانت التقديرات السابقة تشير بأن عدد الشهداء لن يقل عن ١٦ ألف شهيد.

حرب أكتوبر العظيمة، كان يقاتل فيها الجندي المسلم المصري مع أخيه المسيحي المصري جنبًا إلى جنب، وامتزجت دماؤهم على أرض سيناء الطاهرة حتى حرروها، فرحمة بدماء هؤلاء الشهداء رفقًا بمصر، ولا تستمعوا للغوغاء والمغرضين، فقد عشنا سويًا على أرضها وسنموت كذلك، وباسم أكتوبر العظيم اضربوا بشدة على أيدي من يزرعون الفتنة، وأعيدوا لهذا الوطن جلاله.

البحث عن كارولين

طابق في عمارة عادية به شقتان متقابلتان، إحداهما يسكنها الأستاذ أحمد سويلم وزوجته دينا وابنتهما ليلى، والشقة الأخرى يقطنها الأستاذ فهمي وزوجته إيفون وابنته كارولين، والعائلتان في حالهما كأغلب سكان مبانينا الحديثة، لا يكادون يعرفون وجوه بعضهم البعض، دينا إن قابلت إيفون في الطريق ستعبرها وإيفون إن التقت بدينا في الغالب لن تعرفها، بالرغم من أنهما إذا التقيتا في الممر الفاصل بين الشقتين سيتبادلان التحية، وعندما تعرضت كنيسة القديسين للحادثة الإجرامية الرهيبة، اصطحب أحمد سويلم زوجته دينا لتعزية فهمي وزوجته إيفون، ولم يمكثا طويلاً، قدما واجب العزاء وغادرا، ولكن عندما تكونت اللجنة الشعبية شارك فيها عائل كل أسرة، وأصبح من المعتاد رؤية أحمد سويلم وفهمي نازلين أو صاعدين معًا حسب موعد ورديتهما في الحراسة، أما الممر الصامت قبل الثورة فأصبح يدب بالحركة ليلاً ونهارًا، تجري فيه الطفلتان ليلى وكارولين ويلعبان في حرم الشقتين المفتوح باباهما على مصراعيها، ودينا وإيفون كانتا على الأغلب معًا على مدار اليوم، أحيانًا في مطبخ إحدى الشقتين تعدان السندوتشات أو تجهزان الشاي، أو تشاهدان التلفاز سويًا، أو تتبادلان الحكايات والنصائح مثل ضرورة وضع الذهب في صرة وربطها حول الوسط، أو ملء برطمان المربى الفارغة بالكلور ووضعها علب البيروسول خلف باب الشقة لاستخدامها كـ self-defense في حال هجوم اللصوص على الشقة.

بعد التنحي ذهبت العائلتان معًا إلى ميدان التحرير، وجالوا داخل الميدان كله حاملين الأعلام، واشتروا القبعات المرسومة بألوان العلم المصري والتي شيرتات المكتوب عليها "ارفع راسك فوق إنت مصري"، ثم وقفوا بجوار المدرعة وأخذت لهم صور جماعية.

في الأيام التي تلت التنحي تخلص الأستاذ عبد التواب من خوفه ووحدته وشارك في الاستفتاء والانتخابات معبرًا عن رأيه وأيد ورفض دون أن يعمل حسابًا لأحد، بينما تتباعد

المسافات بين عائلة أحمد سويلم والأستاذ فهمي، كلما تحرك اللهو الخفي وضرب إسفينًا في العلاقة بين عنصري الأمة، واستيقظت دينا ذات صباح على أصوات جلبة وضجيج آتية من شقة إيفون، خرجت للاستطلاع وفوجئت بشقة إيفون خالية من الأثاث بعد أن أجلاها الحمالون، تصورت في أول الأمر أن إيفون وجدت شقة أخرى تناسبها أكثر، وتضايقت لأن إيفون لم تهتم بإبلاغها الخبر بنفسها، ولم تأبه بوداعهم، غير أن قريب الأستاذ فهمي الذي كان يوصد باب الشقة الخالية بإحكام أذهلها عندما أخبرها بهجرة الأستاذ فهمي وعائلته إلى كندا، غضبت بشدة وتوترت وكادت أن تتعثر في سلة القمامة التي كانت تطل من جوفها التي شيرتات والأعلام، وكتم الأستاذ أحمد سويلم حزنه وابتلع مرارته لكنه عجز عن التحكم في نظرات عينيه اللتين بدتا شاردتين، أما الطفلة ليلى التي لم تبلغ بعد الرابعة من عمرها فلم تكف عن مناداة كارولين والبحث عنها في زاوية الممر لأيام كثيرة بعدها.

الحجر الداير

في صبيحة اليوم الذي أصيب فيه الناشط السياسي "مهند سمير"، مررت على ميدان التحرير كالعادة وأنا في طريقي إلى وسط البلد، فوجدت بقعًا من دمائه متناثرة على الأرض، في الجهة القريبة من مدخل طلعت حرب، وبعض المعتصمين يحيطون هذه الدماء الزكية بقطع حجارة ويعلقون لافتة كتب عليها وقائع الاعتداء، وكان أحدهم يجلس وسط الدائرة يسرد للناس التفاصيل وخلفيات الهجوم، وعندما تحسنت حالة مهند بحمد الله أعجبني جدًا أنهم لم يطمسوا هذه الدماء، ولم يغسلوا آثارها، بل غطوها بعد أن جفت بورود حمراء وبزهور عبّاد الشمس، وأعادني هذا المشهد إلى جمعة الغضب "٢٨ يناير ٢٠١١" وبقع دماء الشهداء الطاهرة متناثرة في أرجاء الميدان، تحيطها دوائر من حجارة يلتف حولها الناس، وهم يرفعون أياديهم تضرعًا وابتهالاً وطلبًا للرحمة، وكان يجاورني في اللحظة ذاتها صديق من رجال الأعمال الشرفاء، وقد خطرت له فكرة لتخليد هؤلاء الشهداء، وأخبرني بتفاصيلها وهو يتكلم بحماسة، وكانت الفكرة أن يشتري قطعة جرانيت ضخمة ينصبها في الميدان، بعد أن يدخلها إليه عبر فتيان أقوياء يرتدون زيًا فرعونيًا يجرّون هذه القطعة بالحبال حتى المكان المختار لنصبها، وأن يدعو الفنانين التشكليين لحفر أسماء الشهداء عليها، حتى إذا انتصرت الثورة ظل هذا النصب شامخًا ومعلمًا للأجيال القادمة كيفُ بذلت الدماء في سبيل حرية الشعب، وكان صديقي الرأسمالي الرومانسي يتصور أن يتم ذلك بمنتهى السهولة، فما دام يمتلك المال والفنانين متحمسين فلا عائق سيمنعه من تنفيذ فكرته، لذلك سارع بالشروع في شراء القطعة الجرانيتية وقابل أصحاب المحاجر، الذين رحبوا به واستمعوا إليه، وشكروا في الثورة والثوار، وشكوا مر الشكوى من الفساد، ثم اعتذروا جميعًا ورفضوا البيع بحجج مختلفة "الحجر مشروخ يا أستاذ وأنا مش هاخالف ضميري وأبعهولك"، "أنا آسف بعد مامشيت المحاسب فكرني بطلبية كبيرة كان ضمنها الحجر اللي نقيته"، "ممكن تعدي علينا بعد شهرين يا أستاذ عشان سن ماكينة التقطيع انكسر ولازم نبعت نجيبه من بره وانت شايف

ظروف البلد دلوقتي" وهكذا حتى كاد صديقنا يحبط ويتخلى عن الفكرة نهائيًا، حتى دله أحد الأصدقاء على صاحب محجر "مستبيع" وافق على بيع حجر الجرانيت الذي يزن أكثر من ٢ طن بضعف السعر وبدون فاتورة إكرامية للثورة، وطبقًا للمثل الذي يقول "لقينا الأكل وملقناش السفرة" كلما سمع سائق مقطورة بأن الجهة التي سيعتق فيها الحجر هي ميدان التحرير، لطم صدره وقال "هو أنا مستغني عن نفسي لو نجيت من الرصاص حتبهدل في أمن الدولة"، وبعد أن تعاظمت المعارضة ضد حسني مبارك، جاءت لصديقنا رجل الأعمال مكالمة من صاحب المحجر يبشره بموافقة أحد السائقين على تحميل الحجر وتعتيقه في الميدان، وتم تحميل مقطورة سيارة النقل بالحجر في صبيحة يوم ١١ فبراير، وانطلقت في طريقها تسبقها سيارة صديقنا لكي يرشدها إلى الطريق، وفي الوقت ذاته كان الرجال في ردائهم الفرعوني منتظرين بالقرب من مدخل الميدان بالحبال السميكة حتى يشدوا الحجر على العجلة الخشبية حتى مستقره بالحديقة الصغيرة التي في مواجهة المتحف المصري، وعند وصول المقطورة بالحجر أجرى صاحبنا مفاوضات مضنية مع القائد العسكري للميدان حتى وافق أخيرًا على دخولها بعدما أخذ الإذن من قيادته، لكن فشلت مسألة سحب الحجر بالحبال لضخامته فعند محاولة زحزته تهاوت العجلة الخشبية مما اضطر صاحبنا لاستئجار رافعة نجحت في نصبه بالحديقة في تزامن مدهش مع الخطاب الذي يعلن تنحي مبارك، وانشغل الناس في فرحتهم عدا البعض ممن التفوا حول الحجر ووضعوا أمامه المصاحف والأناجيل والشموع والورود وانطلقوا يتلون صلاواتهم وأدعيتهم، وللأسف لم تكتمل فكرة النُصب التذكارى للشهداء، ومازال هذا الحجر مكومًا بالقرب من مدخل المتحف المصري.

في مسألة تكريم الشهداء أخبرني صديقي الفنان وسام مهنا، وهو فنان تشكيلي مقيم بفرنسا، بأن الفرنسيين في أثناء احتلالهم للجزائر، منعوا ذات مرة شعب الجزائر من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وفي ليلة المولد أطفأ أحد الجزائريين أنوار شقته ووضع شمعة بالشرفة احتفالاً بالمناسبة، وقلدته شقة أخرى، ثم باقي المبنى، وكلما عرف أحد

سكان الحي بالسبب قلده بإطفاء الأنوار واستبدالها بضوء الشمعة، حتى صار الحي كله مضاءً بالشموع، وفجأة صارت الجزائر كلها تنيرها أضواء الشموع، وأُسقط في يد المحتل ولم يستطع فعل أي شيء، أتمنى أن نتبنى هذه الفكرة ولنختر يومًا في أول كل شهر، أو في عيد الثورة أو في يوم التنحي ونشعل شمعة في كل بيت لتذكرنا وتذكر الأجيال القادمة بفضل هؤلاء الشهداء علينا.

خذوا الحكمة من أفواه البائعين

حدثت هذه الحكاية وأنا أعمل مديرًا للحسابات بإحدى الشركات العاملة في مجال توزيع المواد التليفزيونية والفيديو، وكان يتعامل معنا موزع فيديو شهير في هذا المجال، وكان ملتزمًا بتسديد ما عليه من مستحقات أولاً بأول في بادئ الأمر، ثم بدأ يتباطأ في التسديدات ويقلص من حجم مدفوعاته الأسبوعية، حتى وصل الأمر إلى عدم الدفع والبلطجة والرد بكلمة واحدة لا تتغير: أعلى ما في خيلك اركبه، وكلفت بالتفرغ له ومطاردته حتى نحصل منه على باقي مستحقاتنا لديه والتي تبلغ ٣٠ ألف جنيه "وكان هذا مبلغًا فاحشًا آنذاك" وفي خلال رحلة البحث عنه ومحاولاتي لمقابلته وجهًا لوجه التي فشلت تمامًا، تعرفت بمحاسبين كثيرين من شركات أخرى كانت تطارده هي أيضًا، وبدأنا نضع خططًا مشتركة للإيقاع به، والإمساك بتلابيبه والحصول منه على بعض أموالنا المنهوبة، لكن كل ذلك كان دون فائدة وأفلت منا جميعًا، ما جعلني أبلغ صاحب الشركة بفشلي وعجزي وبمجرد علمه بأن مبلغنا المستحق هو أقل المبالغ المطلوبة من هذا الشخص، فوض أمره إلى الله وطلب مني عدم مقاضاته حتى لا نفقد عملاءً آخرين محتملين، وأن أعتبر ديونه في حكم الديون المعدومة، وقد كان، ثم مرت أشهر قليلة وسمعت بأن إحدى الشركات التي كانت دائنة له، استطاعت الحصول على حكم قضائي ضده، وتربصت به وسلمته للشرطة، فحكم عليه بالسجن وبكفالة مالية، وكان مبلغ الكفالة المطلوب حتى يتم الإفراج المؤقت عنه مبلغًا كبيرًا يتجاوز الـ ١٠ آلاف جنيه، بما يعني أنه سيبقى في السجن لا محالة، وظننت أن الأمر انتهى وأسفت لحاله ثم اتضح لي أن معرفتي بالواقع محض هراء، فبعد أيام معدودات جاءتني مكالمة من زميل محاسب، تعرفت به في أثناء رحلة بحثي عن هذا الموزع، أخبرني هذا الزميل بأن الموزع المطلوب خرج من السجن بعد دفع الكفالة، وكنت قد ذهبت إلى شقة هذا الموزع وأنا أبحث عنه، وقابلت زوجته وأطفاله، وتعاطفت مع الزوجة وهي تريني ماتبقى من أثاث متواضع بعد أن باعت أغلب مقتنيات الشقة كي تصرف على أطفالها، لأنه فص ملح وذاب . على حد

قولها . سألت الزميل المحاسب: من أين أتى بمبلغ الكفالة حتى يخرج هكذا بسهولة؟ ضحك الزميل كثيرًا وأجابني، ومازالت ضحكته ترن في أذني كلما تذكرت هذه الحكاية: لم يدفع شيئًا طبعًا.. إنما بعض الشركات التي كانت دائنة له جمعت المبلغ المطلوب لكفالته وسددته فخرج! ثم أضاف وهو يفسر لي ما كان غافلاً عني: هما كانوا هيستفيدوا إيه من حبسه.. ماحدش كان هياخد جنيه واحد من مديونيته.. عشان كده خرجوه عشان يشتغل بحرية ويسدد اللي يقدر عليه.

قلت في نفسي أكبس على نفسه وأخرج من جرابه أي مبلغ، ذهبت إلى مقر شركته القديم، فوجدت سكرتيرة جديدة قابلتني بترحاب ثم أدخلتني عليه، وجدته خلف جهاز الكومبيوتر يلعب ال "سلوتير" بسعادة، طلب لي القهوة وهو يقول لي بابتسامة لامبالية: خليك يا أستاذ قاعد في المكتب براحتك.. وأي عميل يدخل عشان يدفع فلوس.. نقسم الفلوس دي بينا بما يرضي الله، وظللت لأسابيع كثيرة أجالسه وأقتسم النقود التي تدخل مكتبه حتى انتهت المديونية تمامًا، وفي خلال تلك الفترة تباسطنا كثيرًا وسمعت نوادره ومغامراته وغزواته العاطفية. غير أنني لم أنس مطلقًا حكمة بليغة قالها بحزم "المدين أقوى من الدائن".

يا سادة يا متعلمين هل تذكرون ما كانوا يحشون به أدمغتنا عن الديون ومخاطرها وينشدون في ذلك أشعارًا ويحبكون قصصًا وينسجون حكمًا مثل "الدين مذلة بالنهار وهم بالليل"، هذا المورد الذي حنكه الشارع من بداية حياته العملية ممتطيًا دراجته يبيع أشرطة الكاسيت والفيديو حتى امتلك سيارة نصف نقل وأصبح يدير أعماله من مكتب فخم في مقدمته سكرتيرة ذات مؤهل عالٍ.. اختصر الموضوع وقال "المدين أقوى من الدائن"، وقد تفيد عبارته البليغة تلك الأفراد، لكن ترى هل تصلح للدول؟

عم عبد التواب

يقترب سن الأستاذ عبد التواب الآن من السبعين، وقد زادت عليه علل الشيخوخة بعد وفاة قرينته منذ خمس سنوات، أصبح لا يغادر منزله إلا لمامًا، وإن خرج منه يتوكأ على عصاه مسافات قليلة تأخذ منه وقتًا طويلاً ثم يعود، ولأنه يعيش بمفرده، أصبحت قراءة الصحف اليومية هي تسليته الوحيدة، تلك الصحف الزاخرة بقصص الجريمة، والمتفننة في سرد وقائعها المؤلمة، وشرح تفاصيل الاعتداءات على الكبار المقيمين بمفردهم، ما جعل الأستاذ عبد التواب تتلبسه "فوبيا" الخوف من اللصوص، خاصة ومسكنه بالطابق الأرضي الذي في متناولهم.

اشترى عبد التواب بابًا جديدًا من خشب الزان، وكلف نجارًا بارعًا في التركيب ليزوده بمزاليج حديدية وقفل متعدد "السكات"، وبرغم ذلك كان قلبه يكاد أن ينخلع من الخوف كلما دبت أقدام بالقرب من الباب، وإن كانت الحركة السريعة قد فقدها عبد التواب بعد أن كبر سنه، إلا أن مساحة الخيال قد زادت في رأسه، ففي إحدى خروجاته القليلة، اشترى لوحة نيكل عليها صورة لوجه كلب شرس فمه تبرز منه أنياب تكاد تقطر دمًا، ومكتوب بجوار الصورة "احترس من الكلب" وثبت عبد التواب اللوحة في أعلى الباب، ولم يكتف بذلك بل اشترى "سي دي" مسجلاً عليه صوت نباح كلب شديد الشراسة، ومن تلك اللحظة أصبح المار أمام باب شقة عبد التواب يسمع في الصباح صوت القرآن الكريم المرتل، وفي المساء أغاني قديمة لعبد الوهاب وأم كلثوم، وفي الليل إن تلكعت الخطوات أمام الباب طاردتها أصوات النباح الغليظ المرعب، وكان عبد التواب إذا ما صادف أحد السكان وباغته بالسؤال عن نوع الكلب، أجاب بدون تردد: دوبرمان ألماني.. أنا رابطه بجنزير عشان مايعورش حد.. ربنا يلطف بالحرامي اللى حيحاول يدخل الشقة!

عبد التواب الذي يخاف من الهواء الطاير ويتحرك بمساعدة عصا خشبية، عندما حدثت الثورة لبد ساكنًا محاصرًا بين جدران شقته بضعة أيام، ولما سمع أن أهالي الحي كونوا لجانهم الشعبية، أصر على مشاركتهم والوقوف باللجنة التي كان مقرها بالقرب من بيته، ويومًا بعد يوم صار يعرفهم ويعرف عائلاتهم وصاروا يعرفونه، وتخلى عن عادته في النوم المبكر وراح يسهر معهم إلى ما بعد منتصف الليل، ووجد للعصا وظيفة أخرى هي التلويح بها بغضب في وجه البلطجية والذين يصرون على المرور دون إبراز ما يثبت هويتهم، ثم أحس بالغضب من نفسه لأنهم باتوا يثقون به ويخصونه ببعض أسرارهم بينما يكذب عليهم كل يوم مدعيًا أنه ذاهب إلى البيت لإطعام الكلب، فكاشفهم بسر كلبه الوهمي وضحك معهم كثيرًا وهم يدخلون ردهة البيت ويشاهدون اللوحة النيكل ويتلمسون خطوطها البارزة.

بجرأة نزع عبد التواب اللوحة عقب التنحي، ولم يعد يأبه لصوت الخطوات العابرة أمام شقته، واكتفى بوضع عصاه بجواره على الفراش، متوعدًا من تسول له نفسه اقتحام الشقة بالإيذاء الشديد.

غير أنه بعد مرور عام واحد فقط من الثورة كلف احد أقاربه بشراء كلب ضخم من سلالة عريقة، صار نديمه في المنزل في الصباح ورفيق سريره ليلاً، كما وضع طبنجة صوت أسفل وسادته، وأغلب وسائل الدفاع عن النفس التي تسبب للمهاجم الدوخة والألم والغيبوبة المؤقتة، وبرغم ذلك عاودته الكوابيس المزعجة التي تنتهي في الغالب بتحول الكلب إلى كائن شيطاني أو قاتل عتيد يمزقه إربًا.

قلبي بيقولي كلام

فكرية التي هدها التعب فهبطت عليها ثروة

تستهويني جدًا قراءة الكتب التي تتناول طبائع الحيوان والطير والهوام.. سواءٌ كانت هذه الكتب تراثية كحياة الحيوان للدميري وعجائب المخلوقات للقزويني وكتاب الحيوان للجاحظ، أو ما يتناوله كاتبنا الجميل محمد المخزنجي من ملاحظات ورصد بالغ الدقة والفتنة لحيوانات أيامنا.. هذا بخلاف ما تبثه قنوات "ناشيونال جيوجرافيك" و"ديسكفري" من أفلام تسجيلية ثرية وشيقة ومبهرة وفائضة بالمعرفة إلى حد يفوق التصور.

وسأتحدث هنا عن حيوانات متصعلكة شاهدتها في الشوارع والمقاهي والمطاعم. وسأبدأ بالقط الصغير الذي لم يكن عمره قد تجاوز الأسبوع عندما وجده مدير المقهى فعطف عليه ونظفه بحذر بقطنة مبللة، ثم وضع له بعض الحليب الدافئ في طاسة الشيشة فلحسها الصغير متلهفًا ثم حرك ذيله سعيدًا وأدرك بفطرته أن هذا المكان صار وطنه، غير أن عين المدير ظلت تراقبه بقلق وأقدام الزبائن تكاد تتخبطه والسيارات توشك على دهسه.. ولم يسترح المدير إلا عندما التقطه ووضعه أمامه على "كيس" النقود، لكن القط كان يفزع ويموء كلما قذف أحد عمال المقهى بالماركات على "الكيس" وهو يخرج بما يحمله من مشروبات.. أو كلما رن الهاتف بغتة فأيقظ القط من سباته وجعله يرتجف.. هنا اهتدى المدير لفكرة بدت له جيدة.. فتح درج النقود العريض ووضع القط في نهايته.. وبدا القط سعيدًا بمكانه الجديد... لا يخرجه صاحبه إلا للأكل والتبرز واللعب بعض الوقت أثناء القيلولة.. حتى اشتد عوده وقوى وبدأ مسكنه يضيق به فحاول صاحبه أن يعيده إلى حياة الشارع لكن القط قاوم وصمد حتى تخلى صاحبه عن هذه الفكرة أو أرجأها قليلاً.. إلى أن جاء يوم والمدير على وشك أن يلبي حاجته لدورة المياه.. فتح باب

درج النقود قليلاً ونظر المدير إلى القط الذي يبادله النظر ودار بينهما حديث متكرر وهو كالتالي.. قال المدير: هادخل الحمام شوية وأرجع...

إوعى حد يقرب من الفلوس.. هز القط رأسه.. فذهب صاحبنا إلى الحمام مطمئنًا. جاء صاحب المقهى للمرور في جولة تفتيشية مفاجئة لتفقد أحوال المقهى.. لم يجد المدير فسأل عامل النصبة عنه.. قال له العامل إنه بالحمام فجلس صاحب المكان مكانه وجذب درج النقود ليخرج دفتر إيرادات ومصروفات المقهى.. شعر القط اللابد في هدوء بأن هناك يدًا غريبة تقتحم المكان وتنوي سرقة نقود صاحبه.. زام بصوت مكتوم وعندما امتدت اليد أكثر خربشها بأظافره الحادة.. صرخ صاحب المقهى من هول المفاجأة وأخرج يده بسرعة.. تطوع أحد العمال وقذف بالقط خارج المقهى.. قطع المدير خلوته وجر نفسه إلى داخل المقهى.. لم يبال بالدم السائل من يد ولي نعمته أو الدم المختنق في وجهه من الألم والغيظ.. ولم يهتم بنظرات التشفي أو العطف التي تطفو على وجوه المحتشدين.. كان شاغله فقط.. ماذا حدث لقطه الصغير؟ انحنى والتقطه وضمه إلى صدره وظل يربت ظهره حتى هدأ القط واستكان.. لكن صاحب المقهى لم يهدأ وازداد ثورة وخَيَّر مديره بين أن يقذف بالقط إلى الشارع أو يغادر المقهى إلى الأبد...

بلامبالاة غادر المدير المقهى وقطه راقد فوق ذراعه.. وأصر أن يأخذ باقي حسابه وقطه على نفس هذه الوضعية يزوم في وجه صاحب المقهى.. والغريب أن القط لم يصمت إلا عندما غادر المقهى هو وصاحبه، هز ذيله سعيدًا رغم أنه غادر وطنه الذي كان لا يرتضي عنه بديلاً..

وإليكم حكاية أخرى في نفس الموضوع.. كنت ومازلت صديقًا لأبناء الشاعر الغنائي الكبير مأمون الشناوي وكانوا جيرانًا لنا في السبعينيات والثمانينيات.. وكانت لهم خادمة غلبانة ومسكينة اسمها "فكرية" يعطف عليها الأستاذ مأمون جدًا.. لكننا كنا في الشارع نعرف عنها أسرارًا لا يعرفها الأستاذ مأمون.. فقد كانت من مدمنات "الكودافين"، تضع

في جيبها زجاجة أو زجاجتين منه، وتشربها في الشارع ثم تشاكس البائعين والجزارين ولا يردعها أحد محبةً في الأستاذ مأمون.. وكانت لأسرة الأستاذ مأمون كلبة صغيرة "جريفون" كانت رغم صغرها مصدر عكننة لفكرية.. فعندما تخرج بها إلى الشارع.. كانت كلاب الشارع الشرسة تطارد الكلبة "الجريفون" فتجري لاهثة منهم وهي تجر فكرية وتكاد تكفيها على وجهها في الشارع.. وفي كل مرة تعود فكرية إلى المنزل وساقها تتجلط الدماء عليه وندبات على ذراعيها وكدمات على جبينها.. فتقسم بأغلظ الإيمانات إنها لن تخرج بها مرة أخرى.. لكن أمام إصرار عائلة الأستاذ مأمون كانت ترضخ بعد أن وصلت إلى حل وسط يرضي الجميع.. أن تخرج بها لمدة ساعة فقط في الأسبوع.. وتتحمل في هذه الساعة كلاب الشارع مستعينة في ذلك عليهم بعصا غليظة.. مر أسبوع وآخر ثم وجدت حلاً عبقريًا من وجهة نظرها.. كانت بمجرد الخروج من باب العمارة تعطي الكلبة بضع جرعات من الكودافين تجعلها تنام بسرعة.. ثم تحملها وتخترق بها الشوارع وتعود بعد أن تفيق الكلبة وقد أدت فكرية واجبها في التسرية عن الكلبة.. لكن حدث يوم أنها أكثرت العيار فهدها التعب فجلست على الرصيف مسندة ظهرها إلى جدار.. وغفلت عيناها قليلاً وانسدلت طرحتها فغطت الكلبة التي في حجرها.. ظنها الناس الطيبون سيدة تشحت وعلى حجرها طفلها.. فأجزلوا لها العطاء.. استيقظت فكرية وفوجئت بهذه الهبات المالية.. وقررت أن يكون هذا هو طريقها الجديد في الحياة.. وبعد أن كانت رأسها أصلب من الحديد وهي ترفض الخروج بالكلبة أكثر من مرة في الأسبوع.. أصبحت تفتعل المشاوير للخروج بها يوميًا.. ومرت الأيام بها جميلة وسخية، لكن يبدو أنها أصبحت تستخسر إعطاء الكلبة جرعات كبيرة وأعطتها جرعة صغيرة وطمعت في باقي الزجاجة.. لم تنل الكلبة كفايتها من النوم واستيقظت وسيدة عطوف تضع بعض النقود في حجر فكرية.. أزاحت الكلبة الطرحة وعقرت يد السيدة.. وحدثت فضيحة ومصيبة لفكرية التي أعلنت توبتها في قسم الشرطة عن التمشية بالكلاب وشرب الكودافين.

في مديح المانجو

كنا نسير صحبة لا تقل عن ثلاثة، ويلزق بنا في الغالب صبي لم يبلغ سن المدرسة بعد، هذا الصبي كان بمثابة خميرة العكننة التي تفسد يومنا، هو في العادة قريب أو جار لأحدنا يصحبنا بدافع الخدمة والتعلم، يحمل حقيبتنا التي بها "السبرتاية" والطاسة وأكواب الشاي والصنانير الإضافية وعجينة الصيد المكونة من الدقيق وحبات الثوم المهروسة التي تجذب رائحتها الأسماك، كنا نلتقي عقب صلاة الفجر حتى نلحق بالأسماك قبل أن يطردها الضجيج أو يلفحها شعاع الشمس فتفر إلى الأعماق، كانت الشوارع القليلة التي تفصلنا عن كورنيش النيل تشغي بالفيلات الصغيرة والقصور الضخمة المبنية حسب الطرز الأوروبية، وكانت لها حدائق عريضة خلف أسوارها الحديدية الضخمة تكاد تخفي بنية هذه الفيلات والقصور، وكانت أغلب الأشجار الملاصقة لهذه الأسوار هي أشجار مانجو متعددة الأصناف والأنواع، وعندما تطيب ثمرات هذه الأشجار تقع على الأرض الطينية بانتظار صاحب النصيب، وأحيانًا تندس بين أوراق الشجر اليابس الذي أهمل "الجنايني" رفعه وإجلاءه، وكنا قد اكتشفنا هذه الثمار الناضجة المتاحة ونحن في جولاتنا من وإلى النهر، وبدأنا بحذر نمد "بوصات" الصيد من خلال قضبان الحديد ونجذب هذه الثمار حتى تصبح في متناولنا، وإن كانت في مدى أبعد، كنا نجعل الصبي الصغير يشفط بطنه وندفعه من خلال قضبان الحديد حتى يدخل الحديقة ويخطف هذه الثمرات بسرعة ويعود، وفي الليالي العواقر الجافة حيث لا رياح ولا نسمات تهز الثمرات، حينما كانت عيوننا تتفحص التربة كلها طولاً وعرضًا ولا نجد شيئًا، نضطر للتحايل على رزقنا وعمل دوائر من السلك المجلفن، صرنا نضعها في قمة كل بوصة، ونعتلي القضبان الحديدية حتى نصل إلى أقرب الثمرات الناضجة، ونوجه البوصات تجاه أفرع الشجرة المحملة بالثمار ونحن ننتقي أقربها إلى اللون الأصفر المخلوط بالأحمر، ونضع الثمرة داخل دائرة السلك ثم نسقطها الواحدة تلو الأخرى، ويتلقفها الصبي المتسلل ويضعها داخل الكيس، ثم طورنا الفكرة واستغنينا عن دخول الصبي إلى حرم الحديقة، وقفزه على الورق الجاف

محدثًا أصواتًا توترنا، أحطنا دائرة السلك بقطعة قماش على هيئة كيس، وصرنا نسقط الثمرات بداخله بكل سهولة، وكان هذا انتصارًا وقتيًا فسرعان ما انتبه إلينا بوابو وحراس هذه الفيلات والقصور وبكروا في استيقاظهم ولبدوا لنا خلف الأشجار، ثم تسابقوا في العدو خلفنا بالعصي والشوم، كما أطلقت بعض هذه القصور كلابها المدربة في الحديقة فطاردنا نباحها العنيف وزمجرتها المخيفة حتى أجلونا عن الشوارع التي تطل عليها قصورهم، بعد هذه المطاردات المخيفة، حُرمنا من هذه المانجو المختلسة التي لم أذق في حياتي مثيلاً في روعة طعمها وطيب رائحتها، وصرنا نقلي ونأكل أسماك البساريا القليلة البائسة التي نصطادها دون تحلية، أحيانًا كنا نشتري الحرنكش أو الجميز ولكن طعم ما كنا نشتريه كان يختلف كلية عما كانت تهبه لنا السماء كما كان تصورنا آنذاك.

من سنوات قريبة كنت أذهب إلى عملي يوميًا، الذي كان بنفس المنطقة.. وكان العمل رسميًا إلى حد ما، وله تقاليد منها لبس البدلة الكاملة والكرافتة صيفًا وشتاءً.. وكانت أمام مقر العمل شجرة مانجو عملاقة.. في فترات الراحة كنت كثيرًا ما أخرج إلى البلكون، وأتأملها بعشق وأتابعها بداية من حبوب اللقاح التي يحملها الهواء إليها، ثم بدء تكوين الثمرات الصغيرة التي لا تتحمل عنف الرياح فتسقط بغزارة، حتى الثمار الخضراء التي نجحت في الصمود، كنت بالطابق الثالث، وكانت هناك ثمرة في مواجهتي قد بدأت خدودها تتلون وحجمها يكبر، كانت المسافة بيننا كبيرة تتعدى الأمتار العشرة.. ورغم ذلك ألمّ بي هاجس أن هذه الحبة بالذات من نصيبي، وصارت منذ تلك اللحظة شغلي الشاغل.. في الصباح الباكر قبل أن أعرج على شركتي أتأمل الأرض التي أمامها بحثًا عنها، ثم أصعد عينيّ فأجدها تزداد تألقًا.. وفي أثناء العمل كنت أخرج إلى البلكون كثيرًا لأملئ عيني منها، وعند المغادرة أتلكأ قليلاً في الشارع علها تقع، وظللت على هذا الحال أيامًا كثيرة والفكرة التي تملكتني نمت وكبرت وتحولت إلى شبه يقين..

وفي صباح يوم جديد وأنا على بضع خطوات من مقرعملي، توقفت ونظرت إلى أعلى وفوجئت بها تتخلص من حبلها السرى وتفلت هابطة إلى الأرض هبطة انخلع لها قلبي،

كان من خلفي صبي على دراجته بدا وكأنه يراقبني وقال بصوتٍ عالٍ "يابختك دي من نصيبك"، بينما الثمرة تتدحرج على الأرض حتى وصلت أسفل سيارة مركونة في الشارع، وكنت بصدد مقابلة مهمة في عملي، ولا ينفع مطلقًا وأنا ببدلتي الكاملة أن أهبط على ركبي وأدفس نصفي العلوي أسفل السيارة لكي أحضرها، استسلمت وبيأس أشرت إلى صبي الدراجة الذي كان بمحاذاتي وقلت له: انزل هاتها دي من نصيبك إنت...

كثيرًا ما أتامل هذه الحادثة وأحس بتأنيب الضمير لأني خذلت هذه الثمرة، وكلما تعثرت في عملي أحسست بأني السبب في هذا التعثر... كان ينبغي أن أقاوم وأحني جسدى لها وأبهدل ملابسي، وطظ في مليون مقابلة، فقد كانت نصيبي الذي تخليت عنه باختياري.

شيء لا "يسدكه عكل"

ما سأخبركم عنه في هذا المقال، هو نوع فريد من أنصاف وأرباع الموهوبين، لا يهتم بتنمية قدراته بقدر اهتمامه بالكيد والتربص بالمتحققين إلى أن ينفذ نحو بؤر الضوء، عرفت بعضهم جيدًا داخل الفاعليات والأمسيات والملتقيات الثقافية، التي يحرصون على التواجد فيها وإظهار أنفسهم للحاضرين، تراهم في الندوات يستمعون بصخب وعندما يحين وقت مشاركة الجمهور في الحوار، يسألون الضيوف اغرب الأسئلة وأعقدها التي لا يعتقد أحد أنها من الممكن أن تخرج من أناس أسوياء، ثم يبدأون في التعرف على الأماكن التي يلتقي فيها المثقفون، سواءً أكانت مقاه أو كافتريات أو خلافه، يشاهدونهم من بعيد ثم يجلسون على مقربة منهم، وكل فترة يقتربون مسافة حتى يجاوروهم وبعدها يصاحبوهم قبل أن يزاحموهم ثم يستأثرون بالمشهد كله في النهاية، بعدها تراهم يخرجون عليك من كل مكان.. من التلفاز والراديو والبوتاجاز وأحيانًا من خلال عوادم السيارات.

هم منتشرون في كل المهن ومتوغلون في المهن التي تتطلب قدرات إبداعية، وبصفة خاصة في مجال السياسة، فلديهم مهارة في استغلال الثغرات والفجوات الموجودة داخل هياكل ومؤسسات الدولة ليزيحوا الأكفأ ويحلوا محله، تعرفهم من سيماهم وآرائهم فأغلبهم سطحيون وانتهازيون، وبعضهم يمارس الادعاء والكذب حتى على مستوى الحكي الشفوي، ويحضرني في هذا قصة زميل من أعماق الريف، هبط إلى القاهرة لأول مرة في منتصف الثمانينيات، وعمل بإحدى الصحف، واستقر بمنطقة وسط البلد، وظل فترة طويلة يسمع حكايات ونوادر المخضرمين من الأدباء والشعراء الكبار، ثم تقمص أدوارهم في هذه الحكايات بعد رحيلهم، كما أضاف إليها من إبداعات خياله الخصب، وطَمَسَ الحقائق وزيف بعضها، ليكون دائمًا محورًا في كل حكاية، تجده يتكلم بحميمية عن صداقته بالكاتب الفذ يوسف إدريس، وكيف كان يتمشى مع عمنا نجيب محفوظ بالساعات، وعن مدى إعجاب الشاعر العبقري أمل دنقل بأشعاره، وقد ملتُ مرة على

صديق من المخضرمين وسألته عن صحة هذا الكلام، فابتسم وقال بثقة: طبعًا لأ.. فلان ده نزل وسط البلد وهي بتشطب.. وإحنا خلاص بننزل الباب الصاج بتاعها.. بس لحق نفسه وجري بسرعة ودخل من تحت الباب.. زى مابيعملوا في الأفلام.. ولما جينا نفتح الباب من تاني لقيناه واقف قدامنا وبيتكلم عننا!

وهناك عبقرية أجمد وأشد، تستحق أن تروى، شاب مصري بسيط، أنهى دراسته بالتعليم المتوسط، وكان هاويًا للفن التشكيلي، فاجتهد والتحق بكلية الفنون الجميلة ليدرس في فصول الصيف في الأقسام المخصصة لتنمية المهارات، وهذا شيء جميل في حد ذاته، لم يجد هذا الشاب فرصة في مصر فسافر إلى الخارج، واستقر بفرنسا وعمل في مهنة طلاء واجهات البنايات كالكثير من شباب العالم الثالث، ثم تعرف إلى فتاة فرنسية من أصول عربية هاوية أيضًا للفن التشكيلي، وتزوجا بعد قصة حب، كانت الفتاة للأسف معاقة في إحدى قدميها ومعينة في أحد "الجاليرهات" ومهدى إليها سيارة مجهزة من الحكومة الفرنسية، وبالزواج منها بدأت الأمور تزهزه أمام صديقنا، استغل الجاليري الذي تديره زوجته في استضافة فنانين مصريين وعرب مقيمين بفرنسا وعرض أعمالهم فيه، ثم تعرف إلى بعض المسئولين الكبار في الحكومة الفرنسية الذين سمحوا له باستغلال صالات عرض أخرى، وأصبح لديه القدرة على دعوة بعض الفنانين العرب لعرض أعمالهم في باريس، وأصبح يستقبلهم ويسوح بهم في ضواحي باريس مستخدمًا سيارة زوجته، وبدأ اسمه يدوي كالطبل، كل هذا مقبول ويمكن اعتباره طموحًا لابأس به، لكنه دخل في منطقة الكذب والادعاء، وأصبح يدعي أنه درس على أيدي كبار الفنانين، وأنه حصل على درجة الدكتوراه من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، وحدثت له مواقف مخزية بسبب هذا الكذب لكنه لم يتأثر واستمر، وساعده في ذلك صداقته لبعض رجال الصحافة المصريين والعرب الذين يديرون مكاتب صحفهم في باريس، وأصبحوا ينشرون بصفة دورية عن المعارض التي أقامها .والمتاحف العالمية التي بدأت تقتني أعماله، والمهرجانات التي عهدت إليه باختيار الفنانين التشكيليين الذين سيتم تكريمهم، من المكن اعتبار هذا أيضًا

في إطار الطموح المبالغ فيه، غير أنه في الفترة الأخيرة "منذ حوالي ٣ سنوات تقريبًا" بدأت الأمور تشتط في دماغه، وبالغ في أهمية نفسه، لدرجة أنه عقب فشل وزير الثقافة الأسبق فاروق حسني في رئاسة هيئة اليونسكو، بعد الحملة الضخمة التي كانت تدار في باريس للترويج له، كتب صديقنا هذا في عدة مطبوعات، أن السبب الرئيسي في فشل فاروق حسني، هو أنه لم يستعن به في هذه الحملة رغم علمه بأنه يعرف كل أزقة باريس وحواريها، ويعرفه كل مسئول فيها!

بعد ذلك ذهب صديقنا إلى طوكيو للاشتراك في "بينالي" طوكيو كما ادعى، ثم نشرت بعض الصحف العربية والمصرية خبر فوزه بالجائزة الأولى لبينالي طوكيو الذي شارك فيه أكبر الفنانين التشكيليين العالميين، عند عودته تندر بعض زملائه الفنانين وأكدوا أنه بالبحث والتقصي وجدوا أنه ليس هناك ما يسمى ببينالي طوكيو أصلاً، ما جعل صديقنا يضع في صدر معرضه الذي أقامه بمجرد عودته، براءة الجائزة المكتوبة باليابانية ومزخرفة بلون الذهب داخل برواز فخيم، لكن أصدقاءنا الفنانين المصريين كانوا أكثر خبثًا فقد اصطحبوا معهم عند زيارتهم المعرض شابًا يابانيًا ليترجم لهم الشهادة، ألقى الياباني نظرة عابرة على الشهادة وضحك وهو يخبرهم بأن حديقة حيوان طوكيو لديها تقليد تحرص عليه منذ سنوات، وهي أن تعطي لكل من يزور الحديقة هذه الشهادة.

شيء "لا يسدكه عكل" طبقًا للعبارة الشهيرة التي أطلقتها ممثلة الكوميديا شويكار في فيلم "شنبو في المصيدة".

صانع البهجة

انتقيت بعض كتب "أجاثا كريستي" ومختارات قصصية تضم أقوى وأعظم قصص الإثارة والجريمة، جمعها المخرج الشهير"ألفريد هيتشكوك" بنفسه، وحملت كل هذه الكتب إلى صديقي حسام، كنا آنذاك في يومنا الدراسي الأخير من مرحلتنا الإعدادية، وكنا قد اتفقنا خلال راحات الإمتحانات على تبادل القصص والمجلات بعد أن اكتشفنا أننا نتشارك في الهواية نفسها، وكنت أمني نفسي بأن أجد لديه مايستحق التبادل مع مجموعتي الأثيرة التي جمعتها بشق الأنفس، خاصة وقد ظل لشهور عدة يغريني بضخامة مكتبة والده بما تحتوي من كتب ومجلدات وموسوعات، وكذلك بالركن الخاص الذي خصصه والده لكتبه، لم يكن ببيتنا مكتبة من الأساس، وكانت كتبي وقصصي ومجلاتي موضوعة في كرتونة مهملة أسفل السرير، وبسببها كنت أنال لومًا وتقريعًا عندما يحين موعد مسح غرفتي، ولما عبرت الصالة الكبيرة لشقة حسام لم أعبأ بالتحف والنجف والمفروشات، لكن أذهلني حجم المكتبة الضخم، ومضت عيناي تتسكعان على أغلفة الكتب، واستقرتا على الركن الذي يشير عصام إليه وهو يقول بزهو: هذا ركني، ثم أصابني الكدر من بؤس هذا الركن، ورغمًا عني تصفحت أغلب الكتب الموجودة به ولم يثر اهتمامي كتاب واحد، كلها كتب جافة عن التربية والعلوم للناشئين، يبدو أن والده اختارها له بنفسه، إحباطي ويأسي ظهر على وجهي جليًا مما دفع بحسام إلى جذب درج سفلي من المكتبة، وأخرج مخبوءاته وكنوزه ظنًا منه أنه سيستعيد بسمتي ورضائي، قلبت بيدي مجموعات المجلات المصورة الهزيلة التي كنت أمتلك أكثر منها، ثم أعدتها بإهمال إلى الدرج، وقررت في لحظة غيظ طفولي أن أعود أدراجي حاملاً كتبي، لكنه برجاء وتوسل استبقاني وظل يطيب خاطري كثيرًا، ثم تأسف لي بنبل وقال إنه لن يسمح لنفسه بأخذ كتبي طالما لم يعجبني شيء من مكتبته، تراجعت بسرعة عن تهديدي بالرحيل وطلبت منه أن أتصفح كتب والده التي تملأ المكتبة، جذب حسام كرسيًا بسرعة وجعلني أصعد عليه، كانت عيناي تجوبان المكتبة صعودًا وهبوطًا، ثم توقفتا فجأة على ورقة صغيرة موضوعة على مجموعات كبيرة

من الكتب تحمل اسم نجيب محفوظ، كنت قد سمعت بالاسم أكثر من مرة من زملائي عندما كانوا يعلقون على بعض الأفلام التي تعرض بالتليفزيون، ويقولون عن الجميل منها بأنها من قصص نجيب محفوظ أو هو كاتب الفيلم، نجحت في جذب كتاب من وسط المجموعة حتى أتعرف على هذا الرجل، وسمح لي حسام باستعارة الكتاب بعد أن وضع أمامي شروطًا تعجيزية، منها أن أعيده بنفس حالته دون خدش أو تمزيق أو كتابة على صفحاته، وخلال الزمن المتفق عليه، وأن أترك كل ما حملته معي من كتب مقابل الخروج بهذا الكتاب، قبلت الشروط كلها وخرجت راضيًا من عنده وأنا لا أدري لماذا رضخت؟ وانكببت على قراءة هذا الكتاب بلا اهتمام جدي في أول الأمر، لكن سرعان ما جذبتني صفحات الرواية كاشفة لي عن عالم مسحور كنت أجهله تمامًا.. كانت "خان الخليلي" هي الرواية التي نقلتني من خانة القارئ الصغير المتابع لتفاصيل الجرائم والمغامرات وذكاء المحققين وبسالة رجال الشرطة إلى خانة القارئ المستمتع بالعالم الواقعي والمتحد مع مصائر الأبطال الحقيقيين الذين يقرأ عنهم.

ومن تلك اللحظة صرت زبونًا دائمًا عند صديقي حسام، أستعير منه روايات نجيب محفوظ بشروط تعجيزية كانت تزداد شراسة كل مرة، مثل أن أهب له علبة سجائر بعد أن صار مدخنًا، أو أن أطارد دخان سجائره بالبشكير داخل حمامه بعد أن يفرغ من سجارته حتى لا يشك أهله ويشتبهون فيه.

تلك اللحظة المدهشة، لحظة اكتشاف أدب نجيب محفوظ هي التي ساهمت بشدة في تحويل وجهتي تجاه الأدب، صرت أحبه وأنتمي له وأتمنى أن أصير كاتبًا متميزًا مثله، عندما رغبت في دراسة السيناريو السينمائي، كانت أعمال نجيب محفوظ هي زادي، فإذا ما أردت كتابة مشهد سريع، فتحت أية رواية لنجيب محفوظ وحولت الصفحة التي تقابلني إلى صورة سينمائية بيسر شديد، فدائمًا ستجد أمامك وصفًا دقيقًا وشخصيات مرسومة بحرفية عالية وحوار دال، الكلاسيكية ستجدها متوفرة بشدة وكذلك الغرائبية والفلسفية وحتى الحداثية، كما أن أية دراسة لأعمال نجيب محفوظ السينمائية ستضعك

أمام "مانفيستو" مدهش، فهو لم يكتب أي سيناريو لقصصه أو رواياته قط، وكان يدع كتاب السيناريو الذين يتعاملون مع أعماله ونصوصه يتعاملون مع هذه النصوص بحرية شديدة ولا يتدخل مطلقًا في عملهم، ويكتفي بمقولته الشهيرة: أنا مسئول عن رواياتي فقط أما الأعمال السينمائية المأخوذة منها فهي من إبداع كتاب السيناريو، ومن عظمته أنه لم ينكر مطلقًا فضل المخرج صلاح أبو سيف عليه حينما علمه كتابة السيناريو وكان يفاخر بذلك في كل حواراته مع وسائل الإعلام، ومن تواضعه أنه كان يعدل بعض السيناريوهات التي يرسلها له صديقه المنتج رمسيس نجيب أو يقترح تعديلات لكنه لم يكن يشترط وضع اسمه على هذه السيناريوهات حفاظًا على الملكية الفكرية للسيناريست الأصلي، وكان قنوعًا – إلى درجة الغيظ – عند التعامل مع المنتجين يقبل أقل أجر عن قصصه العظيمة وأحيانًا يقبض جزءًا ضئيلاً من هذا الأجر الهزيل ثم لا يطالب بباقي مستحقاته، مما كان يسبب لصغار المؤلفين حرجًا شديدًا عندما كانوا يطالبون المنتجين بسعر مناسب للقصة، ويواجهون من قبل هؤلاء المنتجين بمقولة شهيرة: إنت حتطلب فلوس أكتر من نجيب محفوظ.

لقد كتبت سيناريو وحوارًا لقصتين من قصص الأستاذ نجيب محفوظ هما "الغرفة رقم ١٢" و" الزيارة" وقد أنتجهما التليفزيون المصري في فيلمين روائيين قصيرين من إخراج المخرج عز الدين سعيد، وأعتقد أن معرفتي برأي الأستاذ في ضرورة الفصل بين العمل الأدبي والعمل السينمائي، هو الذي جعلني أتحرك بحرية شديدة بإضافة وحذف بعض الشخصيات واللعب في الزمن وتحميل النص بعض الآراء والمفاهيم عن الحرية. وسعدت جدًا عندما علمت بإعجاب الأستاذ بفيلم الغرفة رقم ١٢ عندما شاهده، وأسفت بشدة لوفاته قبيل مشاهدة فيلم الزيارة.

نجيب محفوظ ليس رائدًا لفن الرواية فقط، فهو أيضًا رائد حقيقي لفن كتابة السيناريو. فتحية له يوم ميلاده ويوم رحيله ويوم تتويجه، وتحية لإبداعه العظيم.

في حضرة العميد

مُدرستي في المدرسة الابتدائية "أبلة فردوس" هي أول من قادني إلى عالم الحكي، فقد كانت تخصص حصص المطالعة للحكايات والقصص، بمجرد بدء الحصة كان الفراش يدخل علينا حاملاً كومة من القصص الملونة – والمرسومة بإتقان لكبار الفنانين أمثال بيكار – من مكتبة المدرسة حسب الكشف الذي أعطته له "أبلة فردوس" وكانت أغلب هذه القصص من تأليف أو ترجمة الأستاذ كامل كيلاني "رائد أدب الاطفال"، وكان على بعضها توقيعه بخط اليد، فقد كانت مهداة منه شخصيًا إلى مكتبة المدرسة، لأن ابنته كانت زميلة لنا في المدرسة، وكانت أبلة فردوس تختار أحدًا منا ليقرأ من هذه القصص، وتظل تصحح له القراءة وتفسر ما صعب علينا فهمه حتى ينتهي، ثم استقرت على زميلة لنا صوتها معبر وقليلة الأخطاء لتروي لنا هذه القصص التي كنا نتابعها بانبهار. كانت هذه الزميلة أيضًا من أبناء المشاهير فهي ابنة المطرب الكبير عبده السروجي المعروف بأغنية "غريب الدار".

القصص التي كانت تروى علينا ولازالت عالقة بذهني مثل "عقلة الإصبع" و"السندباد البحري" و"الأميرة النائمة" كانت شبيهة بما تحكيه الجدات من حواديت، لكنها كانت أكثر إحكامًا وتزيدها الرسوم تجسيدًا، بعد ذلك انتقلنا خطوة إلى القصص التي كانت مقررة علينا في المنهج، مثل قصة "بين الأدغال" لجاذبية صدقي بمغامراتها الشيقة، وصولاً إلى قصة "نداء المجهول" للأستاذ محمود تيمور المكتوبة بأسلوب رومانسي بديع، وتحكي عن مجموعة من الرجال اكتشفوا قلعة في مكان لا تطأه الأقدام، وهذه القلعة تعيش فيها فتاة بمفردها، أُعجب بها أحدهم فقرر ألا يكمل رحلة العودة مع رفاقه، بعد أن وقع أسير نداء بأن يعود، ليكمل حياته معها، تاركًا أعماله وحياته في موطنه ملبيًا نداء المجهول.

طيلة المرحلة الابتدائية كنت أتعامل مع هذه القصص والحكايات على أنها أساطير لم تحدث، ولكن أبدعتها أخيلة المؤلفين، إلى أن وجدت ضمن المنهج في المرحلة الإعدادية كتاب الأيام للدكتور طه حسين، استثقلت ظله في بداية الأمر، وكنت أتعامل معه كما أتعامل مع بعض المقررات السمجة، قبل بداية حصة القراءة مباشرة، أضع خطوطًا تحت الفصول التي طلب منا المدرس قراءتها، حتى إذا باغتني المدرس – وكثيرًا ما كان يفعل ذلك – وفحص الكتاب، وجد ما يدل على أني طالعته، وعلّمت بالخط أسفل العبارات التي أعجبتني، فعلت ذلك في حصة أو حصتين، ثم بدأت أستمع إلى بعض فصول الكتاب، يقرأها بعض الزملاء الذين اختارهم المدرس للقراءة، فلفت سمعي جرس الكلمات ودقة الوصف، وكان أول شيء فعلته فور دخولي البيت في ذلك اليوم، هو قراءة ما تيسر من هذا الكتاب منتقلاً بعيني ما بين متن الكتاب وهامشه لكي أدرك المعنى، وفي خلال أسبوع واحد كنت قد أنهيته سابقًا زملائي ومتجاوزًا ما حدده المدرس، كان شيئًا فاتنًا جدًا أن أجد كاتبًا يكتب عما يعيشه ويحسه، عن آلامه وأوجاعه، عما سببه له الجهل من بلوى كبرى وهي إصابته بالعمى، عن إحساسه بالعجز والإهمال، ثم عن تمرده على كل ذلك ومثابرته حتى دخل الأزهر دارسًا للفقه والشرع، ومستزيدًا من العلوم العربية، حتى نال الشهادة التي تخوله التخصص في جامعة الأزهر، ثم شكواه من رتابة هذه الدراسة وعقم المنهج وعدم تطور الأساتذة والشيوخ وطرق وأساليب التدريس، مما جعله من أول المنتسبين إلى الجامعة المصرية عندما فتحت أبوابها عام ١٩٠٨.

كتاب الأيام بجزئيه وكتاب على هامش السيرة الذي درسناه أيضًا في تلك المرحلة، كانا بوابة دخولي إلى عالم القراءة لكتب من خارج المنهج، وسيرة هذا العملاق، كانت دافعًا لي – في فترات كثيرة – للتخلص من الإحباط واليأس أثناء مسيرتي الأدبية، كنت أجده شاخصًا في ذهني، طفل كف بصره ولم يبلغ الرابعة من عمره، من عائلة بسيطة من إحدى قرى الصعيد، هو السابع وسط إخوته الثلاثة عشر، ورغم ذلك تعلم وعلّم وصار عَلَمًا كبيرًا في الشرق والغرب، وأطلق عليه لقب يستحقه وهو "عميد الأدب العربي"، له

عشرون كتابًا من عيون الإبداع العربي في الأدب والدين والسياسة والثقافة، وله دوره السياسي والتنويري، ليس بداخل مصر فقط، بل وفي كل أرجاء الوطن العربي، قال عنه العملاق الثاني "عباس محمود العقاد" إنه رجل جريء العقل، مفطور على المناظرة، والتحدي، رشحته الحكومة المصرية مرتين لنيل جائزة نوبل ولم يحصل عليها، وفي ظني أن جائزة نوبل، فقدت الكثير بسبب ذلك، فوجوده بقائمة أية جائزة شرف للجائزة وصك يمنحها المصداقية.

توفي الراحل العظيم طه حسين في يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ – في مثل هذا اليوم – أثناء حرب أكتوبر، وللأسف لم ينتبه كثيرون لوفاته، من هول الأحداث التي كانت تجري آنذاك، فتحية كبرى لروحه النبيلة، ولما أسهم به من إبداع في سبيل تنوير هذه الأمة.

فرحة ما تمت..

الزواج قسمة ونصيب والطلاق كذلك، ونعمة الله التي أجهدها وأسقمها عدم التوافق في العلاقة الزوجية، وعدم التوفيق في صحة اختيارها، رأت أن تضحي بكل غال ورخيص في سبيل التحرر من علاقة – في رأيها – لن تستقيم مطلقًا، وبدلاً من انتظار مريع قد يمتد لسنوات خمس حتى تنتهي إجراءات الطلاق بطرق التقاضي الاعتيادية، طلبت الخلع من زوجها بناء على قانون الخلع الجديد، وتيسر لها ذلك ونجحت بعد عامين في الحصول على الخلع، لكنها خرجت من هذه الزيجة يا مولاي كما خلقتني. ثم تبسم الحظ لنعمة الله مرة أخرى ووجدت ابن الحلال الذي رضا بها ورضت به، وتمنت من الله أن يعوضها بهذه الزيجة شقاء الزيجة السابقة، ومن تلك اللحظة مضت الأمور بكل سلاسة، وجدا شقة الزوجية المناسبة واتفقا على كل تفاصيل الأثاث، أما من جهة الصداق والمقدم والمؤخر والشبكة فتم الاتفاق فيها كما تقتضي الأصول.

نامت نعمة الله لأول مرة منذ سنوات طوال راضية، وكيف لا؟.. وقد كانت حتى في أجمل أحلامها المتفائلة المتطلعة ترى نفسها.. مجرد عروس ترتدي "فستانًا جديدًا" وسط حفل صغير يضم الأقارب والأصدقاء وبجوارها عريس– أي عريس – بينما الآن يرغبها عريس طيب ومقتدر، ويصر على الإعلان عن زواجهما من خلال عرس كبير، وأن تصاحبهما زفة أكبر، كما صمم على ارتدائها "فستان فرح" معلنًا أنه سيقوم بشرائه ولن يسمح لها بتأجيره..

كان العريس على عجلة من أمره فأجازته بمصر أوشكت على الانتهاء، ولابد أن يتم زفافه بسرعة حتى يعود إلى عمله بالخليج، ثم تستكمل نعمة الله أوراقها على عجل وتلحق به في الغربة.. خطت نعمة الله وعريسها عتبات مكتب المأذون باعتبارها عتبات البهجة كاسم رواية صديقي الروائي الجميل إبراهيم عبد المجيد.. بعد أول رشفة من كوب

الليمون أخبرهما المأذون بضرورة تقديم شهادة صحية للزوجين، وقال لهما بأنها تستخرج مجانًا من مكاتب وزارة الصحة بعد أخذ عينة دم من الطرفين وتسلم بعد أربعة أيام.

بان الضيق على وجه العريس ولمحه المأذون بمهارة فتبسم وهو يقول: ما تقلقش ممكن تسيب اسمك واسم العروس وأحضرهالك في نفس اليوم وبدون عينة الدم بس تدفع مائة جنيه.. وافق العريس بسرعة وتبسمت نعمة الله بعد أن انخلع قلبها، وفرد المأذون دفتره وبدأ يسأل ويدون الإجابات بروتينية، إلى أن سمع منها أنها خلعت زوجها، هنا انتفض وهب وثار وقال بهياج: إن الخلع ليس طلاقًا على الإطلاق وأنا لا أعترف به، اعترضت منة الله وقالت محتجة: لكن الدولة تعترف به، قال المأذون بحسم: الدولة تعترف به أو ترفضه لا يعنيني ذلك.. هذا مخالف للشرع، إذا أردتِ أن أعقد عليك مرة أخرى فهاتي شهودًا لا يقلون عن اثنين يشهدون أنه تم طلاقك طلقة شرعية، حاولت نعمة الله أن تشرح له الأمر مرة ثانية لكنه قاطعها وقال بحسم: أحذرك أنتِ مازلتِ في ذمة زوجك والزواج مرة ثانية معناه أنك تجمعين بين زوجين فاتقي الله، ثم أزاح المائة جنيه من فوق الطاولة وأغلق دفتره مشيرًا لهما بالانصراف..

حدث هذا فعلاً وكادت زيجة نعمة الله الثانية ألا تتم لولا أن صديقة لها دلتها على مكتب مأذون آخر عقد لها القران..

ما لفت نظري في هذه الحكاية هو أن المأذون قبل أن يأخذ رشوة لتسهيل حصولها على الشهادة الصحية، وهذا مخالف لصحيح الدين، ورفض أن يزوجهما متحديًا القانون بناءً على اجتهاد منه، وبما أن من المعلوم أن الذي يقر الزواج هو قاضٍ وليس المأذون الذي هو في حقيقة الأمر موثق عقود، ومجرد شخص يقوم بالإجراءات الشرعية مفوضًا من القاضي رئيس الدائرة الشرعية بالمحكمة، إذن هم أقرب إلى موظفين بوزارة العدل جل عملهم القيام بالإجراءات التي يحددها القانون وملء قسائم الزواج والتأكد من خلو المتقدمين من الموانع الشرعية للزواج.. وفي رأيي أن هذا المأذون أخطأ ويجب أن يجازى

لأنه خلط بين إجراءات القانون والفتوى وأنه برفضه إتمام هذه الزيجة أعاق الخدمات العامة للجمهور، ويجب التشديد على هذه المكاتب بالاقتصار في عملها على أداء الواجب المنوط بها حتى لا تنتقل هذه الأفكار من مكتب لآخر ونفاجأ بكارثة لا تحتمل..

قد يرد أحدهم بأن قانون الخلع ليس شرعيًا، وللعلم أنا لا افتي بصحته من عدمه، وكون أن هذا القانون محل جدل في البرلمان الآن لا يعني أن نترك الحبل على الغارب.. إنه قانون مطبق حتى هذه اللحظة واستفادت منه آلاف الحالات ولم يتقرر إلغاؤه.. لذا لا يجوز التشكيك فيه أو العمل بخلافه حتى يتغير، أو يحسم الرأي فيه ويجب الدعوة إلى معاقبة الموظفين العموميين إذا ما قرروا الافتئات على قرارات الدولة أو الالتفاف حولها، فهيبة الدولة هي هيبتنا جميعًا فاتقوا الله فينا.

عابرون فوق جسر من محبة

ملصقات تملأ الجدران ولافتات معلقة على الأشجار، وباصات مكدسة بالركاب المتحمسين تمرق سريعًا بينما سماعات الميكروفونات الموضوعة في مقدمتها تدوي بأغانٍ حماسية تتخللها دعايات انتخابية لمرشح من الدائرة، رياح باردة شديدة تهز بإصرار بعض هذه الملصقات واللافتات، تصمد فروع الأشجار بينما تقع اللوحة المزينة بصورة المرشح على وجهها في التراب، يرفعها أحد أولاد البلد وينظف وجهها بكم قميصه، ثم ينتبه لصورة المرشح الملقب بالوحش فتنبض جيناته الساخرة وهو يقول بأعلى الصوت: وقع الوحش، يضحك العابرون والجالسون على المقاهي من المفارقة، ثم يعاودون ترقب قوافل المرشحين التي ستأتي إلى المقهى لأول مرة وبعد نجاحهم أو فشلهم سيختفون "فص ملح وذاب".

هذا هو حال منطقة وسط البلد حاليًا، وأعتقد أنه حال يتطابق في كل بقعة من أرضنا المحروسة، غير أن التوأمين "وجيه ورؤوف" سيكونان جالسين في نفس مكانهما المعتاد، في مواجهة محل التحف الذي يعملان به، على كرسيين من البلاستيك الأزرق، وبيد كل منهما جهاز راديو صغير (مضبوط على نفس المحطة ويبث نفس الأغاني) أصابع اليد اليمنى لهما ستجدها تدق دقات خفيفة على الكرسي بتوافق مع إيقاع الأغنية، واليد اليسرى بكاملها تسند الراديو إلى الأذن، ستجدهما متطابقان تمامًا رغم أن كلاً منهما في ملكوته الخاص، عيون تراقب ببلادة بوابة المحل ورأسان يتحركان طربًا، ملابسهما دائمًا متماثلة مع تغيير طفيف في الألوان، وملامحهما وتفاصيل جسديهما يكادان يكونان نسخة واحدة، وجه الأخ الأكبر وجيه يبدو أحيانًا صارمًا عن وجه الأصغر رؤوف، الفاصل الزمني بين عمريهما خمس دقائق، لن تستطيع التفرقة بينهما بسهولة حتى لو كنت تعرفهما منذ سنوات، لكنهما أراحانا عندما أصرا على وضع "كاب" فوق الرأس، صحيح أن الكابات من نفس اللون والخامات، إلا ان الكاب الذي يضعه وجيه فوق رأسه عليه رقم "٩" بينما

كاب رؤوف بغير أرقام، من أجمل صباحات الأيام التي قد تقابلك في حياتك، عندما ستصادفهما قادمين يتسندان على بعضهما البعض، وهما في طريقهما إلى العمل، ابتسامتهما جميلة وطريقة مشيهما أخاذة، وطريقتهما في التودد إلى الناس الذين يمرون بهما غير مسبوقة، سيلفت نظرك أنهما يتوقفان كثيرًا أمام المحلات التي يعرفانها ليسلما على أصحابها ومديريها، أحدهما يبدأ بالسلام والثاني يكرره كأنه صدى صوت، يخطئان غالبًا في أسماء الأشخاص، والناس تبتسم ولا تعلق، يربتان على الرؤوس والأجساد الجالسة كأنهما يمنحان البركة، يكملان سيرهما بعد أن خلفا وراءهما فيضًا من الطاقة الإيجابية، لو تبسم لك الحظ وجالستهما، ستسمع قصصًا مدهشة عن تفاصيل عملهما الحكومي في وزارة الزراعة، وعن عملهما الإضافي في معهد الموسيقى العربية، مسئولان عن حفظ وتخزين الآلات الموسيقية، وكيف تعلما عزف آلة الكمان واشتراكهما بها في الأفراح والملاهي لمدة بسيطة، بعد أن أحبطهما الجو العام هناك، هما لا يعرفان عن الواقع السياسي شيئًا، دائمًا يخلطان الأمور، يهمسان لك بخوف "جمال عبد الناصر فتح الكوبري وأغرق الطلبة" وأن البوليس السياسي يضايقهما أثناء مرورهما باللجان، وأن الحكومة جيدة وربنا يخليها لنا لأنها تزيد لهما المعاش كل فترة.

في صباح يوم ٢٨ يناير الفائت، رأيتهما ينظفان الأرض قبالة المحل، غير مهتمين بالتحركات التي تحدث بجوارهما، ثم اتجها إلى مسجد الرحمن لأداء صلاة الجمعة، وبدأت أحداث الثورة، وفي غضون ساعات قليلة تبدلت أحوال وسط البلد، امتلأ جوها بالروائح النفاذة للقنابل المسيلة للدموع ومخلفات كيروسين قنابل المولوتوف وبالدخان، وفر اليمام والعصافير متخليًا عن أعشاشه بأعالي الشجر، واختلط صراخ الفزع بسارينات الشرطة والإسعاف والسيارات الخاصة التي تلتمس طريقًا للنجاة، وعلى الأرض كانت الأوضاع أكثر عشوائية، جحافل من بشر تكر وتفر في اتجاهات مختلفة، وأجساد تنهار وتتساقط، وقافلة من كلاب تضم أكثر من عشرين كلبًا واقفة في إحدى الزوايا تنتفض في

جنون، وكلما هم قائدها بالتحرك قابلته جماعات بشرية تهرول في اتجاهه فاستدار وخبأ رأسه بين قطيعه كأنه يعلن استسلامه أمامهم وتخليه عن القيادة.

بعدها بأيام قليلة انقسمت منطقة وسط البلد إلى دوائر شتى، دائرة تبدأ من ميدان عابدين حتى ميدان باب اللوق يسيطر عليها البلطجية، ودائرة أخرى من ماسبيرو حتى ميدان طلعت حرب يهيمن عليها نفس الفصيل، وشوارع جانبية يقف على رأسها الخرتية "من يقدمون إلى السائحين كافة الخدمات المشروعة وغير المشروعة بالعملة الصعبة" وكل هؤلاء مدججين بالأسلحة وزجاجات المولوتوف ومتأهبين للشر، حتى نصل إلى مناطق قليلة آمنة يحرسها الثوار، النهار بكامله في وسط البلد كان ساحة للمعارك، وفي الليل هدنات قصيرة تنتهك أحيانًا عند سقوط زجاجات المولوتوف من فوق الأسطح على الأرض، أما في الصباح الباكر فإعادة تجميع للقوى وشحذ الهمم ووضع الخطط، وطابور طويل يمتد من باب الدورة العمومية بباب اللوق حتى تقاطع شارع طلعت حرب، الثوار والبلطجية معًا واقفون في الطابور في انتظار قضاء حاجتهم، لا اشتباك ولا تحرش ولا تلاسن بالألفاظ المؤذية، فقط نظرات متبادلة لتقييم القوى، لو تأملتهم قليلاً لن تصدق مطلقًا أن هؤلاء المتعبين المنهكين بعد قليل سيدخلون في مواجهات دامية.

وجيه ورؤوف اللذان يمشيان معًا وأقل حصوة بالطريق تستطيع إسقاطهما أرضًا، ماذا سيفعلان وسط هذه المعارك الضارية؟ كان مصيرهما يقلقني جدًا أثناء وقائع الثورة، وكنت أبحث عنهما كثيرًا، مثلما كنت أبحث عن هذه السيدة المسنة النحيلة التي تمشي باعتدال وكبرياء، ملابسها نظيفة لكن من الطراز القديم، ماتزال ترتدي الجيب والتايير التقليدي "موديل السبعينيات" وتضع فوق بشرة وجهها النحاسية بودر أبيض ثقيل يتخلل التجاعيد، كانت تأتي إلى المقهى مرة أو مرتين في الأسبوع، تمنح مدير المقهى بسمة محايدة وهي واقفة بأدب، يومئ لها المدير برأسه بما معناه أنه موافق على استخدامها هاتف المقهى، بأصابعها النحيلة تتصل برقم محدد أكثر من مرة وغالبًا لا تتلقى الرد، تقول للمدير – رغم أنه لم يسألها – إن صديقتها نائمة وإنها لا يمكن أن تتجاهل

مكالمتها، تغادر المقهى ثم تعود بعد ساعة، ثم بعد ساعة أخرى حتى ينتهي النهار، ويتكرر الأمر في اليوم التالي حتى ترد عليها صديقتها، حينئذ تتهلل أساريرها ويظلان يتكلمان باللغة الفرنسية لأكثر من نصف ساعة، ثم تغادر المقهى تكاد تطير فرحًا، وتمر بعض الأيام ونراهما قادمتين من بعيد، السيدة الأخرى في نفس قامتها وعمرها، لكن زيها مختلف جدًا فهو أكثر أناقة وفخامة، كما أن الأصول الأرستقراطية ظاهرة بقوة على جلستها ومشيتها وحركتها، يجلسان بداخل المقهى في الركن البعيد القصي وهما يتحدثان بحميمية وحنو، وفي نهاية الجلسة تقدم الضيفة إلى صديقتها شنطة بلاستيكية شفافة تبين منها علبة جبن كرتونية وعبوة مربى وبعض عبوات البسكويت والعصائر، عندما ترفض الصديقة هذه الهبة تحتضنها الضيفة وتربت شعرها فتلين وتأخذها، ثم ينهضان معًا ويسيران سويًا.

كما افتقدت التوأمين أثناء الثورة، افتقدت هذه السيدة وقلقت على مصائرهم جميعًا، فهم من سكان وسط البلد ومن قلب الحدث، لكني رأيتهم مؤخرًا سالمين ويتصرفون بنفس الأداء، كأن عناية الرحمن كانت تبسط عليهم رحمتها وتؤازرهم وتنأى بهم عن الأخطار، كأنهم كانوا يعبرون فوق جسر من محبة، حفظهم لبساطتهم ووداعتهم واستسلامهم التام لمصيرهم المكتوب.

قم للمعلم...

كنا تلاميذًا في مدراس حكومية، أيام كان الالتحاق بمدرسة خاصة ذات مصروفات، علامة على الفشل والبلادة، وكان الملتحقون بهذه المدراس يتوارون كأنهم مرتكبو آثام عظيمة، يتسللون عند صعودهم "الباصات" التي ستقلهم إلى مدارسهم، ويندفعون تجاه بوابات منازلهم عند "المرواح"، لا تكاد تلمحهم بأزيائهم الغالية ذات اللون الأخضر أو الأزرق أو الأحمر طبقًا لتقاليد مدارسهم، بينما نحن نتهادى في الشوارع قبيل الدخول وبعد الخروج من المدرسة، بـ"مرايلنا" الصفراء الكالحة وحقائبنا اليدوية المحاكة من قماش سميك كالدمور أو شراع المراكب، نتقاذف الدُوم بأقدامنا أو كرات البنج بنج أو كرات التنس، ولا نعتمد في مذاكرتنا إلا على كتاب المدرسة، ونقول بفخر: لقد حللت المسألة الرياضية طبقًا لكتاب الوزارة، الكتب الخارجية كانت للبلداء والذين يدرسون بالمدارس الخاصة، وطبعًا لم نكن نعرف شيئًا اسمه "مدرس خصوصي"، ولا كنا نأخذ دورسًا خصوصية في البيت فلا المدرسين يقبلون أن يفعلوا ذلك خوفًا من خرق القانون وتلقي عقابه، أو إرضاءً لضمائرهم – الله أعلم – ولا الأهالي سيسمحون لنا بذلك لعدم قدرتهم على تحمل هذه التكلفة الإضافية، ولأن هذا ببساطة معناه أننا كنا نلعب وغير منتبهين إلى المدرس أثناء الحصة، حتى عندما زادت الشكاوي من ظاهرة تكدس التلاميذ في الفصول التي تجعل بعض التلاميذ غير منتبهين لشرح المدرسين، قررت الوزارة السماح بعمل فصول تقوية بالمدارس تحت إشراف ناظر أو مدير المدرسة، كنا نعيب أيضًا على من يلتحق بهذه الفصول ونعده من البلداء.

كان للمدرس هيبة ووقار، نتنحى عن الطريق عندما نقابله وجهًا لوجه ونفر إلى سكة أخرى إذا ما لمحنا ظهره، كلامه عند أولياء الأمور مصدق حتى لو قال عنا ما يخالف الحقيقة، مجرد استدعاء المدرسة لولي الأمر، معناه أن هذا التلميذ سيمر بيوم وليلة أسود من قرن الخروب حتى يذهب ولي الأمر إلى المدرسة وتنجلي الأمور، خبر القبض على مدرس

يعطي درسًا خصوصيًا كان وقعه على الناس أشد من وقع القبض على قاتل أو تاجر مخدرات.. أذكر أننا خرجنا من المدرسة متأخرين بعض الوقت لأننا لعبنا الكرة في حوش المدرسة، بمجرد خروجنا من المدرسة وجدنا مديرة المدرسة تسبقنا في الطريق ببضع خطوات، اضطررنا للتقهقر حتى لا ترانا وتلومنا على "مرايلنا" المتسخة أو أحذيتنا المتربة، المفكوكة الأربطة، كانت تمشي ببطء ونحن غير قادرين على السيطرة على حركتنا الدؤوب، والعبور إلى الضفة الأخرى من الشارع، مغامرة كبرى في مثل هذا الوقت الذي تتدفق فيه السيارات بكثافة، ومن غير المعقول الالتفاف إلى الخلف والسير مسافة طويلة جدًا حتى نجد شارعًا جانبيًا ندخل فيه، ولحسن حظنا وجدناها تتوقف قليلاً أمام محل فاكهة كان في منتصف المسافة، كانت الأقفاص متراصة على جانبيّ المحل وهي تنظر بإمعان إلى الفاكهة، لمحها الفاكهاني من داخل محله فخرج إليها، استغللنا هذه الفرصة وتسللنا من خلف ظهرها بينما كانت تشير بإصبعها إلى قفص التفاح، اختفينا في الشوارع الجانبية لكننا لم نكف عن السخرية والتندر من شرائها للتفاح، فرغم أن مدرستنا في حي يعتبر من الأحياء الأرستقراطية نوعًا ما، ويسكن به كثير من الأجانب وأبناء الطبقة الراقية، وطبيعي جدًا أن يعرض هذا الفاكهاني التفاح المستورد اللبناني أو الأمريكاني ضمن معروضاته، وأن يقبل بعض الناس على شرائه رغم ثمنه الفاحش (كان سعر كيلو التفاح المكتوب على ورقة كرتون صغيرة فوقه يعادل ثمن عشرة كيلو برتقال او يوسفي او حتى فراولة) لكننا كنا نستبعد أن أحدًا قريبًا منا – ولو حتى على مسافة كمديرة المدرسة – يدفع هذا المبلغ الكبير من أجل شراء كيلو من التفاح، هذه التندرات الخفيفة التي تداولها خمسة تلاميذ في خلال ثلاثة أيام فقط، انتشرت بين تلاميذ ومدرسين المدرسة كلها ووصلت إلى المديرة.. وتخيلوا ماذا فعلت؟

في صباح اليوم التالي وعقب تحية العلم وبينما نحن نصطف للصعود إلى فصولنا، أمسكت بالميكرفون وطلبت منا الإنصات، ثم ذكرت الواقعة بالتفصيل: (أن بعض التلاميذ شاهدوها أثناء شرائها التفاح من محل قريب من المدرسة، وأنها فعلاً فعلت

ذلك، ليس رغبة منها في تقليد الأثرياء ولكن لأن ابنها إبراهيم – وهو تلميذ أيضًا بالمدرسة –كان مريضًا منذ عشرة أيام، والطبيب أمره أن يأكل تفاحة كل يوم حتى يبرأ من مرضه)، ثم رفعت في وجوهنا دفتر الحضور والغياب وفتحت صفحاته بصعوبة لكي تثبت لنا أن ابنها إبراهيم كان في إجازة مرضية، طبعًا لم نر شيئًا عبر تلك المسافة الكبيرة، لكننا صفقنا بحرارة خلف مدرس الألعاب الرياضية تحية لها.

هذا كان سلوك التلاميذ والمدرسين زمان، لذا تدهشني جدًا جرأة مدرسي هذه الأيام على الجهر بمخالفة القانون وهم يعلنون على الحوائط استعدادهم لإعطاء دروس خصوصية ويذكرون أرقام هواتفهم، ومن تبجح أولياء الأمور الذين يساعدون أولادهم على الغش حتى بلغت بأحدهم الجرأة على الوقوف أمام لجنة الامتحان وبيده ميكروفون يتلو فيه الإجابات النموذجية للممتحنين، وبالصحف التي تذكر بالتفاصيل وقائع تحرش بعض المدرسين بالطالبات والطلاب، وحوادث تدخين المخدرات في الفصول، والأسلحة البيضاء التي أصبحت ضمن سلاح التلميذا

ثم صرت لا أعجب من أن يلقى طالب مصرعه بعد أن لسعته عقرب داخل المدرسة، أو يلقى القبض على تشكيل عصابي أو شبكة دعارة مقرها أحد المدارس، فقد تركنا أنبغ عقولنا وعلمائنا وأميز مدرسينا يرحلون إلى الخليج، واستعضنا عنهم بمدرسين غير أكفاء لم يتعرفوا على مناهج التربية ولم يكتسبوا مهارات التعليم فخرج إلينا النتاج العجيب، لو حقًا تهتمون بمستقبل هذا البلد اهتموا بتأهيل المعلم قبل التعليم وربوا أولياء الأمور قبل التلاميذ.

ما لم ترونه في الثورة

كتب وتحدث كثيرون عن أفعال وتصرفات الناس في الثورة، سواءً أكانوا ثوارًا، أو من أتباع النظام السابق، أو من البلطجية، أو من حزب الكنبة، لكن لم يكتب أحد عن تصرفات الكائنات غير العاقلة أثناء الكر والفر الجماعي، وخلال سحب البارود والدخان التي كانت تملأ أجواء وسط البلد، والذى من المؤكد أنها أربكت هذه المخلوقات المسكينة وجعلتها تفر بجنون بعيدًا، ورأيت أن أحدثكم هنا عما رأيته، أو قرأت عنه من تصرفات طريفة أو مؤلمة لهذه المخلوقات في الثورة المصرية.

الروائح الخانقة التي توالت على منطقة وسط البلد من أثر القنابل المسيلة للدموع وقنابل الدخان وطلقات البارود، والأتربة والغبار بفعل أقدام المتظاهرين، طاردت اليمام والعصافير وحتى الغربان فاختفوا طيلة الـ ١٨ يومًا، وبدت منطقة وسط البلد خالية من رفرفة أجنحة الطيور وأصواتهم العذبة، أما العصفور الرمادي الذي يطلق عليه "الزرزور" عندما أخافته المعارك الدائرة، كان ينطلق بارتباك ويندفع كالقذيفة على ارتفاع منخفض يكاد يصطدم برؤوس الناس، فيظنونه طوبًا أو حجارة تلقى عليهم، ويخفضون هاماتهم فيمرق من فوقها كالبرق.

ومن هول الذعر تسلقت القطط الأشجار والجدران وقفزت إلى أسطح المباني ذات الدور الواحد، أما الكلاب فقد انتابها هلع شديد، وتجمعت أعداد كبيرة منها خلف قائد منتخب، وكانوا يحتمون خلف الأتوبيسات الضخمة المركونة بالشوارع، ويتقدم قائدهم بحذر، وعندما يأمن سلامة الطريق، يزيد سرعته قليلاً فيتبعه الباقون، كل مجموعة كانت لا تقل عن عشرين كلبًا، ورغم أعدادهم المخيفة فإنهم كانوا إذا قابلوا آدميًا واحدًا، يتوقفون ويفسحون له الطريق، وهم ينظرون إليه بخوف إن تجاهلهم، أو توقف بحذر يتأملهم، فإنهم يعبرون بجواره في هدوء، وإن تمكن منه الخوف وبدأ يستعد للدفاع عن نفسه، غير قائدهم طريقه وتبعته جماعته مبتعدين عن هذا الشخص المرعب من وجهة نظرهم.

كما لا يغيب عن ذهننا الصورة التي نشرتها جريدة مصر اليوم، أثناء أحداث شارع محمد محمود، لمجموعة نافقة من الكلاب ملقاة بالقرب من الشارع، إثر تعرضها لكمية كبيرة من الغازات المسيلة للدموع، ومن ضحايا أحداث ذلك اليوم أيضًا الكلب الذي كان يربيه الناشر المعروف محمد هاشم، والذي كان يقابل بالترحاب كل من يدخل إلى دار النشر، يتمسح في أقدامهم ويلعق "بناطيلهم" – دون أن ينتبه أنهم عائدون لتوهم من ساحة المعركة – فلم يتحمل كمية الغاز الكبيرة التي استنشقها ومات صبيحة اليوم التالي.

وقد لفت نظر مجموعة من زائري الشهيد خالد سعيد بالإسكندرية، أنهم عند وصولهم إلى الحي الذي كان يقيم به وسؤالهم عن منزله، أشار لهم بعض المارة تجاه المنزل، وكان بالقرب منهم مجموعة من القطط تبعتهم في الطريق، وكلما اقتربوا من البيت وأعادوا السؤال عنه للتأكد، كانت قطط أخرى تتجمع حولهم وتسير معهم، حتى وصلوا إلى باب البيت وعادت القطط إلى أمكنتها، وعندما سألوا والدة الشهيد عن ظاهرة القطط، لمعت عيناها من الشجن وابتسمت بسمة صوفية، وأخبرتهم بأن تلك القطط هي التي كان الشهيد الراحل يطعمها عند دخوله، أو خروجه من البيت، وأنها منذ اغتياله تصحب القادمين إلى البيت بغرض العزاء فيه.

وكانت هناك تشنيعة من المثقفين تمس عربة كبدة بالقرب من ميدان التحرير، ادعى البعض أنها ملك النائب السابق رجب هلال حميدة، وكانوا يسخرون من بضاعتها، ويشيعون أنها كبدة طيور جارحة نافقة، أو كبدة قطط.. ثم جاء تصريح لأيمن نور في جريدة اليوم السابع بأن رئيس مباحث سجن مزرعة طرة، تقدم ببلاغ ضد رجب هلال حميدة المتهم في موقعة الجمل، يدعي فيها أن حميدة "ينونو" عند زنزانة علاء وجمال مبارك، وعند سؤاله عن سبب ذلك الفعل، قال إنه يريد أن يقول لهم بلغة القطط.. يا فاسدين.. خربتوا بيوتنا.

وفي ١٨ يناير ٢٠١٢، أي بعد سنة من الثورة، ذكرت الصحف أن مقر الحزب الوطني بالتحرير الذي مازالت آثار الحريق عالقة به حتى الآن.. تبين بعد جرده: أن الأثاث والمكاتب والدفاتر والأوراق احترقت برمتها، وأن أجهزة الكمبيوتر دمرت.. ولم يعد أحد يحرسه.. وصار مقرًا للكلاب الضالة التي حلى لها المعاشرة والتكاثر داخل مكتب أمينه العام، وأصبحت تتعامل مع من يقتحم عليها خلوتها بشيء من الاستنكار، الذي تعبر عنه إما بالنباح، أو النظرات الحادة.. أما الغرف الفسيحة التي كان قادة الحزب المنحل يمارسون فيها أعمالهم، فصارت ساحات للعبهم ولهوهم وفضلاتهم التي ستجدها متناثرة في الأركان وعلى الأرضيات.

أما الرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح، فقد صرح بعد الثورة اليمنية التي أزاحته ما من منصبه، اعتزامه كتابة مذكراته تحت عنوان "قصتي مع الثعابين" اتساقًا مع كل ما يردده طيلة سنوات، من أن حكم اليمن أشبه بالرقص فوق رؤوس الثعابين.. في إشارة إلى أن الثعابين لدغته في حادثة مسجد دار الرئاسة في ٣ يونيو ٢٠١١ التي أطلق عليه بعدها الرئيس المحروق.

نهاية إغريقية

كان مختبئًا في سرداب أقرب إلى جحر الفأر، قميصه ملطخ بالدماء، والدماء تسيل من أحد جانبي الفم، ناشد الثوار ألا يقتلوه، انتهى الأمر والثوار يجرون جثته في الطريق، يا لها من نهاية تليق بأسطورة إغريقية، يموت بطلها في النهاية بمأساة أو بمهانة، فمهما اختلفنا أو اتفقنا مع القذافي فنحن الذين صنعنا منه دكتاتورًا، كما صنعنا كل الطغاة وتركناهم يرشفون من دمائنا.. يتساوى في ذلك شعبه الليبي والعربي والأفريقي، تحمل شعبه كل ترهاته وجنونه وسفهه حين كان ينفق أموالهم على قلاقل وثورات مزعومة وعلى أرهاب وعلى شحطات عبثية أفرزها خياله المريض، تركوه يتمكن منهم، يقتل معارضيه ويشرد رفاقه ويبدد ثروات الشعب في مشروعات خيالية، إذا لم يعجبه ما يبثه التلفاز الليبي، جعل الكاميرا ثابتة على حذائه في وجوه كل المشاهدين لمدة ساعات، ولا معترض واحد تستفزه هذه الإهانة كأنه يحكم شعبًا من الهواء، أهمل البنية التحتية والصحة والتعليم وترك لهم الكتاب الأخضر الذي لو صدر في عصر "سيجموند فرويد" لترك كل أبحاثه وتفرغ لتحليل كل هذه الأفكار الخزعبلية، هذا الكتاب الذي تبارى مفكرونا وأدباؤنا العرب في مدحه وتدبيج المقالات والكتب في تبين أهميته، وغرفوا من أموال النفط مقابل تسويق هذا الكتاب لنا، تحالف الجميع على إرضائه وعلى تضخيم ذاته، تتساوى في ذلك الدول الأوروبية مع الدول النامية مع شعوب الواق واق، كانوا يستقبلونه باحتفالات كبيرة، ويتركون له ساحات لكي ينصب خيمته ويضع ناقته أمامها لكي يشرب لبنها في الصباح، كانوا يتسابقون لاستقبال حارساته الحسناوات، ويبثون صورهن عبر كل "الميديا"، أذكر أنه عندما استقبل رئيس فرنسا السابق "جاك شيراك" استقبله تحت لافتة كبيرة مكتوب عليها باللغتين الفرنسية والعربية "لقاء الأوائل.. أول جمهورية في العالم وأول جماهرية في العالم"، ولم تلفت اللافتة نظر شيراك أو أهمل التعليق عليها لأنه كان مشغولاً بحسابات مالية! تركوه يهين المجتمع الدولي كله في الأمم المتحدة وكانوا يبتسمون، جعلوه يعتقد أنه ملهم، كان ينتظر الوحي في كل لحظة، أصبح في السنوات

الأخيرة مهووسًا بهذه الفكرة لا ينظر مباشرة إلى الأشخاص الذين أمامه، إنه ينظر دائمًا تجاه السماء، عدما اندلعت الثورة الليبية في ١٧ فبراير، انتابته حالة من عدم التصديق وظل يسألهم من أنتم؟ وعندما اشتد عود الثورة الليبية صرح بتصريح من أغرب ما يصرح به رئيس محاصر من أفراد شعبه: إن كانت هذه ثورة فأنا الثائر الوحيد وسأنزل وسطكم لأقودها! كلمات لا يمكن أن تخرج من فم عاقل أبدًا يواجه ظروفه نفسها، فهل نلومه بعد ذلك على قوله بأنه لن يترك ليبيا إلا كما استلمها بنفس عدد السكان (يهدد بإبادة نصف السكان الحاليين دون أن تطرف له عين) أو سيحرق آبار النفط كلها، أو عندما شبه الثوار بأنهم جرذان ومات للأسف كالجرذ، القذافي لا يلام فقد حصد ما زرعه، المؤسسات التي استلمها في بداية حكمه فككها وترك إدارتها لما أسماه باللجان الشعبية، تخلص من رفاقه الثوريين واحدًا تلو الآخر، تحالف وعاهد واتحد مع دول خارج محيطه الإقليمي ولا تتفق معه في الدين واللغة والجنس، سمى نفسه بملك ملوك أفريقيا وأقام الاحتفاليات الكبرى لذلك، وما همه ترحيب العالم بالفكرة أو استهجانه لها، فهو القائد والملهم والتاريخ يكتب من خلاله.

أعتقد أن البعض قد ارتعب من جنون القوة الغاشمة،عندما رأى ما تبثه الفضائيات أثناء المعارك الليبية، سيارات نصف نقل تحمل مدافع مضادة للطيران، ومدافع رشاشة تجوب الشوارع، أطفال يحملون أسلحة أعلى من قامتهم ويطلقون النيران بعشوائية، الدماء تغطي الوجوه والأبنية، بعض الأفارقة ينكل بهم ظنًا أنهم من المرتزقة، أصبح الحكم حينئذ للشارع، لا الحكيم ولا المسن ولا المتعلم هو الذي يحكم، الأقوى بدنيًا هو الذي يسيطر، كانت هذه لحظات مخيفة فكلنا قد خشينا أن ينقلب النضال ضد الطاغية إلى حرب أهلية تطول الأبرياء، لكن الله ستر وجاء مقتل القذافي حسمًا للصراع.

وقد يكون البعض قد استاء من قتل القذافي بعد استسلامه، لكن في ظني يرجع ذلك لأساليب القمع والظلم التي وجهها القذافي لشعبه، والتي دفعت بهم لاقتناء السلاح ومواجهته به، والجزاء من جنس العمل، فهل نطالبهم بالرفق به وقد قتل منهم أكثر من

خمسين ألفًا في الأشهر الأخيرة فقط؟ وكيف نرغب في الإبقاء عليه حيًا حتى يحاكم محاكمة عادلة؟ وهل كان هو عادلاً في فترة حكمه التي يعرفها العالم كله؟

لنقفل صفحته التي طوتها الأيام، ونأمل في أن تظل نهايته التراجيدية عبرة لكل حاكم تسول له نفسه أنه أكبر وأعظم من أفراد الشعب الذي يحكمه.

كلمة السر: جزر

هذا الرجل ألف بمفرده أكثر من ٥٠٠ فيلم أي ما يساوي تقريبًا ٢٠% من إنتاج السينما العربية كافة، وكتب حوالي ٣٠٠ أغنية وعددًا كبيرًا من المنولوجات واللوحات الغنائية والأوبرتات والاستعراضات التي من أشهرها استعراض "إحنا التلاتة سكر نباتة" من أداء إسماعيل ياسين وشادية وشكوكو واستعراض "العدس الليلة" لنعيمة عاكف واستعراض "يا رايحين للنبي الغالي" لليلى مراد، وعددًا كبيرًا من الأغاني الشهيرة منها "يا نجف بنور يا سيد العرسان" و"البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي" و" تاكسي الغرام"، وبلغ إنتاجه المسرحي المعروض على خشبة المسرح ٦٥ مسرحية.

عن الكاتب والفنان الجميل "أبو السعود الإبياري" أتحدث، ذلك الفنان متعدد المواهب الذي ولد بالقاهرة عام ١٩١٠ وتوفي عام ١٩٦٩ وهو لم يبلغ عامه الستين بعد، والذي رغم كل هذا الإنتاج الضخم لم يأخذ حقه من التقدير تقريبًا.

تذكرته وأنا أشاهد للمرة فوق العشرين فيلمه "المليونير" من بطولة إسماعيل ياسين وكاميليا وفريد شوقي وسعاد مكاوي وإستيفان روستي، ومن إخراج حلمي رفلة، هذا الفيلم في رأيي تحفة فنية وكوميديا راقية صالحة لكل عصر وأوان، ورغم أن الفيلم أبيض وأسود وليس ملونًا، وتاريخ عرضه الأول في سبتمبر ١٩٥٠ إلا أني أعتقد أنه لو غامر موزع وأعاد عرضه في إحدى القاعات السينمائية الآن لقوبل بإقبال كبير، رغم أنه يُعرض كثيرًا في التليفزيون، قصة هذا الفيلم كتبها الشاعر الغنائي مأمون الشناوي ولم يكتب أغاني الفيلم كالمعتاد، والذي قام بكتابة الأغاني والاستعراضات والمشاهد السينمائية هو العبقري أبو السعود الإبياري، ورغم البساطة المتناهية في القصة التي تحكي عن "البديل"، فعاصم شاب ثري يعيش مع زوجته وشقيقته، يرى أحد الشباب يغازل زوجته فيوصي رجاله بقتله ودفن الجثة سرًا، ثم يقضي سهرة بأحد الكباريهات فيقابل المنولوجست "جميز" الشديد الشبه به، يفكر عاصم أن يستغل هذا الشبه وأن يؤدي كل منهما دور الآخر في الحياة،

يوافق جميز بعد تردد، وبعد أن يتعهد له عاصم بأنه في حال وقوعه في أية مشكلة بالبيت عليه أن ينادي فورًا بكلمة السر "جزر" وسيلبي عاصم النداء على الفور ويخرجه من المطب، يخرج عاصم من البيت إلى ملذاته ويدخل جميز باعتباره عاصم في أتون المشاكل التي كان متوغلاً فيها "عاصم"، ثم يجد نفسه متورطًا وسط شلة مقامرين فينادي على جزر ولا أحد يلبي، فيحل المشكلة بنفسه، وهذا من حسن حظه لأن عاصم لو سمع النداء ولباه، كان سيحل المشكلات القديمة بنفس طريقته في الحل فيزيدها إرباكًا وتعقيدًا، وهكذا ينجح جميز "البديل" في حل كل مشكلات البيت حتى التي بين عاصم الأصلي وزوجته وعاصم وأقاربه، وعندما لم يستطع جميز مسايرة حياة عاصم المختلفة عنه يخرج هاربًا من البيت، وتخرج في إثره الشغالة التي هامت به حبًا وشغلت حياته، ويكتشف عاصم في النهاية أن الشاب الذي كان يغازل زوجته هو شقيقها الذي أخفت عنه وجوده لأنه فقير، ويتضح أيضًا أنه لم يمت، ويعود عاصم إلى بيته وأهله وزوجته الجميلة، ويرجع جميز إلى عمله الفني وبصحبته حبيبته، الشيء الإيجابي الوحيد الذي خرج به من بيت عاصم.

من أجمل الاستعراضات الغنائية بالفيلم "أوبريت عنبر العقلاء" الذي يؤديه إسماعيل ياسين مع مجموعة المجانين، والذي يغنى فيه الممثل الذي يؤدي دور "نيرون" حارق روما "الحقوا ناولوني الولاعة.. عايز أولع روما بحالها.. أنا مستعجل عندي إذاعة.. خطبة عظيمة لازم أقولها". وكذلك استعراض "عايز أروح" الذي يؤديه إسماعيل ياسين مع سعاد مكاوي في مطبخ الفيلا ومستعينًا في الاستعراض بكل أدوات المطبخ..

يضم الفيلم حشدًا كبيرًا من أهم نجوم السينما بمصر، فبالإضافة إلى من ذكرنا سابقًا هناك نجوم آخرون منهم سراج منير ووداد حمدي وفريد شوقي، وهذا في حد ذاته درس كبير يعطيه هؤلاء الممثلون الكبار لأشباه النجوم في هذه الأيام الذين يصرون على وجودهم في كل مشهد من مشاهد الفيلم "من الجلدة إلى الجلدة" وينتجون أفلامًا تافهة تخرج سريعًا من ذاكرة السينما، والقصة رغم بساطتها تدعو إلى التأمل "فكرة البديل داخل الواقع

المتخيل التي تنتهي دائمًا نهاية سعيدة". المشكلة الحقيقية في اعتقادي في وجود البديل في الواقع الحقيقي، ألم تراودك فكرة أن يعجب جميز بالحياة في "الفيلا" التي تشبه القصر ويهيم بالزوجة الجميلة وبكل مظاهر الترف والثراء الذي حرم منه في واقعه، ويجعله ذلك يفكر في الاستئثار بكل شيء، وضرب الحائط بكل التحالفات والتعهدات، ثم الادعاء بأنه عاصم الحقيقي وهو المالك المتحكم في كل شيء، وهنا تحدث مشكلات عضال نتيجة هذا الصراع لا يعرف مداها إلا الله، أو قد ينعم ببعض تلك الحياة الرغدة، وكلما واجه مشكلة نادى بعلو الصوت "جزر.. جزر" وجلس في انتظار عاصم الحقيقي ليحل له هذه المعضلة، في تلك الحالة سيكون قد ارتكن فعلاً إلى فكرة أنه مجرد بديل، عليه أن يؤدي دور السيد لأجل معين ثم يعود إلى صفوف العامة.

أناس عاديون و يوم غير عادي

قبل صلاة الجمعة بساعة أوأكثر، هلّ من آخر الممر ضباط ثلاثة بمعاطفهم السوداء وأجهزة الاستقبال والإرسال، الصبي المكلف بحمل المشروبات إلى الزبائن أسرع عائدًا من نصف المسافة بالصينية الممتلئة بأكواب المشروبات وكنكات القهوة، ثم همس لمسئول المقهى الجالس خلف مكتبه الخشبي، نهض المسئول بسرعة وهرول في اتجاههم مرحبًا بهم وخلفه بعض العاملين ينتقون لهم أفضل الكراسي والمناضد، حضرت أفضل شيشة بسرعة تسعى إلى أحدهم، ورص العامل على طاولتهم أكواب السحلب المغروسة فيه أصابع الشيكولاتة والموز المقشور وتسبح في سائله المكسرات، بعض الناس العاديين آثروا السلامة وأنهوا مشروبهم بعجالة وغادروا المكان، أما الشباب المنكبون على لافتاتهم يدونون بها شعاراتهم أكملوا ما هم شارعون فيه دونما التفات، ولم يهتم الضباط حتى بالنظر إليهم، كأنما هناك هدنة بينهم والأطراف كلها مجمعة عليها.

وفي موعدها بالضبط، حضرت أم يوسف القبطية الشابة التي لا يتجاوز عمرها الأربعين عامًا، جلست في مقعدها المفضل في مقدمة المقهى، خرج العامل من وراء النصبة ليرحب بها بالتزامن مع مسئول المقهى، وحياها باقي العمال من مواقعم المختلفة، كانوا يحبونها ويتعاطفون معها فهي خدوم ولا تكاد تغيب البسمة عن شفتيها، وكانت بالرغم من نحافتها الشديدة قوية صارمة، فقد ورثت عن زوجها ورشة الخراطة التي أفنى زوجها الراحل عمره فيها، ولم تفرط فيها بالبيع أو الشراء بل عملت فيها كالرجال وأدارتها كالمحترفين، مقر الورشة كان في السبتية والأجازة الأسبوعية كانت يوم الأحد، وفي يوم الجمعة الذي يماثل هذا اليوم كانت تفتح الورشة بعد الصلاة، حبها لهذا المقهى لفت نظري كثيرًا ولم أصل إلى سبب معين له، كثيرًا ما كنت أراها تترك مقعدها المفضل، وتدخل إلى عمق المقهى لتساعد عامل المقهى في غسل الأكواب والكنكات، وهي تتبادل معه الأحاديث المختلفة التي يتخللها الاطمئنان على زوجته وأولاده الذين تعرف

أسماءهم وأحوالهم بدقة، وفي العشرة الأواخر من شهر رمضان، كنت أراها منهمكة مع مسئول إدارة المقهى في وزن السكر والبلح، وعد عبوات الزبيب والزيت والسمن، ثم وضعهم في أكياس بلاستيكية، تمهيدًا لتوزيعهم على فقراء الحي، كما هي عادة صاحب المقهى كل عام، كانت سخية ومعطاءة تمنح العمال هبات مالية يأخوذنها منها بعد إلحاح كبير ثم تغادرهم إلى ورشتها.. الضباط الذين أدهشتهم الحفاوة الكبيرة التي يسبغها العمال عليها، جعلتهم يحدقون بها قليلاً ثم شيعوها بنظرات لامبالية والتفتوا إلى أجهزتهم وبدأوا يصدرون أوامرهم بصوت خفيض، واحتاج أحدهم أن يدخل إلى حمام المقهى لقضاء حاجته، فهرع مسئول المقهى يفتح له الباب المخصوص الذي لا يفتح إلا لكبار الرواد.

أذن المؤذن للصلاة فغادر الضباط أماكنهم ورحلوا إلى مهامهم، واتجه بعض الشباب إلى المسجد وبقي بعضهم ممسكًا بلافتاته، وما زالت أم يوسف تتبادل الأحاديث الودية مع العمال والزبائن الدائمين الذين تعرفهم، ثم مر التوأمان بالمقهى في طريقهما إلى مكان الوضوء.

عقب الصلاة امتلأت الشوارع بالمسيرات وتعامل معها الأمن بكل عنف، فر البعض في اتجاهات شتى، وفتح مجدي صاحب مقهى ريش أبواب المقهى للناس حتى يحتموا بداخل المكان، دون تفرقة بين شباب مثقفين وناس عاديين، سافرات أو محجبات، وكان هذا حدثًا هامًا يجب أن يذكر، فقد انتقدته سابقًا وعبت عليه جلوسه في مقدمة مقهاه يفرز وجوه الداخلين، ويمنع بعضهم من الدخول بحجج مختلفة، هذه المرة حركت القسوة التي يتعامل بها الجنود مع الثوار قلبه، أدخلهم المقهى وصرف لهم المياه مجانًا وعالج بعضهم وأطعم البعض الآخر، وحينما توالت قذائف قنابل الغاز المسيل للدموع، وأصبح الشارع يسبح في سحابة من الدخان الأسود، أمر عماله بغلق المقهى من الداخل حماية للموجودين، ثم زادت الأجواء احتدامًا بالخارج وأصبح الرعب يغالب الواقفين بالداخل والذي يكتظ بهم المكان، وتمكن الغاز من التسلل عبر أسفل الباب، وبدأ بعض

الموجودين بالداخل في الشعور بالاختناق، والمدهش أن شخصين من الموجودين بالداخل تلبسهما الرعب المخيف، فمضيا يدفعان بغلظة الناس الذين في طريقهما حتى ينفلتان إلى مقدمة المقهى، وعندما وصلا إلى الباب الموصود، لم يهتما بنظافة لبسهما المدني الأنيق، وظلا يخبطان على الباب الصاج بجنون وهما يصيحان: افتحوا الباب.. حنموت.. إحنا مش مهاهم.. إحنا مخبرين.. لم يهتما بمخاطر كشف شخصيتهما بقدر خوفهما من الموت خنقًا بين سائر المواطنين العاديين، رفع لهما العامل الباب الصاج حتى خرجا وخرج معهما من ضاق بالمكان.

التوأمان أخبراني فيما بعد أنهما أغلقا باب محل التحف عليهما وناما على الأريكة الصغيرة، التي تكاد تتسع لهما بالكاد، وكلما سمعا صوت طلقات الرصاص التي كانت تنهمر ليلاً كانا يحتضنان بعضهما، ويبكيان وهما يرتلان بعض آيات القرآن الكريم، أما القبطية المسالمة المكافحة أم يوسف فلم يكن حظها الطيب يصاحبها في ذلك اليوم، فقد عاجلتها رصاصة غادرة أثناء هرولتها في ميدان عبد المنعم رياض، بحثًا عن مواصلة تقلها إلى ورشتها، الرصاصة أردتها شهيدة في عصر الجمعة التي سميت فيما بعد بـ"جمعة الغضب" في الـ٢٨ من شهر يناير العام الفائت.

.. إلى المحتفلين بالوصول إلى البرلمان الجديد بالبمب والشماريخ والأناشيد، تذكروا الشهداء الذين أوصلوكم إلى هذا المكان واخجلوا.

مصر المحمية باللجان الشعبية

خلال أحداث ثورة ٢٥ يناير وبعد إعلان حظر التجول وتخلي الشرطة عن أداء واجبها في الحراسة والحماية، جاء دور اللجان الشعبية التي تكونت بسرعة كبيرة لحماية المساكن والمحال التجارية والبنوك في كل منطقة بمصر، وكان لهذه اللجان إبداعها المصري الخالص رغم تباينها، فاللجان الشعبية بالمناطق الراقية اختلفت عن اللجان الشعبية بالمناطق الفقيرة، لكنهم اتفقوا على شيء واحد هو حماية الأسرة المصرية رغم أنف راغبي إفساد الثورة. فالحارة التي كانت قبل الثورة تمتلئ بـ"شمامي الكلة وضاربي البرشام" الذين يسببون إزعاجًا كبيرًا للسكان ويقللون من خروجهم ليلاً، ساهم هؤلاء الذين يعتبرون مشاريع بلطجية صغيرة في الدفاع عن الحارة مما جعل أهل الحارة يكافئونهم بأطباق العاشورا الساخنة، والبليلة والرز باللبن، والشاي، وحفظ أهل الحارة أسماءهم وألقابهم الغريبة، وعندما عادت الأمور إلى طبيعتها فوجئ الأهالي بأنهم قد تغيروا قليلاً ولم يعودوا يتعاطون ما يتعاطونه علانية بل أصبحوا يمارسونه خلسة، وبدأوا يحيون السكان باحترام ويفسحون لهم الطريق للمرور ويساعدون السيدات العجائز في عبور الطريق وحمل أكياس بضائعهم، ولم يعد السكان يخافون منهم.. والملفت للنظر أن الرجال في هذه الأحياء البسيطة كانوا يتجمعون أمام منازلهم بعد إغلاق المقاهي ويخرجون شيشهم الخاصة، وتنزل إليهم أوعية الشاي والقهوة، وهم يلعبون الطاولة ويتباهون بأسلحتهم النارية المصنوعة يدويًا كـ"المقروطة" كأنهم جيمس بوند.. بينما الشباب بالأحزمة والعصي واقفين على مداخل الحارات يفحصون السيارات الداخلة ويتأكدون من هويات الأفراد الغرباء عن الحارة، أما السيدات في البيوت فكن يتجمعن حول القنوات التليفزيونية في شقة إحداهن وعندهن كل وسائل الحماية الممكنة، كذلك النساء الموجودات في المنازل بمفردهن، كن يحتفظن بـ"برطمانات" المربى الفارغة المملوءة بالكلور خلف باب الشقة وبجوارها عبوات الفيليت والبيروسول كـ Self-defense، وزجاجات المياه الغازية الملآنة بالبنزين والمغطاة بقماشة مبللة "زجاجات مولتوف" جاهزة للاستخدام عند مرور

البلطجية في الشارع ومحاولتهم ترويع السكان، كانت تعليمات الأزواج لهن بإلقاء هذه الزجاجات على البلطجية بعد إشعال القماشة، وأغلب هؤلاء النسوة كن يخفن أن تمتد النيران إليهن، وكن بمجرد وصول البلطجية يلقينها عليهم دون إشعال، فتنهمر هذه الزجاجات محدثة دويًا أو تنكسر على رؤوسهم فيفرون سريعًا، كما كن يحملن ذهبهن وأشياءهن القيّمة مما قل حمله وغلا ثمنه، ويربطونه حول بطونهن أو يضعنه في صدورهن خوفًا من لصوص الاقتحام.

أما اللجان الشعبية في الزمالك – وأعتقد أنه نموذج تكرر في كثير من الأحياء الراقية – كنت ترى الشباب يرتدون بنطلونات جينز من الماركات الشهيرة وتي شيرتات فخمة ويلبسون فوقها واقيات جلدية أصلية، وبعضهم يرتدي سترة صيد البط المليئة بالخرطوش وفي أياديهم بنادق الخرطوش لكن ليست معهم الصفارة التي تقلد صوت البط لعدم الاحتياج إليها، وعلى رؤوسهم خوذات رياضية وبعضهم يستخدم خوذة خاصة بلعبة الرجبي وهي مخصصة لحماية الوجه واسمها "هيلمت"، وبعضهم يضع على وجهه واقيات الوجه المستخدمة في لعبة الشيش، ومنهم من يستطلع الطريق باستخدام مجاهر حربية تعمل بالأشعة فوق البنفسجية كالتي يستخدمها الجنود الأمريكان في الحروب داخل الأحراش، وأغلبهم يرتدي أحذية رياضية في قدمه قصيرة أو طويلة الرقبة، وأغلب الشباب فوق الثلاثين حليقو الرؤوس، بينما الشباب الصغير، معظمه يصنع فورمات لشعره مثل تسريحة السبايك "رأس الرمح" أما البنات فتجدهن واقفات بتحدٍ، مرتديات الملابس "الكت" المموهة بحمالات أسفل الجواكت، ومسلحات بأسلحة خرطوش نيكل تلمع لأقل ضوء، وشعورهن مربوطة من الخلف، وبعضهن يضعن أصباغًا غريبة على وجوههن كممثلات الأفلام الأجنبية، وكلهم سواءً أكانوا مجموعات من الشباب أو الفتيات أو مجموعات مختلطة، تجدهم فاتحين أبواب سيارة تخص أحدهم وتنبعث من سماعات السيارة أغانٍ حماسية جدًا لعبد الحليم أو شادية ينفعلون معها جدًا هم ومن بصحبتهم من الأجانب المقيمين، وزيادة في أمان المنطقة كانت هناك حماية نهرية في المنطقة النهرية

المسماة بالبحر الصغير- وهي عبارة عن خليج صغير بين منطقتي العجوزة والزمالك- وكانت الحماية بواسطة اللنشات الزودياك "اللنش البخاري" التي يمتلكها بعض ساكني المنطقة، والتي تبحر في هذه المسافة ليلاً ذهابًا وإيابًا، حتى لا يحدث إنزال بحري وتسقط الزمالك بين أيدي الأعداء.. عشاء اللجان بالزمالك هوم دليفري "سوشي وسيمون فيميه" وأنواع أخرى من تلك النوعية.. والأم تكلم ابنها من المحمول وهي تنظر إليه من الشرفة وتسأله: عايز الكوفي ميت ازاي؟ "Coffemate" (معناه رفيق القهوة)، بينما الأم في الطالبية تكلم ابنها من الشباك "أحط حليب على الشاي ولا عايزه سادة أحسن".. التسليح اليدوي بالزمالك بأنواع العصي الرياضية جميعها مثل عصا الإسكواش والبيسبول (وأغلبها من خشب البلوط وتشبه بعض الشيء زجاجات النبيذ ولها كعب جلد كي لا تنزلق من يد اللاعب).. وعصا الهوكى وهي أربعة أنواع منها هوكي الانزلاق وهوكي الباتيناج (وهى عصا معكوفة ومبطوطة) ثم عصا البولو وهي عبارة عن مطرقة خشبية، وعصا الكريكيت وهي عبارة عن مطرقة على هيئة شاكوش. وعصا الجولف بأنواعها المختلفة من الخشب والعاج والمعدن..

سلمت يا مصر وسلمت كل طوائفك.

"ما تقولش أمين شرطة اسم الله..."

صوت صفارة واحدة منه كان يفرقنا ويجعلنا نهرب في شتى الاتجاهات، قبل أن نراه أو نلمحه – مترجلاً أو فوق دراجته – في اتجاهنا بردائه الأبيض الجميل وقبعته المصنوعة من الجوخ الأسود، ذلك هو عسكري الدرك القديم، الذي كانت هلته توتر وتربك الجميع – أغنياء وفقراء – لا يستطيع أي منهما أن "يبجح" فيه أو ينهره بسخافة وهو يقول: إنت ماتعرفش أنا ابن مين! والذي كان يدور في المنطقة ليلاً ونهارًا متفحصًا بعينيه نوافذ العمارات وشبابيكها، الأقفال الضخمة التي توصد المحلات أبوابها بها، كان يعرف أغلب سكان الحي ويعرفونه بالاسم، لذلك كانت حوادث السرقة والنهب والتثبيت تكاد تكون معدومة.

ثم حدث أن طورت وزارة الداخلية أداءها – على حد قولها – في عهد وزير الداخلية شعراوي جمعة، وأنشأت معهدًا لأمناء الشرطة، تخرجت أولى دفعاته في السبعينيات، وحل محل هذا العسكري الغير مؤهل "كما كانوا يدعون" أمينان شرطة يسيران معًا جيئة وذهابًا وفي يد أحدهما جهاز لاسلكي، كان مظهرهما جميلاً في البداية، شجع بعض منتجي السينما على إنتاج أفلام عن بطولات أمناء الشرطة، وعن مميزات المعهد، وذكرهم الشاعر العبقري صلاح جاهين في إحدى أغنياته التي تغنت بها سعاد حسني تصف هدوء وكياسة حبيبها "ماتقولش أمين شرطة اسم الله ولا دبلوماسي" واستمرت سيطرة هذا الجهاز الجديد عامًا أو عامين ثم انفرط عقده، سمعنا عن أمناء الشرطة يرتشون ويفسدون، ورأينا معدلات السرقة تزيد، وقد يرجع ذلك إلى جهل هؤلاء الأمناء بالمنطقة التي يحرسونها، أو عدم معرفتهم بأهلها وعدم قدرتهم على التمييز بين ساكن الحي والغريب.. كما أذكر أنه بانتهاء عهد "عسكري الدرك القديم"، انتهى معه عهد "شيخ الحارة" وهو المسئول عن منطقة ما، يجوب شوارعها وأزقتها في كل الأوقات، يستوقف الغريب ويسأله عن سبب دخوله، ويفرز الصالح من الطالح في رمشة عين، صحيح كنا نهابه ونخاف منه، فبمجرد

دخوله شقة ما أو سؤاله عن شخص ما، معناه أن هناك مصيبة في الطريق، أحدهم هارب من الخدمة العسكرية أو جاء عليه دور الواجب الوطني و"طنش"، أو أن هناك قضية في انتظاره، لكن رغم ذلك كنا نشعر بالأمان في وجوده، أكثر من قسم السجل المدني الملحق بكل قسم شرطة، المليء بموظفين وموظفات لا يعلمون شيئًا عن الحي الذين يخدمونه.

أخيرًا الشرطة عادت إلى مواقعها بعد الثورة، وبهذه المناسبة، سرقت سيارة "دايو" موديل ٢٠١١ من زميل لنا مخرج سينمائي، بحث عنها طويلاً ثم أبلغ عن سرقتها، وجلس في انتظار تليفون من الشرطة يبلغه بالوصول إليها، أو بالقبض على اللص، وجاءه فعلاً "التليفون" لكن ليس من الشرطة بل من اللص شخصيًا، أبلغه بفخر بأنه اللص وطلب منه مبلغ عشرة آلاف جنيه "حلاوة" حصوله على السيارة، وحذره من الاتصال بالشرطة إذا كان يريدها سليمة، استشار صديقنا الأصدقاء وغالبيتهم كانوا مع قراره بدفع المبلغ، وضع صاحبنا ثمانية آلاف جنيه في جيب والباقي في جيب آخر، معتقدًا أنه عند مقابلته اللص يمكن التفاوض وتخفيض المبلغ قليلاً، ثم انتظرهم في المكان المحدد، وجاءت سيارة في الموعد بالضبط، وُفتح بابها بسرعة وانطلقت منها أصوات تصرخ في وجهه وتطالبه بالدخول، وفور دخوله وضعوا عصابة سوداء على عينيه كما يجري في الأفلام، وبعد عدة لفات بالسيارة، أنزلوه منها وشالوا العصابة عن عينيه، فوجد نفسه أمام مكتب ضخم يجلس عليه شخص تبدو على وجهه سمات الأهمية، طلب منه النقود، نسى صديقنا المخرج السيناريو الذي كان في رأسه، ووجد نفسه يقدم المبلغ بالكامل إلى هذا الشخص، الذي عده بأصابعه بسرعة متناهية، ثم وقف وسلم عليه باحترام وقال له: ربنا يباركلك، واستأذنه في وضع العصابة على عينيه مرة أخرى وقال له "لا تقلق سيقود سائق سيارتك حتى حدود العمار ثم يخلع عنك العصابة ويترك لك السيارة، وحذره من الغدر وهو يكمل بتحدٍ: لو فكرت تقل عقلك وتبلغ عنه، حط في دماغك إن إحنا عارفين كل حاجة عنك، وماتلومش نفسك لو ابنك مارجعلكش من مدرسته" سارت الأمور طبيعية بعد

ذلك وجلس صديقنا على كرسي القيادة وانطلق في طريقه، وفي شارع الهرم استوقفته لجنة مرور، تفحص الضابط رخصة القيادة ورخصة السيارة باهتمام ثم أشار له بمواصلة طريقه، تضايق صديقنا فنزل من السيارة محتدًا وقال للضابط: أنا مبلغ عن سرقة هذه السيارة فكيف لم تكتشف ذلك وتركتني أكمل الطريق؟ قال له الضابط وهو يفحص السيارة باهتمام: إنت دفعت كام عشان ترجعلك؟ أخبره صديقنا بأنه دفع عشرة آلاف جنيه، بدا الضابط غير مصدق ثم نادى بكل قوة على زميله الضابط الآخر حتى حضر إليهما، أشار الضابط إلى السيارة وقال متشفيًا في زميله: شفت يا هيثم بك الأستاذ دفع عشرة آلاف جنيه ورجعتله عربيته "الدايو موديل ٢٠١١"، مش إنت دفعت عشرين ألف جنيه عشان ترجعلك عربيتك "الدايو موديل ٢٠١٠"!

يا سارق من عيني النوم

عندما أراد الوعي الشعبي أن يرسم صورة للسارق الجريء، رسمه يسرق الكحل من العين، فنحن نلتمس العذر لمن سُرقت حافظته، أو ساعته، أو محموله، ونظن أن عينيه غفلتا أو انشغلتا بشيء آخر، فلم ينتبه للسارق، إلا أن اللص في هذا المثل العبقري، يسرق الكحل من أهداب العين، أى تحت بصرها، وفي نطاق حرمتها. بينما تفشل العين المنوط بها وقاية الجسد كله، ودرء الخطر عنه في معرفة اللص الذي تعدى عليها في عقر دارها، لذا منح الوعي الشعبي درجة الشجاعة والتمكن لهذ اللص، لكنه عندما تناول مسائل العشق والهيام، وآلام العاشق حينما يجافيه النوم ويضنيه السهاد، اختصه بمقولة "الحب بهدلة"، أي أن العاشق لن "يلاحق على" ما يحدث له، أما الشاعر الغنائي الفذ فتحي قورة ف "جاب م الآخر" على رأى العامة، عندما قال "يا سارق من عيني النوم.. إن نمت دقيقة تصحيني" هنا العشق بخفة يد يسلب العين أعز ما لديها ألا وهو النوم، ويجبر الحبيب على اليقظة الدائمة مفكرًا ومتدبرًا في حبيبه.

وهذا يحيلنا إلى عرف اللصوصية الذين يصنفون اللصوص مراتب ودرجات، فمثلاً "حرامي الغسيل" ذلك الذي يتسلل ليلاً بين البيوت، حاملاً "بقجة" من القامش وخطافًا كبيرًا، عندما تناديه حبال الغسيل، يشرع خطافه تجاهها، وبضربة متقنة يخلع المشابك التي تمسك بالملابس، فتقع داخل "البقجة". هذا اللص يعتبر من اللصوص المحترمين والمهندمين، فهو غالبًا ما يرتدي ملابس "مكوية" ونظيفة من حصيلة مسروقاته، ويبيع بعضها بأسعار "مهاودة"، لكنهم في الوقت ذاته يعتبرونه "حرامي" غير مؤهل، و"على قد حاله"، وهو بخلاف "حرامي لية الخروف" الذي يتسلل خلف قطعان الخراف، وبيده قاطع حاد "كاتر" ثم يغافل الراعي، ويقطع لية الخروف أثناء سيره (الخراف لا تحس به فليس لديها أعصاب في تلك المنطقة) ثم يدس اللية داخل قميصه، هذا النوع من اللصوص الذي يظهر قبيل عيد الفطر، يعتبرونه من أحط أنواع اللصوص.

المثقفون يتعاملون مع من يسرق الكتب ذات السعر المرتفع، لكى يقرأها أو يبيعها بأسعار منخفضة لزملائه، باعتباره سارق شريف، ينقل المعرفة ويسرق دور النشر التي تجيا على القرصنة. باختصار كأنه "روبن هود" غير أنهم يسلطون كل غضبهم على سارقي الأفكار أو الموضوعات – دون ذكر المصدر – أو من يقتبسون من الآداب العالمية ويدعون أنها من بنات أفكارهم، بخلاف بعض السينمائيين الذين يرون أن سرقة أفكار الأفلام الأجنبية أو مشاهد كاملة منها لا غضاضة فيها، لأن هذه الأعمال من الإبداعات الإنسانية، وهي حق للبشر بلا استثناء، وإذا سلبت منهم مشهدًا أو فكرة، ولو كانت تافهة، يقيمون الدنيا ولا يقعدونها ويجرسون بعضهم في كل "الميديا".

أما أطرف السرقات التي حدثت في الثورة المصرية، فهي لبعض النباتات التي كانت في مدخل مركز التجارة العالمي، ومنها نوع من الصبار يسمى (عمة القاضي) وهو من أغلى أنواع الصبار، فقد كانت شتلته تباع بـ ٨٠ ألف جنيه في الثمانينيات، وكذلك نوع آخر من الصبار اسمه (جلد النمر) "يشبه الصبار الذي نراه في أفلام رعاة البقر، وله خط أصفر بديع بطول الفرع"، وكان ثمنه في تلك الفترة أيضًا بحوالي عشرة آلاف جنيه، وبعض هذه النباتات الغالية انتزعت بيد خبير محترف أثناء الأحداث دون أن يهتم أحد. وهناك أيضًا مشهد شهير أثناء الثورة، لشخص يسرق موتور المياه ويظهر على الشاشة دون أن تبتل ملابسه، في دلالة على أنه محترف، ومستعد لدوره بطبة وعدة كاملة لمنع المياه من الاندفاع، وكذلك ذلك الذي نزع ماكينة الصرف الآلي من الأرض وحضنها وحملها، دون أن يبين عليه التعب، مع العلم بأن وزن هذه الماكينة مملوؤة بالنقود يصل إلى ١٥٠ كيلو جرام.

الأمر مختلف قليلاً في السياسة، فلأنها لعبة قذرة كما يقولون، تترصد الأجهزة الأمنية نشطاءها بمجرد انضمامهم للتنظيمات المخالفة لمعتقدات الدولة، ثم تجند أكثرهم حنجورية، وأقلهم تمسكًا بالمبادئ، وبعد ضمان ولائه، تهمله وتوقف التعامل معه – مع تحقيق كل مطالبه أولاً بأول – بغرض إبعاد الشبهات عنه، وتكتفي بزراعته ضمن خلية

نائمة في التنظيم النشط، وعند الحاجة إليه، تستدعيه بعد إيقاظه، كما يوقظون "دراكولا" في أفلام الرعب، لكي يبدأ هدم التنظيم أو الحزب من الداخل.

ومن أشهر هذه الحالات، شاب بسيط غير مؤهل، تمت زراعته بداخل أحد التنظيمات، فتسبب في سجن كل أفراد التنظيم، وحُبس معهم، لكنه خرج بعد شهور، والتحق بحزب قائم، وتم تصعيده بسرعة، لدرجة أنه تمكن في فترة وجيزة من أن يصبح نائبًا لرئيس الحزب، ثم استطاع أن ينحي رئيس الحزب ويحل مكانه، ودارت صرعات بين الرجلين حول الأحقية في الزعامة، انتهت بتهميش الحزب كله، ثم انتقل إلى حزب آخر، وهكذا دواليك، حتى أطلق عليه "مسجل خطف الأحزاب".

أخيرًا.. أحب أن أنوه بأن كلمة "الوطن" في صحيح اللغة تعني "مرقد الغنم". وفي العقود القديمة كانوا يقيسون قدرة وعظمة الحاكم بما يضمه ويضيفه من أراضٍ إلى الوطن خلال حكمه. ودار علينا الزمان وأصبحنا نقيس كفاءة الحاكم بقلة ما نهبه، ومحافظته على حدود وطنه دون إضافة، وأخشى أن يأتي علينا يوم تتسرسب فيه الأراضي من بين أصابع الحاكم.

العدل قبل الخبز دائمًا

خرج أحد القرويين واسمه "خو إن أنوب" من قريته بوادي النطرون لبيع بعض محاصيله في مدينة إهناسيا، ثم يشتري بثمنها غلالاً يعود بها إلى أهله، أعدت له أسرته زاد الطريق، وحمل حميره بالمحاصيل وسار في طريقه حتى أصبح على مقربة من مدينة إهناسيا، لكن في أثناء سيره، رآه من بعيد شخص يسمى " تحوتي نخت" وكان من أتباع رئيس مديري القصر الملكي، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم، ولما تفحص " تحوتي نخت" ذلك القروي بحمولته الضخمة، أضمر له شرًا، وعزم على اغتصاب بضاعته، وساعده في ذلك أن بيته كان قريبًا من جانب الطريق الضيق، وكانت حقول رئيس مديري القصر الملكي التي يشرف عليها على أحد جانبي الطريق، وعلى الجانب الآخر ترعة كبيرة، أمر "تحوتي نخت" أحد خدمه فأحضر له قطعة من القماش فرشها بعرض الطريق، فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع في الحقل، وتدلى الطرف الآخر في مياه الترعة، وعندما اقترب القروى حذره " تحوتي نخت" من أن تدوس حميره على النسيج، فخضع القروي للأمر وأجابه سمعًا وطاعة، وقاد حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل، وفي أثناء سيره مال أحد الحمير وأكل شيئًا من الحقل، وعند ذلك قال "تحوتي نخت" إنه سيستولي على ذلك الحمار ثمنًا لما أكله، صرخ القروي سائلاً: هل من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه؟ ثم استطرد قائلاً: إنني أعرف صاحب هذه الضيعة، إنها ملك رئيس مديري القصر، إنه هو الذي يقف في وجه اللصوص في أنحاء البلاد فهل أسرق في ضيعته؟ عند ذلك نهره "تحوتي نخت" وأخذ غصنًا من شجرة وأوسعه ضربًا وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة.

بكى القروى بكاءً مرًا ولم يتركه "تحوتي نخت" وشأنه، وأمره بالسكوت لأنه على مقربة من معبد "أوزوريس" ولا يصح أن يزعج العالم الآخر، فصاح في وجهه القروي: ضربتني وسرقت متاعي وتأبى إلا أن تأخذ أيضًا الشكوى من فمي!! وظل القروي المسكين عشرة

أيام كاملة يستسمح ويستجدي ظالمه دون جدوى، ولما يئس سار في طريقه إلى العاصمة ليشكو "تحوتي نخت" ووصل فعلاً إلى رئيس مديري القصر الذي كان اسمه "رنسي" وطلب منه أن يستمع إلى شكواه، وأرسل "رنسي" تابعه إلى القروى كي يستمع إلى القصة بحذافيرها، ثم رفع "رنسي" الأمر إلى القضاء، لكن القضاة لم ينصفوا القروى وقالوا إنه لابد أن يكون أحد فلاحي "تحوتى نخت" الذين تركوا العمل عنده، وذهب ليعمل عند الآخرين، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أي قروى يفعل ما فعله، وأضافوا: هل يعاقب النبيل "تحوتي نخت" بسبب كمية تافهة من النطرون والملح وهي كل بضاعة القروي، وإذا أردت أيها الأمير "رنسي" أن تعوض القروي عنها فعوضه، دون معاقبة تحوتي، لكن الأمير "رنسي" لزم الصمت ولم يرد على القضاة ولا على القروي ولم يعاقب تحوتي.

ولم يحبط القروي أو يستسلم، جاء مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطبًا الأمير "رنسي" في بهو قصره، ومذكرًا له باليوم الآخر، وهو يطلب منه أن يقيم العدل في حياته حتى ينال العدل بعد موته، وفي مرة تالية قال له: إنك أبو اليتيم، وزوج الأرملة، وزوج المرأة المهجورة، ودثار من لا أم له. وأعجب الأمير "رنسي" بفصاحة القروي فذهب إلى الملك وقال له: سيدي لقد وجدت واحدًا من هؤلاء القرويين، فصيحًا بحق، لقد تعدى عليه أحد رجالي وسرق ما معه وجاء إليّ يشكو من ذلك، ففتنت من بديع كلامه. فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروي يطيل إقامته ليستمر في الشكوى، وأمره أن يكتب كل ما يقوله حتى يستفيد الشعب من فصاحته، وفي الوقت ذاته يُعنى بأمر زوجة القروي وأطفاله فيرسل إليهم ما عساه يكفي لقوتهم، وأن يُعنى أيضًا بأمر القروي نفسه ويرسل إليه الطعام دون أن يعلم بأنه هو الذي أمر بترتيب ذلك له، وجاء القروي مرات أخريات وفي كل مرة كان يلقي بشكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى بلغت شكواه تسعًا، أبدع فيها، وكانت كلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم، ومساوئ الطمع والتكبر على الناس، وفي آخر شكواه التاسعة يئس القروى تمامًا من تحقق العدل وصمم على قتل نفسه وكتب يقول: إني تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن

عندما يقترب من الماء، وكما يتوق الرضيع إلى لبن أمه، وعند ذلك أمر الملك نائبه بأن يتولى هو الحكم في القضية، فأرسل اثنين من الشرطة لإحضار "تحوتي نخت" وأرضى القروي إذ عوضه عن كل ما فقده، كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه "تحوتي نخت".

وانتهت تلك القصة البديعة بما كانت تدعو إليه الشكوى، وهو حماية الفقير من الغني، وأن يكون الحاكم سياجًا يحمي الضعيف من عسف القوي، وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوي النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا المساكين دون أن تنالهم يد العدالة.

(هذه البردية تسمى باسم "بردية القروي الفصيح" وقد كتبت في أواخر سنوات الأسرة العاشرة التي حكمت مصر من عام ٢٢٦٢ ق.م حتى ٢١٢٣ ق.م، أي مما يقرب من ٤١٠٠ سنة، وكان العالم الأثري "شابا" أول من لفت إليها الأنظار في عام ١٨٦٣، وقد ترجمها الأستاذ سليم حسن في كتابه المهم " الأدب المصري القديم")

ناس وكارتون

وجدت نفسي مفطورًا على الاهتمام والالتفات إلى المهمشين، كارهًا التعالي والافتعال، فحين تصيب الشهرة أحدهم بالصدفة، تقلبه إلى شخص آخر، تجده ناظرًا إلى الأمام لكنه لا يرى غير نفسه، وحدث أني رأيت مرة أحد الكتّاب الشباب (لم ينشر غير كتابين عاديين، وله عمود يومي ساخر بإحدى الصحف لا بأس به) لمحته يتهادى بالقرب من فرشة عم رمضان، أشهر بائع صحف بالقاهرة، تلك الفرشة التي في قلب ميدان التحرير، وفي نفس التوقيت، كانت هناك فتاتان خارجتان من فتحة المترو، لفت نظرهما فتهامسا ليتأكدا من كنيته. إحداهما كان من الواضح أنها تحب كتاباته جدًا، لأنها أسرعت بإخراج "بلوك نوت" من حقيبتها، وهي تشد صديقتها من يدها لكي تلحق به، والفتاة المسحوبة تكاد تتعثر وتتكعبل في ردائها الطويل، خبطت الأولى برفق على كتفه من الخلف، وقف الكاتب الشاب ثم استدار مستفهمًا، وعندما لمح "البلوك نوت" ابتسم ووقع لها عليه، وهو يستمع لمديحها بعين زائغة، ثم سلمها "البلوك نوت" وأحنى رأسه لهما بحركة مسرحية، وسمعته وهو يمر بالقرب مني، ويقول لصديقه بتأفف: "أهي المناظر دي اللي بتخلي الواحد ما يحبش يمشي كتير في الشارع".

لو حصل هذا الكاتب على جائزة "نوبل" ماذا سيفعل بمعجبيه؟ هذا مايجعلني لا أحب رؤية من في بؤرة الضوء، لذا عندما أشاهد مباراة تنس عالمية بين لاعبين أو لاعبات شهيرات، لا أهتم بالمباراة بقدر اهتمامي بالفتاة الصغيرة التي تجري لاهثة لالتقاط الكرات، ثم تتوقف لمتابعة المباراة بعد أن تنظر برهة إلى الخلف حتى تتأكد من أنها لا تحجب الرؤية عن أي شخص من الجماهير التي تتابع المباراة، أفضل أيضًا الاهتمام بـ"الكورال" عند مشاهدتي للحفلات الغنائية في التليفزيون، إذا ما حانت لحظة ترديدهم للكوبليهات المنوط بهم غناؤها، تجدهم يؤدون عملهم بإخلاص، مندمجين تمامًا في الحالة الغنائية، وعندما ينفرد المطرب أو المطربة بالميكرفون، تراهم في الخلفية على

راحتهم، هناك من يهمس إلى زميله، وآخر يدب إصبعه في أذنه لينظفها، وأحدهم يعدل الكرافته، ولن تعدم رؤية من يهوش في أماكن حساسة.

جرب أن تشاهد الأفلام التي تذاع في التليفزيون وخصوصًا القديمة منها، وراقب ما يحدث من هؤلاء البؤساء في خلفية المشاهد، ستجد من يبدو عليه أنه يمثل مضطرًا، وآخر منجذب إلى زميلته التي تراقصه، وفتاتان تكتمان ضحكهما على ما يدور من حولهما، وشخص رغم أنه يظهر كنقطة صغيرة على الشاشة، يبتسم بوقار، مستعرضًا فتوته، متوهمًا أن مخرجًا كبيرًا يشاهد، وسيكتشفه.

جرب أن تزور مقهى "بعرة" بشارع عماد الدين، وهو المقهى الذي يرتاده كل من يعمل بمهنة الكومبارس، عليه يجلسون، وتأتيهم "الأوردرات" لحد باب المقهى، لو جلست على هذا المقهى ذات يوم، ستسمع حكايات طريفة، وحكايات مأساوية، يحكونها بابتسامة، ستعرف كيف لطمتهم الأيام وراء حلم النجومية، وكيف انتهى بهم الحال، إلى تسول الظهور بين المجاميع، سترى كيف يتكاتفون ويتعاونون، سترى المعدن الأصيل لهؤلاء المهمشين.

أذكر أنني تعرفت في منتصف الثمانينيات بمقهى "علي بابا" على شاب يعمل بتلك المهنة "كومبارس"، كان متزوجًا من زميلة له، ضاقت بها الأحوال بعد تردي السينما المصرية، وذيوع سينما المقاولات التي تهتم بالكم لا بالكيف، وتوفر في نفقات الإنتاج وتمحنهم أقل الأجور، ومن يعترض يصرخ "الريجيسير" في وجهه: "اللي مش عاجبه.. الباب يفوت جمل". الفتى وزوجته كانا طيلة شهر رمضان يشتريان كل الصحف والمجلات التي كانت تصدر آنذاك، والتي كانت تنشر الفوازير التي تذاع في جميع وسائل الإعلام، كانا يسهران حتى السحور وهما يحاولان حل هذه الفوازير، ويسألان كل من بالمقهى عن الحلول، وفي نهاية الشهر يرسلونها لعلهما يكسبان الجوائز الكبرى (شقة فاخرة على النيل، سيارة

أحدث موديل، تليفزيون ملون، جهاز فيديو بيتامكس) ومرت سنوات، ولم يكسبا حتى خلاط "براون" الذي هو في آخر قائمة الجوائز.

نفس هذين الشخصين، الرجل والمرأة، كانا يتضوران جوعًا ذات يوم، وهما يجلسان بمطعم فاخر، وأمامهما الدجاج والأرز والبطاطس والمشروبات الباردة، وكان المطلوب منهما – كباقي كومبارس المشهد – ألا يمسا الطعام إلا بعد انتهاء تصوير المشهد، لكن الجوع كافر، بمجرد أن صرخ المخرج: "أكشن" انهالا على الطعام حتى لم يتبق إلا بعض العظام الممصوصة على المائدة، ولسوء حظهما لمح المخرج المائدة التي يجلسان عليها قبل إعادة المشهد للمرة الثانية، صرخ المخرج في الريجيسير"الشخص المسئول عن توريد الكومبارس" الذي طردهما شر طردة، دون أن يدفع لهما حساب يوم العمل، الغريب أنه بعد هذا اليوم المشهود، أصبح المنتجون يرشون على الطعام بيروسول حتى لا يأكله الكمبارس قبل انتهاء المشاهد، وعندما لم يهتم الكومبارس وأكلوا الفراخ بالبيروسول، استبدل المنتجون الأكل الطبيعي بنماذج طبق الأصل من البلاستيك.

تاج السلطنة

الرجل محب الخير والعدل، بعد أن استفزه الظلم الذي يعم العالم، وقف وحيدًا في الصحراء، وأمامه الرمال والكثبان والجبال الراسيات، وقال بصوت قوي فيه تضرع وابتهال "أريد أن أحقق العدل للناس.. أريد أن أصنع الخير لكل الناس"..

ربت كتفه شيخ مسن بوجه صبوح، تبسم في وجهه وأشار بإصبعه تجاه الصحراء المترامية وهو يقول له "اسع في أرض الله الواسعة.. ستجد مبتغاك". وكما ظهر اختفى الشيخ فجأة، فهام صاحبنا على وجهه مخترقًا الصحراء، أيامًا كثيرة مرت ومسافات طويلة قطعها حتى وجد مدينة كأنها تسبح على حقول خضراء، دخلها فوجدها في هرج ومرج، الرجال يتسابقون تجاه مكان ما، النساء يزغردن في حبور وهن سائرات خلفهم، سار في إثرهم حتى لحق بهم عند الساحة الكبيرة للمدينة، كانت تتلبسهم حالة من الوجد الصوفي وهم يشكلون دوائر كبيرة، تتراقص أجسادهم وهم في مكانهم ينظرون تجاه السماء، اندس بينهم متحيرًا، سأل أقربهم إليه عما يحدث، كان الجار منشغلاً تمامًا عنه فلم يجبه، سأل الذي بجواره من الجهة الأخرى، ترفق به الرجل عندما علم بأنه غريب، أخبره بصوت خفيض بأن هذا يوم تنصيب السلطان الجديد الذي سيحقق العدل والخير للناس، وأن علامة تنصيبه أن يتبرز الغراب على رأسه ثلاث مرات، أحس صاحبنا أنه دخل في مدينة للمجانين لكنه لم يتورط بالتعليق، وفجأة ارتفع صوت الناس عندما شاهدوا أسراب الغربان تحوم فوقهم، انطلقت الرجاءات والتوسلات.. "من فضلك يا غراب اقترب وتبرز على رأسي.. أنا أحب الخير للناس".... "لا تخذلني أيها الغراب الجميل كالمرات السابقة ها هو رأسي تحت إمرتك فتبرز عليها حتى أقيم العدل بين الناس".. كاد صاحبنا يضحك من توسلاتهم المذلة لولا أنه أحس بشيء رطب يفترش رأسه، والناس يصفقون ويهللون، بعضهم يقبله وبعضهم يقولون له: أنت الآن ثلث سلطان.. اثبت في مكانك علّ الغربان تكمل عليك بركتها. ويبدو أن الغراب أعجب برأسه المستدير لأنه عاد وتبرز عليه مرة

ثانية فأصبح ثلثي سلطان، لكن تأخر عنه الغراب في المرة الثالثة مما جعله يناشده بجنون أن يتبرز على رأسه ليصبح سلطانًا كاملاً، وقد كان ومنحه الغراب ما يتمناه، وتم تتويجه في حفل أسطوري كبير، ثم حملوه إلى قصر السلطان ليقيم العدل بينهم.

تنعم صاحبنا بالجاه والسلطان وحرص في بداية حكمه على تحقيق العدل ودرء الظلم عن المواطنين، وعندما مر نصف العام تنبه إلى موعد التتويج التالي فربى مجموعة كبيرة من الغربان فوق سطح القصر، واهتم بها اهتمامًا كبيرًا لدرجة أنه كان يطعمها ويسقيها بنفسه، ولما حل يوم التتويج ردت له الغربان جميله وتبرزت على رأسه فاحتفظ بتاج السلطنة، وهنا أصبح شغله الشاغل أن يملأ قصره والحدائق الملحقة به بالغربان، وصار يطعمها أفضل الأطعمة ويسقيها من أفضل الأنهار، كما خصص لها بعض الحدائق لتكون ملاعبها الخاصة، وحذر الناس من مطاردتها أو إيذائها، ونعمت الغربان بالخير وبالغ الناس في وصفها وقالوا إن الواحد منها أصبح في حجم الديك الرومي..

وفي العام الرابع من حكمه احتفالاً بتتويجه مرة أخرى، أصدر فرمانًا يلزم كل فرد من أفراد شعبه بتربية الغربان في أفضل غرفة من مسكنه، والاعتناء بها وتدليلها وتغذيتها تغذية جيدة، وأن تعلق صور السلطان على جدران الغرف التي تعيش فيها الغربان، حتى تتذكره ولا تخذله في يوم التتويج، وكثرت الغربان جدًا واحتلت سماء المدينة فحولتها إلى سماء سوداء معتمة، وخفتت كل الأصوات بالمدينة وساد صوت نعيقها الذي أصبح يحول بين سماع الزوج إلى حليلته، والأخ إلى أخته، والابن إلى أبيه، وكبرت الغربان أكثر حتى أصبح بعضها في حجم البقرة، غير قادر على الطيران، ويسير متهاديًا في الطرق من فرط بدانته، وتوحشت الغربان جدًا فأفنت حقول القمح والذرة، وطاردت الحيوانات الأليفة والطيور الداجنة، ثم تمادت أكثر وهاجمت الناس في مساكنهم وأكلت من مطابخهم ونامت على أسرتهم، وعندما ضج منها الشعب قدموا الشكاوي المتتالية إلى مقر السلطنة، ولما لم يسمع السلطان لشكاوي أفراد شعبه، ترك أغلبهم المدينة وهاجر إلى مدن أخرى، وفي

يوم التتويج الجديد، وقف السلطان وحيدًا في الساحة الكبيرة للمدينة، وحامت فوق رأسه كل غربان المدينة القادرة على الطيران ثم أمطرته ببرازها، فمات وسط غائطها.

مضمون هذه الحكاية للكاتب التركي الرائع "عزيز نيسين" وقد أعدت كتابتها بتصرف لضيق المساحة، والكاتب عزيز نيسين الذي توفي عام ١٩٩٥، يعتبر من أفضل كتاب الكوميديا السوداء في العالم ورغم شهرته الواسعة في العالم إلا أن بلده تركيا لم تعطه من حقه سوى القليل، وكذلك لا يعرفه في العالم العربي إلا القليل، فتحية له على إبداعه الجميل، وتحية أخرى للشاعر المصري الجميل الذي ذكرني بعزيز نيسين وأعماله "زين العابدين فؤاد"، صاحب أجمل قصائد المقاومة والنضال ومنها بيت شعره الشهير "مين يقدر يحبس ساعة مصر" وقصيدته "الفلاحين بيغيروا الكتان بالكاكي.. ويغيروا الكاكي بتوب الدم" التي أشاد بها شاعرنا الكبير مأمون الشناوي وقال إنها من أجمل ما كُتب عن حرب أكتوبر، وقد كتبها زين في أول أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣ وهو مجند بالقوات المسلحة، يقاتل بين صفوفها، فتحية له بسبب صموده ونبله وبمناسبة بلوغه سن السبعين في الشهر الماضي.

إذا تفرقت الغنم.. قادتها العنز الجرباء

تُعين مؤسسة ما مديرًا للأمن كي يحمي مقرها، الذي له أربعة أبواب، ولأن مدير الأمن هذا ضعيف وغير واثق من قدرته على حماية هذه المؤسسة، يبدأ بغلق ثلاثة أبواب من المداخل الأربعة، ويضع جنديًا صارمًا ومدججًا بالسلاح على بابٍ واحد، يفتش ويستفز ويضايق الداخلين والخارجين الذين كلما شكوا من التضييق عليهم، تصور مدير الأمن واهمًا أن ولي أمره عندما يعلم بهذا سيظن أنه مسيطر على الأمن والأمان بداخل تلك المؤسسة.. وهذا هو حالنا في عالمنا الثالث بينما في الدول الكبرى، كل البنوك والشركات وحتى المحال بالشارع، تكاد تراها بلا حراسة وبلا رجال أمن.. لكن هناك كل شيء محمي ضمن آلياته، وعندما يتعرض أحد هذه الأهداف لشبهة اختراق أو هجوم، يتدفق رجال الأمن من كل فج عميق ويحبطون المحاولة ثم يقبضون على الجناة، بعضهم أو كلهم.

أما على مستوى إدارة الدولة نفسها، فبعض حكامنا يتعاملون معها كالميكانيكي الفاشل، عندما تقابله قطعة غامضة بالنسبة إليه في "الموتور".. يلقي بها ويتبجح معلنًا أنها ليست لها لازمة، ويصر على إدارة المحرك بدونها.. وقد كان عندنا زعيم كبير هو عبد الناصر، ضاقت عليه مصر فقرر التمطي والتمدد في البلاد العربية، وفشلت أحلامه الوحدوية في ضم السودان أو سوريا أو اليمن، وانفصلت الواحدة تلو الأخرى، ثم أُحبط توغله الأفريقي بفعل نكسة يونيو، فمات من فرط القهر والانكسار.. ثم تولى السادات بعده، وسار بضع خطوات قصيرة على طريق عبد الناصر في فكرة الوحدة مع السودان وليبيا، ثم سرعان ما تراجع عن أفكار الوحدة أو التكامل، واتخذ قرار الحرب لاسترداد أرضنا التي فقدناها في حرب يونيو ١٩٦٧، ونجح في العبور والنصر الجزئي على إسرائيل، ثم عقد اتفاقية السلام التي أعادت لنا سيناء، منقوصة السيادة إلى حد ما، لكنه لم يفرط في أرض مصر وهذا يحمد له.. أما مبارك فقد نفض نفسه من فكرة العروبة أساسًا وجعلنا نشارك في

حروب مدفوعة الثمن، لكنه قزم مصر أيضًا تحت فكرة أنه كبير العيلة، حتى لفظته العيلة وألقته خارجها، ثم جاءنا الرئيس محمد مرسي وراء شعار أول رئيس مصري منتخب، يحدثنا بمنطق زعيم القبيلة أو العشيرة.. يتعامل مع مصر بمنطق مدير الأمن الذي أشرنا إليه سابقًا، تحدث مشكلات وتجاوزات في سيناء دون ردود أفعال قوية من قبله، بعض أهل مدن القناة يخرجون غاضبين من أحكام قضائية، ورجال الشرطة يفضون مظاهراتهم بالقوة ويُفرض عليهم حظر تجول لمدة ٣٠ يومًا، فيخرجون جميعهم إلى الشوارع في ساعة الحظر متحدين هذا القرار غير المدروس.

يقال أن للرئاسة مستشارين، ولحزب الحرية والعدالة الذي يعاونه في الحكم حكماء.. إذن ما كل هذا الارتجال والتخبط الذي قد يفرق بين المصريين فعليًا؟.. مصر التي عاشت أكثر من سبعة آلاف سنة في وفاق ووئام، رغم المحتلين والغزاة من الشرق والغرب، كارثة كبرى أن تؤدي تطلعات فصيل صغير إلى كل هذا التشقق والتصدع.

كلنا مسلمون وكلنا غيورون على الإسلام.. لكن الدول تحكم بالتوافق لا بالنوايا الحسنة.. تحكم بالعدل والمساواة بين كل عناصر المجتمع لا بالطيبة، فالطيبة كما يقول المثل الياباني هي الوجه الآخر للامسئولية.. بعضكم يتباكى الآن على سقوط الأندلس وينادي باستعادتها.. سقوط الأندلس يا سادة بدأ بعد خمسة قرون من الاستقرار، كانت فيها الأندلس مركزًا للعلوم والفلسفة والآداب، تعاون فيها المسلمون والمسيحيون واليهود، وأنتجوا حضارة فريدة من نوعها، حتى هاجر إليها الموحدون والمرابطون من شمال أفريقيا، هؤلاء الذين جاءوا بفكر متعصب يختلف عن الفكر الأندلسي المتسامح، فكر أحادي يرى كل ما دون المسلمين كفارًا يجب محاربتهم، ثم بعد ذلك انقسموا على أنفسهم، وحولوا الأندلس إلى إمارات صغيرة تحارب بعضها بعضًا.. هؤلاء هم المتزمتون الذين أحرقوا كتب العلامة ابن رشد ونفوه من قرطبة إلى مراكش.. ثم بعد أن تسببوا في طردهم من الأندلس ظلوا لقرون يتباكون عليها.

أيها القارئ إن احتجت إلى مثل قريب مكانيًا وزمانيًا.. انظر الى ما تحول إليه السودان الآن.. ظل الجنوب السوداني مضطهدًا لزمن طويل من أهل الشمال، الذين كانوا يتعالون عليه لأنهم مسلمون، وأهل الجنوب كفار، ولم تقدم الحكومة المركزية في الشمال أية خدمات في البنية التحتية أو في تنمية المجتمع في الجنوب.. وتركوهم في بدائيتهم، وجلبوا أولادهم إلى الشمال للعمل في المهن الوضيعة.. ولم يكن هذا شيئًا مستترًا بل كان مكشوفًا أمام العالم كله، لدرجة أنه في امتحان الشهادة الابتدائية بالسودان كان هناك سؤال شهير اعتادوا سؤاله للتلاميذ: أيهما يرتدي الجلباب والعمامة و أيهما يسير عاريًا؟

١ . جنوب السودان..... ٢ . شمال السودان.

كانوا يعيشون على موارد الجنوب، ثم يحرمونهم من الملابس والأحذية ويسخرون منهم.. وبذلك أصبح السودان بلدين وغدًا من يعلم كم سودانًا سيصبح؟

الآن عندما تسأل أي شخص من البلد الجديد "جنوب السودان":

الطيب صالح من أين؟

ستكون الإجابة قوية وسريعة: من السودان يا زول.

وعندما تسأله: السيد عمر البشير من أين؟

سيجيك: من شمال السودان يا زول. تأمل دلالة هذه الإجابة ودلالة هذا المثل العربي العبقرى "إذا تفرقت الغنم.. قادتها العنز الجرباء"، وادعُ معي أن يحفظ الله مصر.

نهايات الهجرة إلى انشمان

صديقي الروائي السوري الكبير الذي يلوذ بالقاهرة حاليًا خوفًا من بطش ودموية بشار الأسد، حكى لي عن رحلته إلى المغرب وزيارته لمدينة طنجة، وقال لي إنه دُعي يومًا إلى مطعم كبير وفاخر بمدينة طنجة، ولفت نظره أن بمدخل المطعم "دولابًا" خشبيًا من طراز عتيق بواجهة زجاجية بها مفتاح نحاسي كبير وُضع على قطعة من القطيفة الحمراء، وعندما لاحظ صاحب المطعم تفرّس صديقي في المفتاح، اقترب منه وقال: إن هذا المفتاح هو مفتاح بيتنا في الأندلس، وقد ورثه منذ قرون، عن جده الأكبر الذي عاد به من الأندلس وكان لديه حلم بأن يعود إليه يومًا ما، ومضت السنوات تلو السنوات ولم يعد الجد أو أي من الأحفاد، وبقي المفتاح، وأضاف صديقي السوري بأسىً وصوته يتهدج أنه غادر مع عائلته بيته بالشام بلا أغراض ولا مفتاح، وأنه يخشى أن يعود يومًا إليها، فلا يجد البيت أو يجد ركامًا من الأحجار خلفته طائرات النظام القمعي.

هذه المحادثة ذكرتني بموضوع كان يلفت نظري كثيرًا عند زياراتي إلى أوروبا، وهو موضوع المهاجرين العرب المنتشرين في كل بقاعها، خصوصًا كبار السن ممن يطلق عليهم "المهاجرون الأوائل" الذين يفقدون التواصل مع وطنهم الأم، ثم يكتشفون بعد مضي العمر أنهم يعيشون في بلاد ليست بلادهم، وأنهم أنجبوا جيلاً ثانٍ من المهاجرين ضعيف الانتماء إلى جذوره، وبعد ذلك جاء الجيل الثالث من المهاجرين، وهو جيل في الغالب غير منتمٍ، وجاهل بثقافة ولغة أصوله وغير مرحب به من أقرانه أبناء السكان الأصليين للبلد الذي يحمل جنسيته، ولا تدل عليهم إلا الأسماء العربية التي يحملونها ويحرفون حروفها حتى يطمسوا هويتها، وهذا الجيل الثالث من المهاجرين يعاني مشاكل كبيرة في التعامل مع الغرب، ويحل بعض هذه المشاكل بأحد حلّين إما أن يتناسى أصوله تمامًا ويكفر بها، ويقدم القربان تلو القربان إلى الغرب حتى يقبلوا به وسطهم، وإما أن ينعزل

ويبحث عن جذوره، ويقرأ في تراثه ويأخذ منه أشد الأفكار تطرفًا ورجعية يهاجم بها الغرب الكافر (من وجهة نظره)، فيقع في مستنقع من المشاكل تورطه وتورط عائلته كلها معه.

في رحلتي الأخيرة إلى برلين عام ٢٠١٠، تعرفت إلى أحد هؤلاء المهاجرين الأوائل، الذين سافروا واستقروا بألمانيا في منتصف الستينيات، كان مسنًا وضعيفًا ويجلس على دكة خشبية بمقربة من حديقة شاسعة الأرجاء (مساحتها تقريبًا حوالي ٥٠ فدانًا)، كنت أمر على الحديقة مرتين في اليوم، في الصباح متجهًا إلى مقر مهرجان برلين الدولي للآداب، وفي المساء عائدًا إلى الفندق الذي يجاور الحديقة، ملامحه الشرقية أغرتني بالتحدث معه والتعرف إليه، كانت أصوله من العراق، حدثني عن زواجه بألمانية أنجب منها ثلاثة أولاد، وتزوج الأولاد بفتيات ألمانيات أيضًا، وخرج إلى الوجود الجيل الثالث، أحفاد هذا الرجل الذين كانوا ينظرون إليه كأحد غرائب الطبيعة، وكلما زاد مقدار تعليمهم، نفروا من أفكاره وسخروا من تقاليده وزادت الفجوة بينه وبينهم، وضايقوه بشدة بتصرفاتهم ولامبالاتهم بعد وفاة جدتهم "زوجته"، وأوعزوا إليه ببيع شقته الواسعة لحاجتهم إلى نقود لمواجهة نفقات التعليم، فباعها ومنحهم الجزء الأكبر من النقود، وأجر لنفسه "ستوديو" صغيرًا عبارة عن غرفة وحمام، بعد ذلك تقلصت وتناقصت زياراتهم له، حتى أصبحوا يزورونه فقط في المناسبات الدينية "الغربية" ويتجاهلون زيارته في الأعياد الإسلامية.

الأستديو بجوار الحديقة، والدكة الخشبية أصبحت ملاذه الأخير، كان يجاوره على نفس هذه الدكة مهاجرون أوائل في نفس ظروفه، كلما غاب عنه أحدهم، أدرك أنه مات أو أودعوه في دار للمسنين، لم يكن يسأل عنهم، كان يخشى من الأخبار السيئة، عقب مغيب الشمس كان يغادر دكته، ويسير أمام ممر الحديقة المحاط بالأشجار متجهًا إلى شقته، وكان هناك أعلى ممر الحديقة لافتة مكتوب عليها تحذير بلغتين، الإنجليزية والألمانية، اللافتة تحذر من التوغل بالحديقة ليلاً، ففي نهايتها محمية للحيوانات الضارية كالدببة والثعالب والضباع، تلك الحيوانات تنطلق على سجيتها ليلاً ولا يفصلها عن الحديقة غير سياج من سلك صلب رفيع، غادرت برلين ومازال بداخلي خوف أن يخطئ

هذا المهاجر طريقه، ويخترق الممر فتقطه الحيوانات الضارية إربًا، ولأنه شرقي وملامحه شرق أوسطية كما يكتبون في محرراتهم الرسمية، فلن يهتموا بالأمر، وقد يذكروه كطرفة في إحدى مجلاتهم.. وهذا غير غريب عنهم، فهذه المدينة العريقة، مدينة برلين، عند افتتاح حديقة الحيوان بها في ١ أغسطس عام ١٨٤٤، كان يوجد بأحد أقفاصها أسرة أفريقية مكونة من شيخ مسن وشاب وزوجته وطفل صغير، وكان مكتوب على القفص "أسرة همجية تم صيدها من أحراش أفريقيا"، وكان الزائرون يقدمون إليهم الموز والفول السوداني.

أنا والمحمول وهواك

كنت من أشد المعارضين لفكرة اقتناء هاتف محمول وكانت لدي أسباب وحجج منها أنه سيعطلني عن الإبداع، وسيفسد خلوتي عندما يلاحقني في كل مكان حتى بداخل دورات المياه، ثم بدأ أصدقائي الذين كانوا يقفون معي على خط واحد، يتساقطون واحدًا تلو الآخر ويشترونه ويستعرضون إمكاناته بفخر وتيه، ولم يترددوا فى إقناعي بمميزاته: "سيفتح لك أبوابًا جديدة للرزق"، "كل من يريدك فى عمل سيجدك بسهولة"، "لن يكون لك مستحقات مالية متأخرة لأنك ستلاحقها لحظة بلحظة"، ولم أقتنع وكلما طالت قائمة المميزات التى يفردونها أمامي كنت أزداد عنادًا ومكابرة، لكن ما بدا صعبًا وعسيرًا أمام أبناء جيلي واللاحقين بهم، كان هينًا يسيرًا عند الأجيال الجديدة، كانت ابنة أختي ذات السنوات الخمس تلعب إحدى الألعاب على محمولها . الذي وبخت أختي عندما اشترته لها فقالت لي بتبلد: لكي أتابعها فى الحضانة . لاحظت الطفلة أني أراقبها وهي تلعب فابتسمت وقالت لي: تحب تلعب يا خالو اللعبة دي؟ اعتذرت لأن الشاشة صغيرة ونظري ضعيف، فقالت بثقة: ممكن أكبرلك الشاشة لو تحب، واتجهت بمحمولها نحوي، لكني أشحت بيدي فانصرفت مندهشة، لكن هذا الجيل الذى سيمسح قذارتنا وأصنامنا وبناياتنا وزهونا الفارغ لم يتركني حتى أقنعني بشرائه من خلال ابن أخي الذي لم يبلغ الخامسة عشر من عمره بعد، ثم رافقني في رحلة الشراء، وانتقى لي واحدًا بالمواصفات التى طلبتها.. أن يكون بسيطًا غير معقد وأرقامه وحروفه كبيرة.. ثم قام أيضًا بخدمة ما بعد البيع، وظل لفترة ليست بالقصيرة يعلمني كيف أستخدمه وكيف أستفيد من بعض إمكاناته.

وبدأت أعجب بفكرة وضع رنات ومطالع أغنيات تميز الاتصالات القادمة لي، وصرت أتفنن فى اختيارها بحيث تعبر عن طبيعة المتصل وهو في جيبي، دون أن أخرجه وأتطلع إلى شاشته، الأشخاص غير المرغوب فيهم وتصلني منهم أخبار مؤلمة، كانت الرنة التى

ميزت بها رسائلهم من خلال صوت أجش يظل يردد "الرسالة فيها سم قاتل" على غرار العبارة الشهيرة الدواء به سم قاتل، التي قيلت في فيلم "حياة أو موت"، الزملاء الذين يتربصون لي ويتأبطون شرًا بي، وضعت لهم مقدمة أغنية فايزة أحمد "ابعد يا شيطان ابعد يا شيطان.. إن جيت م الباب حنسد الباب بحجر صوان.. وإن جيت م الشيش حنرد الشيش ونعيش ف أمان"، أما الأصدقاء والصديقات فقد كنت أضع فقرات من الأغاني والعبارات المأثورة التي قيلت في الأفلام الشهيرة، لكل حسب درجة قربه أو بعده مني، معتادو الاقتراض دون رد ما يقترضونه مني كنت أضع لهم عبارة إيستفان روستي " نشنت يا فالح "، والأصدقاء الذين يملأون حياتي بهجة ميزت اتصالاتهم بمطلع أغنية فريد الأطرش "ليه الدنيا جميلة وحلوة وانت معايا"، وراقني هذا الموضوع جدًا وصرت أبدل وأغير الأغنيات حسب ما يستجد من أمور، ثم حدث أن جلست مع صديقة حميمة جدًا، وكانت مشاعري تجاهها قد بدأت تأخذ منحنى آخر مبتعدة عن الصداقة ومقتربة من الحب، وكانت هي في أوج مشاكلها مع حبيبها وتشكو لي يوميًا من أفعاله، وتهتم بنصائحي وتعمل بها، لذا لم أخبرها بتحول مشاعري، وأرجأته حتى تحسم موقفها مع حبيبها، واكتفيت بتمييز رنتها بمطلع اغنية عبد الحليم "راح أقولك إيه أجمل م الكلمة اللي ف بالي... اللي إنت مسيرك يوم هتقوليهالي... أحبك".

كنا جالسين خارج المقهى، هي تكلمني باهتمام وأنا أتأمل تفاصيل وجهها بعين جديدة تمامًا، كان حديثها كعادته مشوقًا وعذبًا وكنت متسمرًا أمامها أكتم حاجتي إلى التبول، حتى شعرت ببدايات الدخول في غيبوبة، فاستأذنت منها مضطرًا، وأفرغت مثانتي في مبولة المقهى بالداخل، وعند خروجي قابلت أحد الزملاء القدامى الذي أصر على جلوسي وشرب كوب من الليمون ولم يقبل اعتذاري، ويبدو أن لوني الممتقع وأنا أقوم من حضرتها وتأخري بالداخل لبضع دقائق تسبب بقلقها وجعلها تتصل بي على المحمول، الذي كان في تلك اللحظة بجوار حقيبتي اليدوية على بعد نصف متر منها، ظلت تواصل الاتصال حتى انتبهتْ له ثم انتبهتْ لرنته فأخذته وسمعت مطلع الأغنية أكثر من مرة، وعندما

رجعت إليها كانت قد تبدلت بالكامل، وتصورت أني تركت محمولي بالقصد والعنية، وغالت في التوهم واتهمتني بأني كنت أعطيها نصائح مغلوطة تفسد ما بينها وبين حبيبها حتى تفسد علاقتهما وأحل محله بسهولة، وكأنك دست على زر الـ **Mute** أخذت حوائجي ورحلت، وكان هذا آخر عهدي بها وبالرنات المميزة للأصدقاء والأعداء على حد سواء.

ثم حدث أني كنت في غياهب النوم حين رن محمولي ووجدت اسم صديق حميم لي على شاشته، لكن وأنا أهم بالرد تذكرت أن صديقي هذا قد توفي منذ عدة أشهر، وقد حضرتُ جنازته وشاركت فى عزائه، فزعت بشدة وكدت ألقي بمحمولي على الأرض، ثم تماسكت وأجبت ووجدت زوجته على الطرف الآخر تطلب مشورتي في كيفية تسوية معاش زوجها الراحل، وبعد هذه الحادثة صرت كلما تليقت نبأ غير سار يخص شخصًا في قائمتي، أزيل اسمه من القائمة في غضون بضعة أيام، حتى لا أتلقى منه اتصالاً بعد رحيله عن الحياة، ثم تمكنت مني "فوبيا" إزالة أسماء الراحلين، وضبطت نفسي بمجرد سماعي خبر وفاة شخص من قائمتي، أسرع بمحوه كأنه عدوى خطيرة أخشى أن تطيح بكل الأسماء التى أحتفظ بها، وعند بلوغي تلك المرحلة قررت التخلي عن المحمول نهائيًا، وعكفت أدون كل الأسماء المسجلة به فى نوتة صغيرة قبل محوها، وفي أثناء ذلك، كانت ابنة أختي ذات السنوات الخمس وبضعة أشهر ترقبني بخبث، ثم همست لي: "خالو.. خلي الموبيل بتاعك للألعاب بس" ثم أكملت وهي تشير بيدها الصغيرة تجاه هاتف المنزل: "وابقى شيل تليفون البيت تحت باطك وانت خارج".

اتركوها للمجانين

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رسميًا عقب التفجيرين النوويين في هيروشيما ونجازاكي.. ظهرت مجموعة كبيرة من الأفلام الروائية العالمية تنقل وقائع أغلبها مزيف للحرب من وجهة نظر المنتصر، ثم تلتها مجموعة أخرى تركز على الجوانب الإنسانية في الحرب لتبرر قرار الحسم الدموي الذي أودى بحياة ملايين في غضون يومين.. وبعد استنفاد تلك الموجات من الأفلام المقولبة دعائيًا والمصنوعة بجودة فائقة في الوقت ذاته.. ظهرت الموجة الثالثة، وكان المدى الزمني قد بعد قليلاً عن الحرب، وفي تلك الأفلام تم تقديم صورة شبه جيدة للعدو بخلاف الصورة النمطية التي كانوا يقدمونها للجنود الإيطاليين والألمان واليابانيين المليئة بالقسوة والوحشية وانعدام الضمير مما يسمح للمتفرج في نهاية الفيلم بأن يتعاطف مع فنائهم.. وكلما تقدم الوقت أكثر ظهرت بعض الأفلام التي قد تشيد ببعض المعارك التي خاضها العدو حتى وصلنا إلى صناعة الأفلام التي تتناول فكرة الحرب بأسلوب ساخر وهزلي وتنتقد أداء القادة الألمان وقادة الحلفاء على حد سواء، وتقدمهم بصورة كاريكاتيرية تزيل من عليهم سمت القداسة والبطولة.. لازلت أذكر أحد هذه الأفلام الساخرة وهو يبدأ بالاجتياح الألماني لبعض دول أوروبا والانتصارات المتوالية ضد جيوش الحلفاء وكم الفزع والرعب الذي اجتاح أوروبا والعالم كله من هتلر وموسيلني وفوبيا النازية التي وصلت إلى حدها الأقصى.. كانت هناك بلدة صغيرة مهملة وعدد سكانها لا يتجاوز بضعة آلاف، وكان الجيش الألماني يأكل بنهم بلدة تلو البلدة وهو في الطريق إليها.. وما لبث حمى الهلع والخوف أن وصلت إلى هذه البلدة مع آلاف النازحين من البلدات الأخرى وهم يعبرون بالبلدة فرارًا من العدو. اجتمع سكان البلدة بسرعة غير اعتيادية وجمعوا مدخراتهم وأغراضهم الثمينة.. أوقفوا سيارتهم قبالة البيوت، حملوها بكل غالٍ وعزيز، أجبروا حاكم البلدة على إصدار الأوامر لسائقي الحافلات العامة باصطحاب الأسر التي لا تمتلك سيارات.. نهروا البائعين والبقالين المنهمكين في تحميل بضائعهم ورفعها إلى شاحنات البلدة.. دوت صافرة الإنذار أكثر

من مرة وكان هذا معناه أن العدو على بعد بضعة كليومترات.. عوادم السيارات التي تتأهب للهروب غطت البلدة.. حاكم البلدة قبل أن يضع مفتاحه في "كنتاك" سيارته ألقى نظرة على البلدة ودمعت عيناه، وهو يرى أبواب البيوت المفتوحة على مصراعيها، والمحال التي مازالت بضائعها على الأرفف بعد أن هرب أصحابها، والطيور التي اكتشفت فرار أهل البلدة فنزلت مطمئنة إلى ساحة البلدة تلتقط رزقها.. هدير سيارة أتى من بعيد جعل حاكم البلد يغلق باب سيارته ويهم بالرحيل، لكن السيارة الأخرى وقفت بالعرض أمام سيارته ونزل بصحبته ثلاثة من مساعديه.. صرخوا فيه كيف يعطي تصريحًا بالخروج لأهالي البلدة ولا يهتم بنزلاء المستشفى؟.. نظر الحاكم بغيظ إلى مدير المستشفى الذي كان لا يجرؤ قبل يوم واحد على مخاطبته وجهًا لوجه، واليوم يوبخه أمام طاقم المستشفى، ثم أجاب بأنه لم يعطِ تصريحًا أو خلافه وليس في سلطته ذلك، إنما هرب أهل البلدة بمجرد سماعهم باقتراب العدو.. سأله أحد الاطباء: وما العمل في نزلاء المستشفى هل نتركهم في عنابرهم الموصدة دون أكل أو شرب حتى يموتوا؟.. صافرة الإنذار القوية والقريبة هذه المرة حسمت الأمر.. قال الحاكم لنفسه لو ظللت أتجادل مع هؤلاء الحمقى سنعلق جميعًا على أبواب البلدة.. عاد الى سيارته بعد أن قال لهم افتحوا أبواب عنابرهم واتركوهم لقضائهم، فلم تبق سيارة بالبلدة لأخذهم معها، وإن وجدت السيارة فمن يقودها بعد فرار كل سائقي سيارات البلدة؟ كان الطبيب يهدد ويتوعد بينما أهمله الحاكم وانطلق بسيارته محاولاً اللحاق بسيارة زوجته التي اصطحبت أولادهما ولم تأبه بانتظاره، كان مهتمًا باللحاق بها لا للاطمئنان على أولاده فقط بل ليخبرها بحكاية مدير مستشفى المجانين الذين يريد منهم أن يصطحبوا مرضاه معهم، ضرب مدير المستشفى كفًا بكف ثم عاد إلى سيارته وبصحبته مساعديه يقودها في اتجاه المستشفى لفتح عنابر المرضى وأبواب المستشفى وتركهم في شوارع البلدة، في رفقة الطيور والحيوانات التي برزت من كل جزء من أجزاء البلدة بعد إخلائها.. نزلاء المستشفى سيدات ورجال خرجوا من باب المستشفى في أول الأمر بحذر.. فقد كانوا يتجنبون البشر، وعندما فوجئوا بخلو البلدة منهم صاروا يجرون ويفردون أذرعتهم مثلهم مثل الطيور التي تجمعت فوق الصوامع

والقباب وأسطح البيوت وفي مسارات السيارات.. وبعد أن جرى النزلاء ولعبوا، تذكر كل واحد منهم مهنته القديمة وعاد إليها.. الحلاق ذهب الى محل الحلاقة منتظرًا زبائنه، والبقال وجد محل البقالة مفتوحًا فجلس فيه، والحائكة والكوافيرة اتجهتا الى المحلات المتخصصة لذلك..

اقتحم الجنود الألمان البلدة ولم يفاجئهم خلوها من الجنود ورجال الشرطة لكن استرعى انتباههم أن سكانها الباقون عاكفون على أعمالهم دون خوف أو رهبة، ويؤدون عملهم بلا صخب أو جلبة، انكب القائد الألماني على خريطة سير عملياته ويده تلون المكان الجديد الذي احتله، وتعامل جنوده مع أهل البلدة دون أن يخطر ببالهم أن من يدير شئون هذه البلدة ليسوا من العقلاء.

وخلال بضعة أشهر تخلص أهل البلدة من جنود الاحتلال دون أن يدركوا أصلاً أنهم جنود احتلال، كان الجندي يدخل إلى صالون الحلاقة فيستقبله الحلاق "المجنون سابقًا" بمودة ولطف وفي أثناء الحلاقة يجز رأسه لمجرد أن الجندي أطال الكلام معه أو وبخه إذا لم تعجبه الحلاقة، وكذلك كان بائع الفاكهة يضرب زبونه الجندي بطبة الميزان إذا ناوله عملة لا يعرفها أو إذا اشتكى من عطب الفاكهة، لذا فر القائد الألماني بصحبة ما تبقى من جنوده هربًا من تلك البلدة المجنونة تاركًا خلفه عدته وعتاده، ودخلت هذه البلدة التاريخ بسكانها السلميين الذين واجهوا جنود المحتل المسلح الغاشم وأجلوهم عنها بكل سهولة.

الفهرس

صدر للكاتب

١- الركض وراء الضوء مجموعة قصص ١٩٨١

٢- فئران السفينة رواية ١٩٩١

٣- حالة رومانسية مجموعة قصص ١٩٩٢

٤- راكبة المقعد الخلفي مجموعة قصص ٢٠٠١

٥- تغريدة البجعة رواية ٢٠٠٧

٦- سرى الصغير مجموعة قصص ٢٠٠٨

٧- ليكن في علم الجميع سأظل هكذا قصص ٢٠٠٩

٨- مقتنيات وسط البلد كتاب عن الشخصيات والأماكن ٢٠١٠

الكتابة للأطفال

١- فى مجلات ماجد وبلبل وقطر الندى وكتب الهلال للأولاد والبنات

٢- روايات أطفال " صديقى فرتكوش "

٣- مسرحية " سارق الحضارات " للأطفال

٤- رواية أطفال "كوكب النفايات (وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد عام ٢٠١٣ ثم حجبت الجائزة)



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٢٧٢-٣٥٨٦٠٣٧٢-٠٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

دخل إلى محل إكسلسيور الملاصق لسينما مترو بشارع طلعت حرب
كان يحمل ابنه الذي لم يتعد الشهور الثمانية بعد، لم يجلس فى المحل
بل ظل يدور فى أرجاء المكان وهو يهدهد الطفل ويلاعبه، وفى توقيت
معين اقترب من الركن المخصص لتجهيز الأطعمة أمام الزبائن، كان
الطاهى منشغلاً بتتبيل الكفتة ومساعده يزيل الشحوم والدهون عن
الأسياخ الحديدية ،ويراقب فالوقت ذاته الدجاج الذي يسلق فى إناء
ضخم ،كان صاحبنا يقرب الطفل من الصينيات المجهزة و يخاطبه
بلغة عربية وبأداء تمثيلي: هذه هى البطاطس وتلك سلاطة الخضروات
التى تطفو على سطحها الطماطم والكرفس.و هذا ما يسمى بالسمك،
كان الطهاه ومن يجاورهم من المساعدين والجرسونات يضحكون جداً
من هذا المشهد المسرحى،وكان الطفل يبتسم لمنظرهم، و الزبائن فى
غاية،الدهشة وصاحبنا يدبر أمراً عجيباً،دخل بالطفل إلى الحيز الممنوع
دخوله على غير العاملين،واقترب من إناء الشوربة الضخم الذى يغلى
و يتصاعدمنه بخار كثيف،قرب الطفل من الإناء وظل يهد
غير مفهومةوكلما اقترب منه أحد هوشه بإلقاء الطفل دا
صرخ الزبائن ونهضوا عن أماكنهم، وحاصره العاملون با
من كل الجهات

الغلاف: سارة عابدين


ISBN 9789776436244

